أبو العيد دودو

الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان

1830 - 1855







أبو العيد دودو

الجزائر في مؤلفات الرّحالين الألمان

1830 - 1855



صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يهدى ويوضع في المكتبات ولا يباع

كتب أخرى للمؤلف

صدرت عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

بحيرة الزيتون (مجموعة قصص) الجزائر	1967
التراب (مسرحية) الجزائر	1968
دار الثلاثة (مجموعة قصص) الجزائر	1971
كتب وشخصيات (دراسات) الجزائر	1971
مدخنو الحشيش (ترجمة) الجزائر	1971
مذكرات بفايفر (ترجمة) الجزائر	1974
ثلاثة سنوات في شمال غربي افريقيا ، مترجم ، ج 1	1976
ثلاثة سنوات في شمال افريقيا مترجم ، ج 3	1979
ثلاثة سنوات في شمال افريقيا ، مترجم ، ج 2	1979
قسنطينة أيام احمد باي (ترجمة) الجزائر	1980
الطريق الفضي (مجموعة قصص) الجزائر	1981
البشير (مسرحية) الجزائر	1981
صور سلوكية الجزائر	1985
الشاعر وقصيدته الجزائر	1986

© رقم النشر : 1977/85
المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر 1989

مقدمة

عندما نذكر الجزائر ، ويروق لنا أن نتحدث عنها لمناسبة ما ، تبادر إلى أذهاننا لأول وهلة كلمات مختلفة ، تكاد لتوهجها أن تكون مترادفات لها . فهي تعني الثورة والتضحية ، الجهاد والنضال ، التضامن والأخوة ، الحرية والكرامة وبالتالي الفكر والإشعاع ، وإذا اقتصر مدلول بعض هذه الألفاظ على عصرنا الحاضر ، فإن لبعضها الآخر جذوراً تاريخية عميقة ، امتدت عبر عصور متتالية وخصها التاريخ بصفحات رائعة ، لا تزال للأسف الشديد تمثل حلقات مفقودة في تاريخ الجزائر وثوراتها الحديثة .

والظروف الراهنة ، التي نحاول فيها إعادة بناء شخصيتنا الوطنية ، تفرض علينا أن نهتم بمعرفة تاريخ الثورات والبطولات التي عرفتها أرضنا المجيدة . فمن المؤكد أن هذه المعرفة تساعدنا على الاعتزاز بماضينا ، والحفاظ على خصائصنا المتوارثة ، والتمسك بكل ما يمثل أمجادنا خلال عصور وعصور ، كما أن من شأنها أن تكون وقاية لنا من الإنسلاخ والعبودية الفكرية والتبعية الحضارية . ولكن التاريخ لا يكتب نفسه بنفسه ، فهو انطواء وموت بطيء وظلام . فلا بد إذن من إحيائه وإعادة كتابته بطرق سليمة ، لا فرق في هذا بين الماضي القريب والبعيد ، وذلك قبل أن يفني حاملوه من رجال وكتب ووثائق ، وهذا ما تفعله الشعوب التي تحرص كل الحرص على أن يظل ماضيها حياً ناطقاً بمفاخرها ومآثرها ، لتبني على أساسه حاضرها ومستقبلها ، وتُطوّر على ضوئه ثقافتها وشخصيتها .

والتاريخ عندها في تجدد مستمر وبعث متواصل ، فما هو إلا ضميرها الوطني ووجدانها القومي وإيمانها بذاتيتها ، بل هو جزء من معتقداتها ، ومن ثم يجد الباحث من أبنائها ، حين يتصدى للكتابة عنها ، مصادر متنوعة تعالج دوراً من أدوارها التاريخية ، تتطلب منه دراستها والإحاطة بجزئياتها مجهوداً كبيراً ، وقد يختلف مع هذا المؤرخ أو ذاك في النتائج التي توصل إليها ، إلا أنه لا يخامره الشك أبداً في أن مواطنه قد وضع كتابه

بدافع من ضميره الوطني وإلى هذا الحد يمكننا أن نتساءل كيف يتسنى لنا أن نعيد كتابة تاريخنا والحال أننا قلما نعثر على مصادر وطنية من نوع ما نجده لدى الشعوب الأخرى ؟ كيف يمكننا ذلك ونحن نعلم سلفا أن تاريخنا قد كتبه مؤلفون أجانب ، كانت غايتهم في أغلب الأحيان ، الدس والتشويه ، لأن مصالحهم اقتضت دائماً قطع كل صلة تربطنا بماضي أجدادنا ؟

لست أول من يطرح هذا السؤال كما أنني لست مؤرخاً يتيح له إطلاعه الواسع ، وتجاربه المتنوعة في هذا الميدان ، أن يجيب عنه إجابة مرضية ، وبالرغم من هذا فإني أعتقد أن من واجب كل من يتقن لغة أجنبية أن يشارك في إعادة كتابة تاريخ بلاده بغض النظر عن ميدان اختصاصه . ومشاركته هذه تتم في نظري عن طريق عرض النصوص المكتوبة بهذه اللغة أو تلك وتقديمها للمؤرخ المتخصص لتقويمها وربطها بقرائنها التاريخية ثم مقارنتها بغيرها من النصوص لمعرفة مدى صحتها وموافقتها للوقائع التاريخية ، وذلك بطبيعة الحال فيما إذا تعذرت ترجمتها كاملة لصعوبة استعارتها لمدة طويلة أو لأي سبب آخر . وغني عن القول أن هذه النصوص المكتوبة بلغات أجنبية مختلفة ، زيادة على احتوائها على تجارب خاصة بكل مؤلف من مؤلفيها ، يشكل بعضها قسماً من التراث الوطني لا تزال أصوله العربية مجهولة غير معروفة لنا .

والفضل في وجود نصوص من هذا النوع يرجع إلى أن الجزائر قد عرفت في القرون الأخيرة ، في نهاية العهد التركي وإبان الاحتلال على الخصوص ، عدداً غير قليل من الأسرى والعبيد ، كانوا ينتمون إلى معظم شعوب أوروبا ، وزارها كذلك بعض الرحالين والكتاب والعلماء والشعراء . وبعد أن رجع هؤلاء وأولئك إلى بلدانهم أصدروا كتباً على شكل رحلات أو بصورة رسائل أو مذكرات ، تحدثوا فيها عن تجاربهم الشخصية في الجزائر وعلاقاتهم بأهلها ، وعبروا عن موقفهم من قضاياها الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية والخلقية ، كما تطرقوا إلى وصف العادات والتقاليد وأساليب الحياة في المدن والقرى والأرياف ، ومن هنا نجد العديد من هذه الكتب في مكتبات أوروبا ، تختلف قيمتها بين كتاب وآخر ، وحبذا لو شكلت وزارة الثقافة لجنة لجمع هذه الكتب من المكتبات العديدة في أوروبا ليستفيد منها الباحثون .

1989/4/19

الفصل الأول

الجزائر في مؤلفات الرحالين الالمان

(1830 ـــ 1855)

سأقصر حديثي فيما يلي على قسم ضئيل منها مما يوجد في مكتبة جامعة فيينا باللغة الالمانية من وضع الرحالين الالمان أو الذين أقاموا منهم مدة في الجزائر لظروف خاصة ، وذلك دون الاهتمام بما ترجم اليها من لغات أخرى ، كاللغات الشمالية مثلا ، والاكتفاء بالاشارة اليها خلال العرض إن دعت الحاجة الى هذا . وليس من الممكن طبعا تفصيل الحديث في هذه الكتب ، وانما سنتعرض لاهم ما ورد فيها ، فلعل فيه ما يساهم في تحديد ملامح الشخصية الوطنية من خلال ما كتبه هؤلاء الالمان في الفترة المحددة ، ويلقي قليلا من الضوء على الظروف التي كانت تعيشها الجزائر آنذاك ، ويمكننا من الاطلاع على حقيقة الصراع الذي عرفه أجدادنا في مختلف الميادين ، ويهدينا في النهاية الى افكار وآراء تختلف عما تعودنا قراءته في الدراسات والنصوص التي كانت تستهدف تجريد شعبنا من كل ما له من مميزات وسمات عريقة .

ملاحظات عامة :

قبل أن نبدأ بعرض البعض مما ورد في هذه المؤلفات يجدر بنا أن نلاحظ أن الرحالة الالمان لم يضعوا كتبهم عن الجزائر حبابها ، ودفاعا عن حقوقها ، وانما

وضعوا اكثرها ، ولاسيما في الفترة الأولى ، لتكون دليلا لمن أراد من مواطنيهم الهجرة الى الجزائر لانشاء المستعمرات والاقامة بها اقامة دائمة تحت ظل الاحتلالالأجنبي وحماية حكومته ! ولا يمكننا بطبيعة الحال أن ننتظر منهم غير هذا الذي فعلوه . فقد كانت مصالح مواطنيهم مرتبطة بمصالح الغزاة سواء بحكم رغبتهم في الانضمام الى الفرقة الاجنبية أو بحكم نية الهجرة الى المستعمرة الجديدة الرائعة ، كما وصفها أحدهم . هذا بالاضافة الى انها كانت اقرب اليهم من امريكا أو البرازيل وغيرها من دول العالم الجديد التي كانوا يهاجرون اليها سابقا . ثم انهم كانوا على الاغلب يشاركون المحتلين في عواطف الحقد على الدولة الجزائرية السابقة ويرغبون رغبة كاملة في الانتقام ، تحت ستار الدين والتضامن الاروبي ، من اولئك الذين كانوا يكونون نواة تلك الدولة أو اصبحوا يجسدون القوة الفتية التي وقفت في وجه الغزاة وأخذت تقاومهم من خلف الاسوار والهضاب والمرتفعات .

ينبغي اذن الا نعجب حين نعثر ، ونحن نقبل على قراءة مثل هذه المؤلفات ، على كثير من الآراء المتطرفة ، والافكار الخاطئة التي هي مجرد صدى لما كان يدين به ذلك العصر من رغبة في السيطرة والتحكم ، وشغف بالسلب والنهب والعدوان ، وحب المال وتكالب على خيرات الغير وأرضه وضياعه وممتلكاته وحصونه . ولسنا في حاجة الى ذكر هذه الآراء والتعقيب عليها ما دامت لا تضيف جديدا الى ما سبق أن عرفناه في مؤلفات اخرى . وانما نكتفي بما يخدم غرضنا ويكشف عن بعض جرائم الدخيل وفظائعه أو يزيدها ايضاحا او يتخذ منها موقفا انسانيا صريحا ، ولكن هذا لا يعني أن علينا أن نأخذ كل ما سيرد في خلال هذا العرض أو في النصوص المترجمة على أنه قضية مسلمة ، وانما ينبغي أن نضع في اذهاننا دائما ان المؤلف ، اي مؤلف كان ، عرضة للخطإ في المعلومات التي يقدمها ، فقد يعود مثل هذا الخطأ إلى عدم معرفته للغتنا الوطنية وقلة اطلاعه على الاحداث القومية اطلاعا مباشرا أو لتسرعه في الحكم دون تحري الحقائق التاريخية أو لتعلقه بوجهة نظر معينة ، فالمؤرخ الجزائري حر بعد ذلك في أن يرفضه ان يقبله ويتبناه بعد مناقشته مناقشة علمية رزينة .

اهتمام الالمان بالجزائر :

لقد اهتم الالمان في بداية الامر بترجمة ما كتبه المؤلفون الأجانب عن الجزائر فنقلوا الى لغتهم كتاب الرحالة الانجليزي توماس شو «رحلة في ولاية الجزائر» سنة 1765 ، وكتاب الشاعر الايطالي فيليبو بنانتي «رحلة الى سواحل البرابرة» عام 1824 ، وكذلك كتاب رنودو عام 1830 . وبعد احتلال الجزائر بمدة قصيرة نشرت مجلة الكتب السنوية في عدد سبتمبر سنة 1830 دراسة مطولة ، استقت الكثير من معلوماتها عن الجزائر من المجلة الايطالية للعلوم والآداب والفنون وأضافت الى ذلك شيئا مما عثرت عليه في مراجع ومصادر اخرى ، واستعانت أيضا بكل من شو ، وبنانتي ، وبيير دان ، الذي صدر كتابه عن الجزائر في باريس عام 1649 وقد تحدث مؤلف هذه الدراسة عن ولاية الجزائر ومدنها وموانئها وجبالها ووهادها وأنهارها وبحيراتها وجوها ومناخها وخصوبة أراضيها ومنتجاتها الزراعية ، واشار الى أهم مدنها وقدم خلاصة لتاريخها ، وخاصة القل وبجاية وعنابة وجيجل وقسنطينة والجزائر ، ويذكر ان بالجزائر عشرة مساجد كبيرة وحوالي خمسين مسجدا صغيرا وخمس مدارس وعددا كبيرا من مدارس الكتاب . ولعل أهم ما ورد في هذه الدراسة هو الحديث عن مسألة العبيد التي اتخذتها أوربا ذريعة للاعتداء المتكرر على السواحل الجزائرية والاشارة الى أن هؤلاء العبيد كانوا قد اصبحوا ملكا للدولة الجزائرية قبل خمسين سنة ، وأنه من الانصاف الاعتراف بأن أوضاع الاسرى في الجزائر كانت افضل بكثير من اوضاع أمثالهم في البلدان المسيحية . ذلك أن العبودية في البلدان الاسلامية عبودية منزلية ، يكره عليها العبد ومن ثم يشق عليه احتمالها . وقد تقلد كثير من عبيد الجزائر وظائف سامية ، جلبت لهم الخير والنفع والثراء ، وهناك من صعب عليه أن يترك الجزائر ويتخلى عن أرضها وسمائها ، ولما غادرها وعاد الى بلاد أوربا المتمدنة امتلأ قلبه حسرة عليها وعلى النعيم الذي عرفه فيها كعبد أجنبي ، إذ كانت مصدر سعادة وهناء بالنسبة له . ويتحدث المؤلف عن امرأة سويدية عاشت في الجزائر مكرمة مبجلة ، انتقلت الى استامبول قبل الاحتلال بمدة قليلة . ويبدو أنها قد تحدثت مع بعض الاوربيين عن أوضاع العبيد في الجزائر .

وتذكر المجلة في نهاية دراستها ان الجزائريين لا ينقصهم الذكاء ولا المواهب ولا القدرة على التطور ، ولكن الاضطهاد التركي هو الذي تركهم على هذه الحالة التي هم فيها ! وقد بدأ اتصالهم بأروبا قبل نصف قرن ، اذ سافر اليها كثير منهم ، وزاروا بعض بلدانها وحصلوا على معارف متنوعة ، أدت الى ظهور مواهبهم المختلفة بصورة أوضح !

الفصل الثاني

فيلهلم شيمبر

(1804 — 1878)

يجدر بنا أن نعرف اولا شيئا من حياة الرحالة والعالم فيلهلم شيمبر ، فهو جدير بذلك . وسيدرك القارىء من خلال أفكاره وكلماته مدى انسانيته وطيبته وموضوعيته . وشخصية شيمبر عجيبة حقا ، وهو اخو العالم النباتي المشهور كارل فريدويش ، وكان لفيلهم المام كبير بعلم النبات ، ولكنه قصر مع ذلك عن الوصول الى الدرجة التي وصل اليها أخوه بمراحل . فتفرغ لجمع النباتات . وقام برحلات في جنوب فرنسا والجزائر ومصر والجزيرة العربية لهذا الغرض وكان قد كلف بها من طرف الجمعية النباتية . ولنجاحه في مهمته أرسل ايضا الى بلاد الحبشة ، فأحسن اليه ملك «تيغره» وسهل له القيام بمهمته مدة ثلاث سنوات ، أراد بعدها العودة الى أوروبا ، غير أنه مرض في الطريق فحملته قافلة الى مكة . ومنها عاد الى الحبشة واستقر بها ، حيث عينه صديقه الملك واليا على منطقة «أنتيشو» وتزوج بحبشية . وعاش بها عيشة هادئة دون ان يصرفه ذلك عن مهمته الانسانية ، ولما قامت الحرب بين ولي نعمته الملك «أوبية» وغريمه الملك «تيودور» سنة 1855 ، اعتقله هذا الأخير في قلعة «ماغدالا» ، ولم يتم اطلاق سراحه الا بعد تسليمه الى الانجليز عام 1868 ، فأقام في «آدوا» الى أن أدركته الوفاة .

زار شيمبر الجزائر في شهر ديسمبر سنة 1831 ، أي بعد مرور حوالي عشرة أشهر على احتلالها من قبل الفرنسيين وأقام بها حوالي عشرة أشهر ولما عاد الى بلاده ، بعد أن أصابته الحمى المتقطعة وأفقدته ذاكرته لفترة قصيرة ، أصدر

كتابا صغير الحجم بعنوان « رحلة فيلهلم شيمبر الى الجزائر في سنتي 1831 و 1832 » ، تم طبعه في مدينة شتو تغارت عام 1834 . وعندما وصل الى ميناء الجزائر كان أول ما لاحظه وابتهج لرؤيته هو الاخوة التي تجلت في سلوك الحمالين مع بعضهم البعض . فقد تقدم منه جمع منهم ، ولما اختار حمالين ، قدم لهما الآخرون أدوات الحمل من حبال وعصي وابتعدوا بكل هدوء . فحمله هذا السلوك على أن يقارن بينهم وبين الحمالين في أوربا ويقول عنهم انه لهم عكس ما للجزائريين من خلال حميدة ويصفهم بالقحة والغدر والكسل (ص 18) .

ويتحدث بعد ذلك عن مدينة الجزائر فيرى انها قد دعيت هكذا بسبب الفياضانات التي تغمر سهل متيجة في الشتاء وتحيله الى بحيرة كبيرة ! ويقدر عدد بناياتها بخمسة عشر الف وسكانها بمائة الف نسمة ، كما يذكر اللغات المستعملة بها وهي العربية والاسبانية والفرنسية والايطالية والالمانية والانجليزية والهولاندية وغيرها مما لم يعرف له اصلا ولا نسبا .

وبعد أن يذكر الحضر ، وهم في رأيه أهم عنصر في المدينة ، ويتراوح عددهم بين الثلاثين والاربعين الف ، ينتقل الى الحديث عن الاسرة والسعادة التي تسود حياتها المنزلية فيقول : «وقد أتيح لي أن أراقب أسرة كانت تسكن بجواري . فحين يعود الرجل الى البيت تستقبله الزوجة معانقة أياه مقبلة ، وتجلسه قربها فوق الاريكة وتحدثه ويحدثها . ويسرع الاطفال كذلك الى أبيهم فرحين ، فيضمهم الى صدره في حنان وحب ويأخذ في مداعبتهم .» (ص 33) . وقد تعرف على جارته ، وهي عجوز اسبانية يصفها بالقبح ، فأرسلها الى بيت الجيران لتصف له داخل البيت وحياة الاسرة وأعمالها المنزلية . فذهبت لزيارة جارتها على الساعة الواحدة بعد الظهر ، وكتبت له تقريرا بتاريخ 24 يناير 1832 ، أوضحت له فيه كيف دقت الباب فسمعت صوتا يقول :

«أشكون ؟ «فردت هي «مرا» ، ولما فتحت لها الباب دخلت عليها قائلة : «واش حالك ؟ كيف أنت ؟ صباح الخير ؟» .

وحملت له حروزا استعارها منها لترجمة ما فيها الى الالمانية . ويخلص بعد هذا

الى القول «ان المرأة تعيش كالسجينة تقريبا ، وليس مرد ذلك الى غيرة زوجها ، وانما مرده الى العادة المتبعة . فالرجل الجزائري ليس غيورا جدا ، بل هو في غيرته لا يختلف عن أي انسان ينتمي الى شعب آخر . وان هو وجد رجلا في بيته ، فان تصرفه في هذه الحالة لن يختلف عن تصرف رجل النمساني مثلا !» (ص 33 — 46) .

ويتطرق شيمبر الى الحديث عن التربية والتعليم فيذكر أن الاطفال يذهبون الى المدارس ، وهي موجودة بكثرة ، في السادسة من العمر ، يتعلمون فيها القراءة والكتابة والحساب وحفظ القرآن ، ثم يواصلون تعليمهم عند العلماء والفقهاء . ويسافر الكثير منهم فيما بعد الى تونس والاسكندرية والقاهرة أما لاتمام دراستهم أو لتعلم الحرف وفنون التجارة . كما يذهب البعض منهم الى «ليفورنو» لدراسة الطب واكتساب المعارف الأوربية في مختلف الميادين . والى جانب هذا هناك من سافر منهم سابقا الى فرنسا وانجلترا . وينوه المؤلف بشاب جزائري عرفه عن قرب ، ويقول عنه دون أن يذكر اسمه أنه طاف بأوربا كلها تقريبا وعرف أحوالها وتقاليدها معرفة جيدة ، وشاهد مسارحها وآثارها في كل مكان اتيحت له رؤيته ، كما زار عددا من البلدان الافريقية وأنهى رحلاته بالحج الى مكة . وكان يتكلم الى جانب العربية الانجليزية والفرنسية والاسبانية والايطالية واليونانية . ثم يؤكد المؤلف أن الحضر على العموم يقومون بسفرات كثيرة ويجوبون الاقطار المختلفة ويعودون بعد ذلك الى وطنهم مزودين بمعارف عدة .. لكنهم لا يحاولون اتقان أي شيء ولا يتعلمون أية لغة قديمة !

وبعد ذلك يقرر شيمبر ما يلي : «لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة ، غير اني لم أعثر عليه في حين اني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوربا ، فقلما يصادف المرء هناك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشعب .ومن الانصاف أن نقول ان الجزائريين يتكلمون الفرنسية بطلاقة ، وذلك ما دعا الحكومة الفرنسية الى استخدامهم في الوظائف العمومية ، أما الفرنسيون الذين يتكلمون العربية فلا وجود لهم الا في النادر جدا !» (ص 52 — 53) .

ويقول المؤلف ان الحضر ملمون بالعلوم ، ولكنهم لا يهتمون بها ، فاذا

حفظ أحدهم القرآن وتعلم الكتابة وأصبح في مقدوره أن يفسر القرآن فانه يعد عالما كبيرا . اما اذا أدى فريضة الحج فانه في هذه الحالة يعتبر نفسه مرابطا ، يتسم سلوكه بالانعزال والانصراف عن الدنيا ، وله من يقوم على خدمته ، الا انه في كثير من الاحيان يؤدي بنفسه كثيرا من الاعمال المختلفة . (ص 57)

ويتحدث المؤلف عن الحمامات في الجزائر وعن الدور الذي ينسبه اليها الحضر في معالجة الكثير من الامراض أو الحيلولة دون وقوعها ، ويتحدث عن طريقة من طرق العلاج التي شاهدها في الحمام ويصفها على الصورة التالية :

«دخل الى الحمام شاب انتفخت لوزتاه عند فكه الاسفل ، واستحم ثم اتجه الى رجل كبير السن كان جالسا في الرواق . ومع انه لم يكن طبيبا ، فقد اضطجع الشاب أمامه ، فوضع يديه فوق لوزتيه وضغط عليهما بشدة رافعا اياه عن الأرض لمدة طويلة ، ثم اعاده الى مكانه ، وقد اعوج وجه الشاب الذي فتح عينيه برهة ثم اغمضهما وقد بدا عليه أنه فقد وعيه تماما ! وعندما استيقظ ثانية ونظر حوله مستغربا .. كرر الشيخ العملية معه مرة ثانية وثالثة الى أن غاب الشاب عما حوله مدة طويلة ، وبالتالي فتح عينيه وتنفس بقوة واستحم من جديد ، ثم غادر الحمام وقد شفي من مرضه !» (ص 80)

ويؤكد شيمبر ما قاله بفايفر قبله من أن الطب يكاد يكون غير معروف في الجزائر ، فلا يوجد في المدينة على كبرها سوى طبيب عربي واحد وهو صيدلي في الوقت نفسه ويصف هذا الطبيب بالجهل والكسل ، فعلى الرغم من أنه درس الطب في مدينة «ليفورنو» لمدة لم أستطع تحديدها ، فانه لم يكن يعرف كلمة ايطالية واحدة ولا اسبانية ، بل أنه لم يكن يعرف حتى اللغة الفرنجية التي يتكلمها كل أنسان في الجزائر ! ويضيف قائلا : «ومع ذلك فاني أشكر هذا الطبيب على ملاحظة قيمة : فيما أنني لم أر كلبا مسعورا في الجزائر وان السكان هناك لا يعرفون ذلك أصلا ، فقد سألته عن رأيه في مسألة وجود سعر الكلاب في أوربا فقال ان سببه يعود الى قتل أنثى الكلب ، وليس من العادة في الجزائر قتل الكلبة !» وأسعد أوقات هذا الطبيب هي تلك اللحظات التي لا يطلب منه فيها القيام بعمل ما ! (ص 82) .

ويتحدث المؤلف عن العميان ويأخذ على الأوربيين انهم يعاملونهم معاملة في منتهى القسوة وانه لم ير ، خلال العشرة اشهر التي قضاها في الجزائر ، أوربيا واحدا يقدم لهم أية مساعدة . وعلى العكس من هذا كان موقف المواطنين منهم فقد رآهم يشفقون عليهم ويساعدونهم ما وجدوا الى ذلك سبيلا ، وقد كانت الشحاذة مقصورة عليهم ، أما الاصحاء فكان من العار عليهم في نظر الجميع أن يمدوا ايديهم تسولا ! (ص 83)

وكما أشار غيره الى كثرة المقاهي كذلك يشير اليها المؤلف ويقول انه كان يرى المواطنين جالسين فيها في الساعة الثالثة صباحا ، ولا تخلو منهم اليوم كله ، يبقون فيها مدة طويلة يدخنون ويشربون القهوة . غير انه لا يعتبر جلوسهم هذا دليلا على الكسل والخمول ، وينكر على كل من يحكم عليهم بذلك معرفته بأوضاع الجزائر . فالداعي الى الجلوس في المقاهي تحتمه ، في نظره ، المعاملات الفردية في اغلب الاحيان .. بالاضافة الى ان المسلك الهادىء ضروري الى حد ما في هذه البلاد ، والهدوء والنشاط يتبع أحدهما الآخر ، كما يقول ، أما الخمول فانه لم يتسلط بعد على طبيعة الجزائريين ! (ص 84)

ويذكر مقهى كبيرا بالجزائر ، يجتمع فيه العرب في الثامنة ليلا ، ليستمعوا الى موسيقى وأغان عربية . وقد تقدم شيمبر من أحد الموسيقيين وطلب منه أن يكتب له الأغنية التي استمع اليها ، فكتب له مقاطع منها ترجمها الى اللغة الالمانية ، وهي :

عندما دققت الباب
رن نائحا صوت الناقوس .
قلت : أين أحبابنا ، يادار ؟
فخف الى طير من المساء
وهمس في حزن اليم :
أتسأل عن أحبابك ؟
لقد ذهبوا .. فلم الحزن ؟
الست في بلاد فيها يعيش

أهلي وأحبابي ؟
كلا . أنا في بلاد تمزق فيها
قلبي والتهب كالحطب .
لاتكتب اليهم ، أيها الكاتب ،
فالفراق بيني وبينهم .
اذا بقيتم بعيدا عني ، يا احبابي ،
فسوف أقسو عليكم في كتاباتي ،
سأسحق الرمل والصوان بين أسناني ،
سأكوم البحر فنجانا صغيرا اضعه
فوق رأسي ، وادعو الله أن يلطف
قلوبكم الظالمة القاسية .
كيف جرؤت أن تنشر نورك ،
يا يوم الفراق !
ها قد احترق قلبي ألما ،
وتذبت دخيلتي حزنا ،
فلماذا أشقيت حياتي ؟
آه منه ، آه من يوم الوداع ، يا احبابي !

ولاشك أن هذه الأغنية تصور حقيقة الحزن الذي امتلأت به النفوس بعد الاحتلال ، حين اضطر كثير من المواطنين الى الهجرة ، كما تجسد غضب من أقام على من ارتحل ! (ص 84 — 85)

ويتعرض المؤلف في كتابه للحركة التجارية في الجزائر ، فيؤكد أنها قد وصلت الى حد كبير من التدهور ، لأن الفرنسيين لا يبدون أية رغبة في اقامة علاقات تجارية مع داخل البلاد ، يضاف الى ذلك أن التجارة أصبحت بين الاروبيين ، وان التاجر العربي الصغير مضطر الى أخذ بضائعه منهم وهم على ما هم عليه من طمع وجشع . كما يشير شيمبر الى ان الصناعات اليدوية ليست بأحسن حالا من التجارة .. فقد اصبحت في حالة يؤسف لها اشد الاسف .

ذلك أن الأغنياء ، الذين كانوا يشجعون مثل هذه الصناعات ، قد طردهم الفرنسيون من بلادهم ، ومن لم يطرد منهم فضل أن يغادر وطنه من تلقاء نفسه سخطا على الأوضاع الجديدة ، ورفضا للحياة في ظل نظام اجنبي ! أما الذين لم يستطيعوا ترك البلاد بسبب أوضاعهم المادية ، فقد توقفوا عن العمل لان الاوربيين في غنى عما تنتجه ايديهم . وهؤلاء الاوربيون الذين وصلوا الى الجزائر يكونون مجموعة من الاسافل والاشرار والمجرمين الكبار . كانوا قد طردوا من بلدانهم لسوءسلوكهم ودعارتهم ، وانهيارهم الخلقي واستهتارهم بكل عرف اجتماعي . وهكذا اصبحوا سببا في الاوضاع المؤلمة التي يعاني منها هذا الشعب المسكين . (ص 93)

ويرى ان الشعب الجزائري لا يختلف عن غيره من الشعوب من حيث اخلاقه وطبائعه ، فالخير والشر يجتمعان فيه جنبا الى جنب مثلما هو الحال في أي مكان آخر . ويكرر مرة أخرى أنه يفضلهم على سكان الشاطيء الأروبي للبحر الابيض المتوسط ، لأنهم اكثر تدينا وثقافة منهم ، فهم على الأقل يستطيعون القراءة والكتابة ويحبون النظام والنظافة ويمارسون أعمالهم بجد ونشاط وبصورة منتظمة ، ولا يبدون أي تعصب . ويقدم دليلا على عدم تعصبهم هذا فيقول انهم أعاروه ثيابهم وادخلوه مساجدهم والتفوا حوله ليسلموا عليه ويسألوه عن احواله .. ولكنهم لا يرضون بالتعدي على حرماتهم وتقاليدهم الدينية . حقا ان معاشرتهم لا تخلو في البداية من برود ، الا ان الانسان سرعان ما يكتشف طبيعتهم ولطفهم واخلاقهم النبيلة وفضائلهم الحميدة ! (ص 97)

وينتقل بعد ذلك الى الحديث عن شجاعة الجزائريين في الحروب وأنواع اسلحتهم ومهارتهم في استخدامها وكيف ان الجبال كانت معاقلهم منذ القديم ، وكيف اتاحت لهم على مر العصور الدفاع عن انفسهم ، ويشير الى أن هناك عددا من الجواسيس بينهم ، بعضهم يتجسس لصالح الفرنسيين والبعض الآخر لصالح العرب . ويصفهم بالفروسية والصمود ، ويلاحظ أن عيبهم الوحيد هو أنهم غير منظمين وأن ما بينهم من خلاف وعراك وتطاحن قد مكّن اعداءهم من منافع كثيرة ، فعرف جنرالات فرنسا كيف يستفيدون من هذه العيوب والاخطاء

فحرصوا على زرع الشقاق بين القبائل ، على الرغم من أن الفرنسيين واليهود يخافونهم أشد الخوف ! (100 ــ 102)

ولم تقتصر اقامة شيمبر في الجزائر على المناطق التي كان الفرنسيون قد احتلوها ، وانما تعدتها الى مناطق اخرى . فذكر انه ذهب لزيارة العرب في قراهم البعيدة ، فاستقبلوه استقبالا حسنا والتفوا حوله ومدوا ايديهم لمصافحته ، وأثنى على كرمهم ثناء كبيرا . ويروي أنه وقع بعد الأكل في موقف حرج ، لأن شيخ القبيلة طلب منه هدية ، والعرب ، كما يقول ، يحبون ان يهدي اليهم شيء ما ، ولكن بما أنه لم يكن لديه ما يمكن الاستغناء عنه ، فقد اخرج كل ما كان لديه من نقود وقدمها لشيخ القبيلة ، فأخذ منها هذا قطعتين صغيرتين واعاد اليه الباقي . وعندئذ عرف شيمبر أنه كان يريد منه شيئا للذكرى لا غير ! وتكررت زياراته لهم بعد ذلك ، وكانوا في كل مرة يساعدونه في جمع ما كان يريد جمعه من حيوانات ونباتات وحشرات ، ثم قامت الحرب التالية فحيل بينه وبين الوصول اليهم . ويتحدث أيضا عن القبائل ويصف أسلوب معيشتهم ويمد ما لهم من جد ونشاط وأنهم يشتغلون في البساتين وحقول الحنطة وأن لدى القنصل ، ولعله يعني القنصل الألماني ، ما يزيد عن ثلاثين عاملا منهم ، ويشيد بعنادهم وشجاعتهم في الحروب وان الفرنسيين ينظرون اليهم نظرة عداء لا تختلف عن نظرتهم لبقية الجزائريين في جميع المناطق . (ص 113 ــ 116)

وبعد أن يقدم المؤلف خلاصة لتاريخ الجزائر ، لم يأت فيها بجديد يذكر ، يسجل نصائحه للالمان الذين هاجروا او يريدون الهجرة الى الجزائر ويحذرهم من الاختلاط بالاشرار فيها ، ويحدد لهم الأماكن التي لا خطر عليهم فيها من طرف العرب ، ويوضح لهم كيفية الحصول على رخص الاستيطان ، كما يتحدث عن الاسعار في الجزائر وارتفاعها الفاحش وعما آل اليه أمر بعض الألمان فيها ، نتيجة لسوء تصرفهم فاصبحوا محتقرين مهانين ! وينصحهم أيضا بعدم الالتحاق بالفرقة الاجنبية ويبين لهم عاقبة ذلك ، فهذه الفرقة تقوم بأشد العمليات الحربية خطورة ، ليحمل الفرنسيون بعدها اكاليل الغار ! هذا زيادة على احتقارهم لافرادها مع أنها هي التي تقوم على حراسة الجزائر .

ويعود المؤلف للحديث عن التجار الفرنسيين فيؤكد من جديد انهم سبب المحن التي حلت بالجزائر ، فهم لا يعرضون بضائعهم في الاسواق الا بعد أن يتحول النقص في المواد الغذائية الى مجاعة ، ثم أنهم حريصون على القضاء على التجار الصغار الشرفاء حتى لا يفقدوا شيئا من تجارتهم ، وأنذل هؤلاء التجار هم اليهود المعمدون ! ومن الحقائق التي حرص المؤلف على ذكرها غير مرة أن محلات الأروبين قذرة بصورة تشمئز لها النفس ، في حين أن محلات العرب نظيفة ومنسقة تنسيقا حسنا تكشف عن ذوق رفيع وأصالة تامة على نحو معبر . ويسجل ما بين البائع العربي النظيف وجاره الاروبي القذر من فروق مميزة ، ولا ينفي النظافة حتى عن العمال الفنيين ، فهم يولونها أكبر اهتمام . ويقول ان في امكان الاسكافي الاروبي أن يذهب الى الجزائر ليتعلم كيف تصنع الاحذية ! (ص 130 — 140)

ويتأسف المؤلف للمعاملة السيئة التي يتعرض لها السكان الأصليون من طرف الاسافل الادنياء الذين وصلوا الى الجزائر من جميع أنحاء أروبا ووجدوا فيها ملجأ ومقاما ، ويحمل الولاة المتملقين مسؤولية الاوضاع المحزنة التي تسود المستعمرة ، لأنهم تركوا للجنود المتوحشين حرية التصرف من جهة ولم يحاولوا من جهة أخرى معرفة طبائع الافريقيين كما ينبغي ! ويضرب شيمبر مثلا على وحشية جنود الغزاة فيقول : «يروى أن قبيلة جزائرية أرسلت وفدا لتقديم ولائها للحكومة الفرنسية ، وبعد أن أهديت لهم برانس حمراء رجعوا من حيث أتوا . وفي طريق عودتهم مروا بقبيلة أخرى تسكن السهل ، وكانت تعيش في نزاع معهم ، فأعترضت سبيلهم وسلبتهم ما كان معهم من هدايا ، ولم يسلم منهم سوى اثنين ، قاما بابلاغ الحادثة إلى السلطة الفرنسية فجهزت هذه بعثة في الليل ، أحاطت بالقبيلة التي كانت تسالم الفرنسيين حتى ذلك الحين ، ودخلت على أفرادها وهم نيام في خيامهم وقتلتهم جميعا رجالا ونساء وأطفالا ، ثم عاد المنتصرون وساروا في المنطقة الفرنسية على أوحش صورة وابشعها . ذلك أن الجنود كانوا قد قطعوا رؤوس القتلى وشدوها بالحبال فوق أكتافهم . وقد اتضح فيما بعد ، كما قيل ، ان تلك القبيلة كانت بريئة !»

والمؤلف يعني دون شك قبيلة العوفية ، وهو متأكد من هذه الحادثة

وصحتها ، فقد اتصل بعدد من الجنود الذين شاركوا فيها ، فوجد البعض منهم يتحدث عنها باشمئزاز ويشكو من ان السلطات لم تضع حدا لمثل هذه العمليات الاجرامية ، والبعض الآخر يتحدث عنها بفخر واعتزاز . ويستمر المؤلف في روايته قائلا : «لقد حدثني أحد هؤلاء السفاحين في كبرياء وقال : كان هناك طفل واقفا في مؤخرة الخيمة ، فصحت به : أخرج ، يا حقير والا فسوف أطلق رصاصة في فمك ! ولكن البهيمة لم يطعني . وعندما ضغطت على الزناد طار نصف رأسه وتعلق بكتان الخيمة !» ويعلق المؤلف على رواية الجندي القاتل فيقول في سخرية مرة : «كان ينبغي للطفل البدوي البرىء الفزع أن يطيع أمرا وجه اليه بلغة أجنبية لايفهمها ! هذه هي أعمال العسكريين الذين يشغلون وظائف في السجون ويجلسون فوق منصات الحاكم !» (145 ـــ 150)

ويروي المؤلف كذلك أنه كثيرا ما كان يخرج الى مناطق الحراسة ، فيشاهد الفرق الكاملة من الجنود الفرنسيين وبعض الجزائريين المنضمين الى الفرقة الاجنبية يتربصون بالعرب العائدين من الأسواق ليسلبوهم ما معهم من مال ومتاع . وكانوا مجردين من السلاح ، ولكنهم كانوا يسيرون جماعات لهذا الغرض . ويؤكد أن ذلك ليس ظنا منه ، وأنما هو يستند إلى ما حدثوه به هم ، انفسهم بالاضافة الى ما وقع له هو ذاته . فبينما كان ذات يوم يحفر الارض لاستخراج بعض النباتات ، تقدم منه جنديان من جنود الفرقة الأجنبية ، وهما يتحدثان باللغة الألمانية عن الطريقة التي يثبان بها عليه ، فلم يهتم بهما الى أن اقتربا منه ، فاستدار بسرعة ووضع مسدسا تحت أنف كل منهما مخاطبا اياهما بالألمانية ، ففاجأهما حديثه بها ولاذا بالفرار . ويذكر أنه كان مرة عائدا من بعض جولاته ، فانضم اليه في أثناء الطريق باريسي ، وعرض عليه أن يقتل له جزائريا نظير خمسة من الفرنكات ! (ص 185)

ويذكر المساجد ايضا فيقول إن أروع مسجد في الجزائر قد هدم ، لتقام مكانه ساحة للاجتماعات ، مع أنه كان في الأمكان اقامة هذه الساحة قرب مقام الحاكم الفرنسي . كما أصبح كثير من المساجد مخازن للتبن بينما تحول البعض الى بنايات عسكرية ، وهناك مسجد أعطي لبعض السادة الحلويين ، على حد

تعبيره ، لمزاولة العزف على الكمان ! وهدمت كذلك أضرحة عزيزة على قلوب الجزائريين ليقام مكانها ميدان تتم فيه التدريبات المختلفة . ثم يضيف قائلا : «ومن هنا يمكننا أن نفهم الأثر الذي تخلفه أعمال الغالبين في نفوس المغلوبين ، بحيث أنه يبدو من الصعب أن يعيش البعض بجانب البعض الآخر في أمن وسلام . ولا يمكن الا أن يثور المرء على مثل هذه الاعمال الفظيعة ، لأن وثيقة الاستسلام تنص على عدم المساس بممتلكات الجزائريين ومقدساتهم الدينية .» (ص 187 — 188)

وفي النهاية يقول : «لعل البعض سيآخذني على ما أقدمت على ذكره ها هنا ، الا أن مآخذة كهذه أحسن لي من أن أخفي عن الناس شيئا . فقد يكون الحديث عن مثل هذه الفظائع مدعاة الى لفت الانظار اليها والعمل على ازالتها .» ويكرر في نهاية كتابه دعوته الى احترام قوانين الجزائريين ومعتقداتهم ، ليتمكن الأوروبيون من كسب ثقتهم والميل اليهم والاتحاد معهم باطنيا !

نلاحظ مما تقدم أن شيمبر قد تحدث عن أوضاع الجزائريين بعد الاحتلال من وجهة السائبة ، وكشف النقاب عن جرائم الغزاة ، دون ان يعترض — صراحة على الأقل — على احتلال الجزائر واستعبادها ، وان كان قد حذر أبناء بلاده من الهجرة اليها حتى لا يصبحوا رعايا حكومة أجنبية تمارس مثل هذه الفظائع والجرائم ، ويضطروا للمشاركة فيها بوجه من الوجوه ، فيكسبوا بذلك عداوة شعب لم يسبق له أن أساء اليهم وارتكب ما يحملهم على اذلاله والتنكيل به ، ولم يرض لهم أن يحتقروا من جانبين ، من طرف الغزاة والمواطنين !



الفصل الثالث

فردیناند فینكلمان

وضع فينكلمان بدوره كتيبا عن الجزائر بعنوان «تاريخ احتلال الجزائر من طرف الفرنسيين سنة 1830» نشره بمدينة ايلسناو عام 1832 . أورد في الصفحات الاولى نبذة عن تاريخ الجزائر قبل الاحتلال بفترة قصيرة ، فأشار الى فشل فرنسا في مفاوضتها مع محمد علي (أواخر 1829) لحمله على الاعتداء على الجزائر ، وخيبة مساعيها في احداث القطيعة بين بأي قسنطينة وداي الجزائر ليتم لها النصر بسهولة . كما تحدث عن اتصالها بالشعب الجزائري نفسه عن طريق منشورات وزعتها في الولايات ، تدعوه فيها الى مساعدتها في بلوغ غايتها وأهدافها ، دون أن يتم لها ما أرادت رغم الوعود التي بذلتها له (ص 10) .

وبعد ذلك يتحدث المؤلف عن الظروف التي تم فيها الاستيلاء على الجزائر معتمدا في ذلك على ما كتبه بفايفر وغيره . ويبدو أن المؤلف سحرته طبيعة الجزائر .. موقعها وهضابها وجبالها ووديانها فلم يهتم بالبلاد كثيرا من الناحية التاريخية . واذا كان شيمبر يحذر الألمان من الهجرة الى الجزائر ، فان فينكمان على العكس من ذلك ، فهو يلح على مواطنيه في الهجرة اليها ، لأنها مستعمرة رائعة بالنسبة للالمان ! (ص 61) وذلك ما فعله بعده مواطنه ماكس ماريا فراهير فون فيبر فيما بعد ، عندما نشر كتابا عام 1854 عن الجزائر والهجرة اليها ، فصر

حديثه فيه عن وسائل الهجرة والخطوات التي يجب على المهاجر اتباعها دون أن يتعرض لتاريخ الجزائر مع الاستعمار الفرنسي . وقد تحمس فينكلمان للهجرة الى درجة أنه راح يبحث عن ماضي الجزائر في العصر الروماني لا من حيث تاريخها . ولكن من حيث منتجاتها الزراعية ومقدار محصولاتها على مدار السنة كلها . فيذكر بناء على ذلك ان الجزائر قد اشتهرت قديما بخصوبة أراضيها ويروي ما قاله عنها بعض الجغرافيين القدامى من انها تنتج القمح مرتين في السنة ، مرة في الربيع ومرة في الصيف . ويضيف الى هذا أن بعض الأهالي قد ذكر له أن الأرض لا تزرع مرة أخرى بعد حصاد الربيع . وانما يكتفي الفلاح بقلب تربة حقول الحنطة ، فتنتج الحبوب ، التي سقطت في الحصاد الأول ، غلة كبيرة في الصيف ! (ص 78)

وزيادة في التشويق الى رؤية الجزائر والاقامة بها يؤكد المؤلف لمواطنيه أن هنالك مناطق خصبة أهملت الاهمال كله مثل مناطق عنابة وقسنطينة والجزائر نفسها ، وكأنه يقول لهم بهذا أنها في انتظاركم ! ويزعم أن الجزائريين يجهلون تمام الجهل كل ما يتعلق بالأعمال اليدوية والصناعات الفنية . وقد حملته العقلية الاستعمارية على المقارنة بين أمريكا الشمالية والبرازيل وبين الجزائر ، فالمهاجر الألماني في هذين البلدين يجد نفسه بين أهلها الذين هم سادة البلاد فينظرون اليه على أنه دخيل يريد أن يأخذ منهم لقمة العيش ، ثم أن الهيئة التي يقبل بها المهاجر تنفر المواطن الامريكي منه ، ومن ثم كثيرا ما تتحول العلاقة بين الجانبين الى صراع . أما في الجزائر فان المواطنين هم المغلوبون ، واذا كان المهاجرون الالمان لا يستطيعون أن يعتبروا أنفسهم أسياد الجزائريين فانهم على الأقل تحت رعاية أسيادهم من الفرنسيين ، الذين لا تسمح لهم مصلحتهم بأن يتركوا المواطن الجزائري يصعد فوق رأس المستعمرين ، وسوف لن يمر وقت طويل حتى يصبح عدد الأوروبيين في المناطق الخصبة أكثر من عدد السكان الأصليين ! (ص 71)

وعلى أية حال فان فينكلمان لم يكن يهمه شيء آخر أكثر من أن يعيش أبناء وطنه في بلاد تمنح الأرض منحا ، ويباع ثور المواطن الذي أخذ منه قسرا بخمسة وعشرين فرنكا لا غير ، أما حزن هذا المواطن فليدفن في أحضان الرمال والجبال الجرداء !

الفصل الرابع

هرمان هاوف

في سنة 1835 أصدر هرمان هاوف بمشاركة ادوارد فيدرمان كتابا صغير الحجم ، طبع في مدينة شتوتغارت ، وضع له عنوان «الجزائر كما هي» . ويتضمن الكتاب في مجموعه معلومات عامة ، لا تختلف عما نجده في بقية الكتب الأخرى التي تحدثت عن الجزائر من الناحية الجغرافية والطبيعية والمعمارية وغير ذلك ، ولا يهمنا من هذا الكتاب سوى مقدمته . فالمؤلف لا يبدي اعجابه بجرأة فرنسا الى الحد الذي ينسيه واجبه كمؤرخ ، ولا يعتبر مسألة احتلالها للجزائر قضية مسلمة كما فعل غيره ، وانما يحاول أن يناقش الأسباب التي أدت اليه مناقشة منطقية هادئة .

يرى هاوف أن الاستيلاء على الجزائر اهم حادثة في القرن الماضي ، أي حتى الوقت الذي وضع فيه كتابه . فقد أرعبت الجزائر ، على حد تعبيره ، الشعوب التجارية واستبدت بالبحر الابيض المتوسط ، وأرغمت شارل الخامس على الفرار أمامها بصورة مخزية . ومع أن انجلترا نفسها كانت سيدة البحار ، فانها لم تستطيع ان تملي اتفاقياتها على الجزائر الا بصورة مؤقتة . وكانت الجزائر قد أجبرت الشعوب خلال قرون عديدة على دفع اتاوة لها نظير مرور سفنها التجارية بالبحر الأبيض المتوسط . ثم كانت هذه الجزائر نفسها غنيمة للجيش الفرنسي ، فاختفت اختفاء الظل وتمكنت فرنسا من احتلال هذه المنطقة الجميلة بكل

هدوء ، ومن الممكن أن تؤدي الى نشوب حرب بين انجلترا وفرنسا وتركيا .(ص 1)

ولكن هذه الاسباب كلها لم تكن كافية ، في نظر المؤلف ، لاحتلال الجزائر والقضاء على سيطرتها قضاء تاما . فعندما قررت فرنسا ارسال حملتها الى الجزائر لم يكن وضع نهاية للقرصنة هو السبب الوحيد في الاقدام على خطوة خطيرة كهذه . فمما لاشك فيه أن هذه الحملة ، التي بدت في ظاهرها عملا انسانيا وحضاريا ، قد ارتبطت باطماع شخصية بحتة . ويضيف هاوف أن انجلترا قد راقبت الاعداد لتلك الحملة والانفاق عليها بسخاء ثم القيام بها بنجاح تام ، بنوع من اللامبالاة لم يعهد فيها ، الامر الذي استغربته منها أروبا كلها . وقد راجت اشاعة في ذلك الحين ، مؤداها ان فرنسا قد تعهدت لانجلترا بالتخلي عن الجزائر بعد القضاء على القرصنة وترك سرب من الجنود فيها لحماية الحركة التجارية في البحر الأبيض المتوسط ، ولكن ثورة جويلية قد وضعت لعملية الاستيلاء على الجزائر أهدافا أخرى ، لم تكن في أغلب الظن مقصودة في بداية سنة 1830 . (ص 2)

وبذلك أصبحت مشكلة الجزائر مشكلة وطنية بعد أن كانت مجرد قضية وزارية . واذا كان ملك فرنسا قد حدد في ذلك الوقت نوع وطبيعة الحملة التي كان ينوي القيام بها دون أن يسأل الشعب عن رأيه فيها ، فقد أصبح من الصعب عليه الآن أن يقرر مصير الجزائر أو التخلي عنها دون الرجوع الى الشعب . واذا كانت انجلترا ، في رأي المؤلف ، حتى لو فرضنا أنه قد وجد بالفعل اتفاق سري بين الدولتين ، لم تطالب بعد تلك الأحداث بتنفيذ الأمور المتفق عليها ، فان ذلك يرجع الى رغبتها في المحافظة على تحالفها مع فرنسا بأي ثمن وعدم المساس بوضعها الخاص . ولا يمكن أن يصدق المرء أن فرنسا لم تتخذ قرارا بشأن استعمار الجزائر خوفا من أية دولة أخرى غير انجلترا ، لأن حكومة فرنسا قد احدثت منذ ثورة جويلية تستهين بدول القارة كلها وتعتدي على مصالحها بشتى الطرق والوسائل . وسواء تم هذا الاتفاق المشكوك فيه بين انجلترا وفرنسا أو كان مجرد اسطورة ، فان فرنسا كانت في حيرة من امرها بشأن استعمار الجزائر أو التخلي عنها نهائيا .

ويقول هاوف ان احتلال الجزائر في ظروف كهذه لا يفيد فرنسا في شيء ،

وانما يلحق بها ابلغ الضرر ، ويستدل على ذلك بأرقام المبالغ التي تدفعها سنويا من أجل المحافظة على المناطق التي تمكنت منها وحدها ، وهي تبلغ مائة وعشرين مليونا . واذا حدث سوء تفاهم بين انجلترا وفرنسا وتعرضت هذه لأحداث سياسية غير متوقعة .. فان قضية الجزائر لن تبقى عندئذ غامضة لمدة طويلة . ويستبعد المؤلف أن تكون فرنسا قد أقبلت على تلك التضحيات الجسام ، لو أنها لم تكن تعتقد أن في امكانها الحصول على مبالغ مناسبة من جهة من الجهات ، كما أن اهانة موظف صغير ما كانت لتؤدي بالضرورة الى الحرب ، لو ان فرنسا كانت في وضع يسمح لها بالتجاوز عن الامور البسيطة . ويقدم دليلا قويا على ذلك وهو ان الاهانات المتكررة التي لحقتها من طرف «الدون ميكيل» ما كان في مقدورها أبدا أن تنتهي بها الى اعلان الحرب على البرتغال ! وعلى هذا فان فرنسا قد مسحت أثر المروحة من وجه قنصلها بالدم ، لأن ذلك يعود عليها بالفائدة ! (ص 3 — 4)

وينتقل المؤلف بعد هذا الى الحديث عن الجزائريين فيقول : لقد ظنوا ، بعد طرد الاتراك ، أن في مقدورهم الآن أن يرفعوا رؤوسهم ، خاصة بعد أن عين البعض منهم في مناصب معينة ، غير أن الفرنسيين سرعان ما أظهروا لهم ان عليهم أن يخضعوا للفرنسيين كما خضعوا للاتراك قبلهم . ومنذ تلك اللحظة عاود الجزائريين الحنين الى أسيادهم السابقين .. لأن عهدهم كان أنسب لهم من جميع الوجوه . وقد دفعهم هذا الحنين الى الهجرة الى الشرق للالتحاق بهم هناك . ولاشك أن هاوف قد أخطأ في رأيه هذا ، فالجزائريون لم يهاجروا الى الشرق ، لانهم اشتاقوا لرؤية الاتراك ، وانما هاجروا لانهم فقدوا حريتهم ودنست أرضهم ، ففضلوا العيش في بلاد اسلامية ، سواء كانت هذه البلاد تونس أو مصر أو الشام أو الحجاز أو غيرها .

وكيفما كان الأمر فان هاوف ربما يكون من بين الالمان الوحيد الذي حاول مناقشة الأسباب التي أدت الى احتلال الجزائر واثارة قضية المروحة دون أن يعتبرها سببا فيما حدث بعدها . ومن ثم فان مناقشته هذه جديرة بأن يتعرض لها الباحثون عند التاريخ لهذه الفترة والظروف الناتجة عنها .



الفصل الخامس

شونبيرغ والجزائر

يعتبر شونبيرغ من أشهر أطباء القرن التاسع عشر ، وهو ينتمي الى أسرة نبيلة موزعة بين ألمانيا والدنمارك وقد ولد يورغن يوهان ألبرخت فون شونبيرغ في 27 سبتمبر سنة 1782 بجزيرة سيلاند بالدنمارك ، ودرس في كوبنهاجن ، ثم في جامعة غوتينغن بألمانيا ، وتخرج منها طبيبا عام 1808 . وبعد أن طاف بمعظم البلدان الأوروبية ، استقر به المقام بمدينة نابولي ، اذ عين فيها رئيسا للأطباء المستشفى العسكري النمساوي ، وعمل بعد ذلك في عدد من المستشفيات الأخرى ، كان من بينها بعض المستشفيات الخاصة بالطبقات الفقيرة . وقد رفعه ملك نابولي بعد الخدمات التي قدمها في مجال الصحة العمومية ، الى مقام النبلاء . ولم يعد الى كوبنهاجن الا في سنة 1829 ، وهي السنة التي حصل فيها على الدكتوراه الفخرية من جامعة فورتسبورغ بألمانيا .

وفي سنة 1830 شارك شونبيرغ ، بناء على دعوة وجهت اليه ، وقد تكون شهرته أساس هذه الدعوة ، في الحملة الفرنسية ضد الجزائر بصفته رئيس الأطباء . وعندما عاد الى بلاده ، عين عام 1832 طبيبا خاصا في البلاط الملكي ، ثم أصبح المستشار الأول لملك الدنمارك الى أن وافاه أجله سنة 1841 في مدينة كوبنهاجن ، مخلفا وراءه تراثا فكريا متنوعا .

لقد وضع شونبيرغ دراسة موجزة عن الطب في الجزائر ، ونشرها في مجلة

ألمانية عام 1837 ، فكان لها صدى كبير عند القراء ، مما شجعه ، على حد تعبيره ، على نشر الملاحظات والانطباعات ، التي كان قد كتبها على شكل يوميات في الجزائر أثناء الحملة الفرنسية . وقد ترجمت هذه الدراسة الطبية الموجزة ، وسوف تنشر في كتيب على حدة . أما انطباعاته وملاحظاته ، فقد وضع لها عنوان «نظرات على الاحتلال الأخير والتاريخ الحديث للجزائر واستعمارها» ، وهي الكتاب الذي أصدره بالألمانية في كوبنهاجن سنة 1839 .

وقد أوضح شونبيرغ في مقدمة كتابه هذا أنه لا يريد أن يقدم تاريخا مفصلا لاحتلال الجزائر ، وانما ينحصر همه في تقديم لمحات محدودة ، يمكن أن تتخذ في المستقبل هاديا لمعرفة قصة احتلال الجزائر ومدى الأثر الذي تركته في كل من أوروبا وافريقيا ، وبالتالي اظهار ماضيها وحاضرها ومستقبلها من خلال الوثائق المختلفة .

ويتحدث المؤلف في الفصل الأول من كتابه عن مذكراته الخاصة بسير الحملة الفرنسية ، فيذكر أن نزول القوات الفرنسية إلى البر قد بدأ يوم 14 يونية في الساعة الثالثة صباحا ، ولم يلبث الفرنسيون أن استولوا بسهولة على الحامية التي كانت بسيدي فرج ، ورفعوا علمهم الأبيض فوق البرج ، لأن الجزائريين كانوا قد سمحوا لهم بالنزول دون مقاومة ، الا أنه لم يمض وقت طويل حتى سمعت طلقات المدافع منبعثة من حامية منخفضة ، تمكن الفرنسيون بعد لأى من اسكات أصواتها أيضا ، أي أنهم لم يتمكنوا من ذلك الا بعد حوالي أربع ساعات ، اذ أن مدافع الجزائريين كانت في مجملها جيدة التصويب .

ويتراجع شونبيرغ بعد حين عما قاله عن السهولة التي تم بها الاستيلاء على سيدي فرج ، فيقول (ص 22) : «ذكرت آنفا أن نزول الفرنسيين الى البر قد تم دون مقاومة كبيرة ، الا أن علي أن أستثني حالة واحدة ، وهي أن الجنرال بورمون كاد يلقى فيها حتفه ، فعند ما نزل مع عدد كبير من رجاله ، وشاهده الجزائريون ، وجهوا نحوه عددا من الطلقات المدفعية ، فوقعت احداها في مكان قريب منه جدا ، ولفته في عاصفة من الغبار الى درجة أن رجاله ظنوه للحظات قد أصيب اصابة قاتلة ، وقتل جنديان وجرح عدد كبير من الجنود .»

ويغبط المؤلف الكتيبة الثالثة والعشرين والتاسعة والعشرين على أن الحظ قد حالفهما ، فكانتا أول من وطىء الساحل الجزائري ، ولكن الكتيبة الأخيرة كانت أكثر شجاعة ، فقد توغلت في السهل ، فحاصرها العربان وقضوا على اثني عشر رجلا من جنودها .

وأشاد شونبيرغ بالكنز الثمين ، الذي تم العثور عليه في سيدي فرج : البئر ! وأشاد كذلك بشبه جزيرة سيدي فرج نفسها ، وقال عنها إنها مكان لا ينسى أبدا ، لا بالنسبة له وحده ، وانما بالنسبة للتاريخ أيضا . وأوضح أن البناية ، التي كانت تعتليه ، لم تكن تمثل حصنا ، وانما كانت عبارة عن ضريح مرابط ، وضع فوق سقفه المسطح عدد قليل من المدافع . وكان أحد الملاحين قد صعد ، بعد نزوله بفترة ، الى البرج ونزع العلم الجزائري ، ورفع منديله الابيض .. علما فرنسيا فوقه . ولا ينسى المؤلف مع ذلك أن يؤكد مرة أخرى أن الجزائر لم يكن من السهل احتلالها لو أنها وجدت من يدافع عنها باخلاص ، فيقول (ص 23) : «ومما يسهل على الأهالي الدفاع عن هذه المنطقة ويجعل أخذها عسيرا على المهاجمين أن الأراضي تتخللها التلال والجبال بشكل متصاعد ، بحيث يتحتم على العدو ، الذي يزحف نحو الجزائر من هذه الناحية في حالة حرب ، أن يصعد بصورة مستمرة» ، ثم يضيف المؤلف متحدثا بلغة عصره : «وخلف الجزائر تمتد سلسلة جبال الاطلس في انحناء ، ولذلك كله منظر لطيف خصب عكس منظر الاهالي تماما !»

وأشار شونبيرغ (ص 24) الى أن الانجليز ، الذين كانوا قريبين من الساحل الجزائري ، قد اقتربوا يوم الثلاثاء 15 يونية من شبه جزيرة سيدي فرج بفرقاطة ملكية حربية الى أقصى حد ممكن ، وأطلقوا خمس عشرة طلقة تحية للجيش الفرنسي ، وبعد مرور فترة طويلة ردت على تحيتها سفينة قائد الاسطول بخمس عشرة طلقة أيضا .

ولم يترك الجيش مواقعه في اليوم التالي ، لأنه كان ينتظر وصول المعدات الحربية ، وخاصة المدفعية والخيالة ، وكذلك وصول أسطول النقل الكبير ، وأقيم

عدد من التحصينات فوق شبه الجزيرة ، وبلغ عدد القتلى والجرحى في أثناء ذلك ستين قتيلا وجريحا . ويلاحظ المؤلف بعد هذا أن الجزائريين كانوا يقطعون رؤوس الأسرى الفرنسيين ، الذين يقعون في أيديهم ! أما الفرنسيون فلم يكونوا حتى تلك اللحظة قد أسروا أكثر من رئيس واحد من رؤساء العربان ، لأن البقية كانوا يرفضون أن يذهبوا الى الأسر ، بل كانوا يمدون رؤوسهم لتقطع أعناقهم ، ويرغم الجنود في بعض الأحيان على قتلهم ، لأنهم لا يكفون عن المقاومة حتى وهم أسرى !

ويعترف المؤلف (ص 25) بأن الفرنسيين كانوا قد استولوا على عدة حصون ، تحتوي على مدافع كثيرة ؛ غير أن تلك المدافع لم تكن صالحة للاستعمال باستثناء اثنين منها ، كما أنهم لم يتمكنوا من أخذ أي أسير ، فالجزائريون لم يكونوا يتركون لاقتلاهم ولا جرحاهم في ميدان المعركة ، وعثر الفرنسيون على مدافع فرنسية قديمة ، وكذلك على كتب فرنسية عن المدفعية ، وأسروا أيضا فرنسيا !

وقد فر عدد من الفرنسيين ، الذين كانوا قد عاشوا في الجزائر أكثر من ثلاثين سنة ، الى المعسكر الفرنسي ، ولم يظهر اليوم أى أثر للعرب ، الا أن بعضهم نزلوا يوم أمس من الجبل ، وقيل ان وزير الحربية الجزائري كان بينهم .

وفي ليلة 17 يونيه هاجم الجزائريون الفرنسيين مرتين ، قبل منتصف الليل وبعده ، ولكن المهاجمين ردوا على اعقابهم وتمكن الفرنسيون من الحاق خسائر بهم في كلتا المرتين . ويضيف المؤلف قائلا : «وفي صبيحة اليوم التالي تحدثت مع القائد الفرنسي لفترة طويلة ، فقال لي : لن يستطيع في هذه اللحظة جيش منظم ، قواه ثلاثون ألفا ، الاستيلاء على مواقعنا . فقد أحيطت شبه الجزيرة بخندق ، بحيث أصبحت تشكل جزيرة . ان الخندق ليس عميقا ، ولكن الحصن مزود بمدافع كثيرة .»

وكان الجزائريون ، فيما يراه المؤلف ، قد تصوروا أن رداءة الجو قد جعلت بنادق الفرنسيين غير صالحة للاستعمال ، ولذلك قاموا بالهجومين المذكورين ، والحقيقة أن قائد الحملة كان قد خشي ذلك فعلا ، الا أن الأمر كان عكس ما

توقعه . وفي صبيحة اليوم ظهرت فرق المشاة الجزائرية لأول مرة ، وادعى بعضهم أنه شاهد الداي نفسه في المعسكر ، الذي كان يتكون من تسع وثلاثين خيمة .

ويتحدث شونبيرغ بعد ذلك (ص 27) عن معركة سطح الولي ، ويسميها ، خلافا لما ذكره غيره ، من شهود العيان ، معركة سيدي خالف ، ويقول عنها انها بدأت في الساعة الخامسة صباحا من يوم 19 يونية ، وكان الفرنسيون هم الذين بدأوا المعركة ، لأن الجزائريين كانوا قد اقتربوا لأخذ الماء . وكانت المعركة تزداد حدة بصورة مستمرة ، وكان تقدم الفرنسيين كذلك مطردا ، وبعد ست ساعات ونصف صار النصر من نصيبهم . وكما استولوا على المعسكر ، الذي كان يتكون من مائة خيمة ، من بينها خيمة باي وهران ، التي كانت في حجم قرقاطة ، غنموا كذلك ستة مدافع ، وكمية كبيرة من البارود ، وعددا كبيرا من البنادق والمسدسات ، كان أغلبها في حالة رديئة ، وكمية من التبغ ، ومائتي جمل ، كما وقع في أيديهم عدد كبير من الأسرى . وكانت أرض المعركة مغطاة بجثث القتلى .

أما خسائر الفرنسيين فقد قدرت باثنى عشر قتيلا وثلاثمائة جريح ، كانوا قد أصيبوا في أغلب الأحوال في أرجلهم ، بينما أصيب الجزائريون في رؤوسهم ، وقد كانت معاملة القائد للأسرى ، فيما يراه المؤلف ، حسنة ، ويروى عنه أنه سلم أحد الجرحى الى إحدى الفرق الفرنسية ، وحملها مهمة المحافظة على حياته ، ويذكر أن أسيرا جزائريا آخر ، كان قد جرح ، حاول أن يضرب بسيفه ضابطا فرنسيا ، ولكن أحد الجنود حال بينه وبين ذلك ، وتقدم منه مترجمان ، وسأله أحدهما : «لماذا فعلت ذلك ، أيها الشقي ؟ لقد أضعت بهذا حياتك .» فأجاب : «نحن مجبرون على هذا ما دام الأتراك أسيادنا . وعندما نتخلص منهم سنكون في خدمتكم !» ويضيف أن اثنين من شيوخ القبائل قد أعربا عن نفس الرغبة في اليوم السابق .

ويقدر شونبيرغ القوات الجزائرية التي شاركت في معركة سطح الولي بحوالي عشرة آلاف مقاتل ، ويعترف أن هجمات المقاتلين كانت عنيفة ، بحيث أجبرت

القوات الفرنسية على التراجع ، وأنهم لم ينسحبوا الا بعض وصول الامدادات ووقوع الزحف من جميع الجهات ، الا أن الاضطراب كان يعم صفوفهم أثناء انسحابهم ، فقد تركوا خلفهم سجائر مشتعلة وقهوة جاهزة تقريبا ، كما تركوا أشياء أخرى . ولم يخل المعسكر مما يدل على مشاركة المرأة في المعركة ، اذ تم العثور على شالات جميلة وبراقع ونعال وغيرها .

وتم العثور كذلك على صرة ، تحتوي على 180 قرشا اسبانيا ، أما غنائم الجيش الفرنسي من السجاجيد فكانت كبيرة جدا ، فأخذ كل واحد ما راق له من هذه الأشياء ، بما في ذلك البنادق والمسدسات المكسورة . وكان البحارة ، وأغلبهم من بحارة السفن الايطالية المستأجرة ، نشيطين جدا في الاستيلاء على ما وجد بالمعسكر . واستولى الفرنسيون ، بالاضافة الى الجمال المذكورة ، على عدد كبير من الأحصنة المتوسطة والهزيلة والأحمرة والبغال والأغنام . وكان هناك أيضا عدد من الملاعق الخشبية وقطع الحديد من الخردة وغيرها .

ويسجل المؤلف (ص 33) أنه شاهد عند القائد العام ، يوم 21 يونية ، ترجمانين كانا قد وصلا من تونس ، وضابطا روسيا ، وقائد سفينة انجليزية ، ويصف الليلة السابقة بأنها كانت مضطربة ، فقد شوهد العربان في الجهة اليسرى ، ولكن الأخبار وصلت المعسكر بأنهم شوهدوا في الجهة اليمنى ، فأطلقت نيران المدافع عندما رؤي في تلك الجهة شيء فعلا ، ثم تبين أن ما شوهد لم يكن سوى حجارة بيضاء ! وانتشر خبر وجود العربان في المعسكر بسرعة ، فعم الفزع ، وأجبر القائد العام على السهر حتى الرابعة صباحا .

ويتحدث شونبيرغ (ص 40) عن معركة ثانية ، بدأت في السابعة صباحا يوم 24 يونية ، انهزم فيها الجيش الجزائري أيضا ، وطاردته القوات الفرنسية ، ولم يتوقف الا على بعد ثلاثة أرباع الساعة من العاصمة ، وكان الجيش الجزائري قد وضع قبل انسحابه كمية من المتفجرات في بناية كبيرة ، لأنه كان يتوقع أن الفرنسيين سيدخلون اليها ، الا أن الانفجار لم يسبب أي ضرر ، ذلك أن الفرنسيين كانوا قد انشغلوا بالمطاردة عن الدخول الى تلك البناية . وهكذا لم يفقد الفرنسيون في المعركة الا حوالي عشرين قتيلا .

وقد قدر شونبيرغ الجيش الفرنسي بحوالي سبعة وثلاثين ألف رجل ، وكان برفقة القائد العام سبعة أجانب : كان هناك روسيان ، وثلاثة ألمان ، ودانمركي واحد وأنجليزي واحد أيضا . وصحب الجيش معه حوالي أربعة آلاف حصان ومدافع من مختلف الأنواع .

وكانت المعارك قد تجددت يوم 27 يونية ، وتركزت هذه المرة حولة قلعة الامبراطور ، واستمرت من الرابعة صباحا حتى الثالثة بعد الظهر . وخلال هذه الفترة بكاملها كانت نيران المدافع تنطلق من القلعة بصورة مستمرة مع أن الفرنسيين كانوا خارج منطقتها ، وانتهت كذلك بفوز الفرنسيين . ويضيف المؤلف (ص 42) : «أن عربيا حضر في اليوم نفسه الى معسكر سيدي فرج ، وادعى أنه باي وهران ، ولكني أعتقد أنه كان جاسوسا ، وقد طلب رؤية الأسرى ، ولما حمل الى أمير البحر دبيري عرض عليه أن يضع في خدمته عشرة آلاف رجل ، غير أن القائد الفرنسي رفض ما عرضه عليه .»

واحتل الفرنسيون في الأيام التالية حصنا قرب قلعة الامبراطور ، وأقاموا قربها حصونا أخرى ، وضربت مدينة الجزائر من جهة البحر ، وفي صبيحة يوم 4 جويلية قامت معركة بالمدفعية حول قلعة الامبراطور ، واستمرت حتى العاشرة والنصف صباحا ، وحدث بعد ذلك انفجار مريع في القلعة ، وقد قيل أن الأتراك نسفوها عندما عجزوا عن الدفاع عنها .

ويرى شونبيرغ (ص 48) أن وزير الحربية جاء بعد الانفجار الذي حدث في القلعة الى أمير البحر ليطلب الصلح ، وكان ما قاله غريبا ، فقد حاول أن يوهم أمير البحر أن الداي هو الذي تجرأ على محاربة فرنسا وليس الشعب ، ولذلك يجب أن يتحمل مسؤولية الحرب وحده ، فالشعب بريء منها . وأوضح أن هناك حزبين مختلفين ، حزبا يؤيد الداي ، وآخر يؤيد الفرنسيين . وقدمت له شروط معينة ، يجب الموافقة عليها في الحين للحيلولة دون استمرار الحرب . ووافق الداي في اليوم التالي على تسليم المدينة في الساعة الثانية عشرة ظهرا ، وذلك عندما عرف أن هناك مآمرة تدبر لقتله . واستسلم الداي ، انقاذا لحياته ، بصورة سرية لأعدائه الفرنسيين . وأطلق الفرنسيون مائة طلقة وطلقة ، جعلت من كان بعيدا

يتصور أن الحرب لاتزال مستمرة . وكان أحد وزراء الداي قد وصل قبل ذلك الى مقر القائد العام وقدم له مفاتيح المدينة .

واستقبل القائد العام الداي فيما بعد بأدب جم ، ثم أفهمه بأن عهد حكمه قد انتهى ، وأن عليه أن يعمل على أن يغادر الاتراك ، الذين كان عددهم حوالي سبعة عشرة ألف ، البلاد في أقرب فرصة ممكنة . ودخل الفرنسيون المدينة ، ونقل القائد العام مقر اقامته الى القصبة ، وقد استقبلت الفرنسيين جماهير غفيرة ، تعلو وجوهها الحيرة والكآبة (ص 49) .

ويتحدث شونبيرغ عن خزنة القصبة ، فيشير الى أن أمير البحر ديبرى والقائد العام قد نزلا يوم 7 جويلية الى القبو لمشاهدة كومة الذهب والفضة ، التي كان علوها يبلغ ركبة انسان ، وتحتل مساحة عشرين ذراعا . وكان الداي قد عقد قبل يوم من ذلك اجتماعا ، درست فيه قضية الخزنة ، التي قدرت بستين مليونا من الدولارات ، وادعى أنها ملك له ، فاعترف له الديوان بأملاكه الخاصة ، ولكنه حكم بأن الخزنة الكبيرة ملك للدولة ، وتبعا لذلك فهي ملك لحاكم الجزائر .

وكان الداي قد طلب في بداية الأمر أن يسمح له بالسفر الى فرنسا ليعيش فيها ، ثم غير رأيه وأعلن أنه يرغب في السفر الى ايطاليا مباشرة . وقام الفرنسيون في أثناء ذلك بوزن ما عثروا عليه في القصبة من ذهب وفضة . ورغم أن الديوان كان قد حكم بأن الخزنة ملك للدولة ، ومن ثم فهي ملك للمنتصر ، فقد أخذ الداي معه ، فيما يقال ، من ماله الخاص ما بين ستة وسبعة ملايين من الدولارات . أما الكنز الذي عثر عليه في القصبة فحمل الى فرنسا لتغطية تكاليف الحرب ، ووزع غيره على الضباط . وزيادة على ذلك فقد عثر في الجزائر على ألف وثلاثمائة مدفع ، وليس من المستبعد أن تكتشف في كل يوم كنوز أخرى من هذا النوع (ص 51 — 53) .

هذا تقريبا أهم ما ذكره شونبيرغ في القسم الأول من كتابه عن الأحداث التي عاشها وشاهدها ، وقد كان طبعا يحاول أن يصف كل ما تقع عليه عينه من مناظر طبيعية وغيرها ، فقد كان كل شيء في الجزائر جديدا بالنسبة اليه .

ولا أريد أن أتحدث هنا عن القسم الثالث من كتابه ، فهو دون شك لا يهم الا من يبحث في الحركة التجارية في السنوات الأولى للاحتلال . أما القسم الثاني فيقدم فيه المؤلف نبذة عن تاريخ الجزائر ونوع الحكم فيها ، ثم يؤرخ لعدد من دايات الجزائر ، وقد وجدت ما كتبه مكملا ، في بعض جوانبه لما كتبه أحمد الشريف الزهار في مذاكرته ، فارتأيت ترجمته ترجمة كاملة . وقد ذكر المؤلف في مقدمته أنه استمد معلوماته من شخص عاش في الجزائر لفترة طويلة .



الفصل السادس :

دايات الجزائر

الداي مصطفى

1798 — 1805

كان الداي مصطفى سنة 1803 في حوالي الستين من عمره وقد ولد في الاناضول بآسيا الصغرى من أبوين فقيرين ، وجاء الى الجزائر في أيام شبابه وانضم الى الميليشيات ، وبما أن الطبيعة لم تهبه ذكاء ولا موهبة ، فقد اقتصر عمله في أول الأمر على كنس الزقاق الواقع أمام الثكنة التي كان يقيم بها . ثم توسط له احد اقاربه ، ويدعى حسن ، كان له آنئذ مركز كبير في حكومة الداي محمد باشا ، فانتقل الى العمل بالقصر ، وأخذ يرتقي فيه من منصب الى آخر . وعندما أصبح حسن المذكور فيما بعد دايا للجزائر ، رفع مصطفى الى منصب الخزناجي وبقي فيه بصورة مستمرة ، لأنه لم يهتم أبدا بالأمور التي من شأنها أن تسيء الى سمعته أو الى منصبه ، كما لم يكن حريصا لا على كسب الاصدقاء ولا على بلوغ الشهرة . ومن ثم لم يكن في سلوكه ما يحمل الداي على عدم الثقة به والخوف منه .

وفي ذلك الحين لم تكن المواهب والامجاد هي التي تؤهل صاحبها في الجزائر للوصول الى المناصب العالية والمراكز المحترمة ، وانما كان اختيار الحاكم هو المرجع الوحيد في ذلك .

ولذلك اندهش الناس عندما رأوا مصطفى بعد وفاة حسن سنة 1778 ، يرتقي العرش الذي لم يكن ، فيما بدا حينئذ ، يطمح اليه . وفي الحقيقة كانت الاوضاع في صالحه ، ذلك أنه لم يتكون حزب معارض حتى ذلك الوقت الذي اتخذ فيه لنفسه اسم الباشا . وقد ساعده على ذلك موظفوه السامون على أمل أن يستغلوا ضعفه وعجزه عن الحكم لتسيير دفة دولته . ولم ينكر مصطفى قيمة ما قدموه له ، واعترف بفضلهم عليه ، غير انه رفض أن يستسلم لقيادتهم استسلاما تاما ، فكان يتصرف في بعض الاحيان وفق ما يراه هو نفسه ، ولم يمنح ثقته بالدرجة الأولى الا لتاجر وصراف يهودي ، يدعى بوجناح ، كان له تأثيره الكبير في الشؤون اليومية .

وكان ميله الى اليهود سببا في المآمرة التي وقعت ضده (يوم الجمعة) 18 سبتمبر سنة 1801 ، فبينما كان الداي مصطفى يؤدي صلاة الجمعة في مسجد قريب من القصر ، اقتحم القصر تركي ، يدعى بالي (ولي) خوجة ، وكان مكلفا بالاشراف على الكيل العام ، برفقة حوالي اثنى عشر شخصا ، وجلس فوق العرش ، وأعلن نفسه دايا ثم صرح بأن المكانة التي يتمتع بها اليهود الآن هي التي دفعته الى اتخاذ هذه الخطوة . ووضع جائزة مقدارها الف قرش لمن يأتيه برأس بوجناح ، وعين في الوقت نفسه وزراءه الى آخره .

وحين سمع مصطفى بذلك في المسجد ، أقام فيه ، وأمر بغلق الأبواب ، وحدث ذلك في الوقت الذي توجهت فيه كوكبة من الفرسان على رأس خمسين جنديا الى القصر ، فقاومهم الداي الجديد واتباعه ولكنهم غلبوا في النهاية وقتلوا . وعندئذ خرج الداي مصطفى من المسجد ، ومضى الى قصره فاستقبل بحماس كبير . وقد استمرت هذه العملية حوالي ساعتين ونصف ، ووزع الداي مصطفى على المدافعين عن عرشه حوالي ثلاثين ألف قرش ذهبي ، كما ضعفت رواتب الجنود . وبقي لبوجناح نفوذه كما كان سابقا .

وقد عرف مصطفى في نزاعه مع الدول الأوربية ، وخاصة مع فرنسا وانجلترا ، كيف يحافظ ، بفضل صموده ، بل بفضل كبريائه ، على سمعة الجزائر ، رغم ان نجاحه في ذلك لم يكن مرجعه سياسته الحكيمة ولا نظرته

العميقة ، فالتربية التي تلقاها بين الطبقات الدنيا لم تكن تسمح له بالتمتع بأي نوع من الثقافة ، ولذلك كانت معارفه محدودة وغير ثابتة وأخلاقه فظة ، فقد كان يجهل القراءة والكتابة والحساب على حد سواء . وكان جشعه بلا حدود ، فنمت ثروته على حساب رعاياه وفاقت ثروات من سبقه ، ولكنه كان يبذر ثروته بطريقة غامضة .

وكان الداي مصطفى رغم عيوبه هذه رجلا نشيطا شجاعا وتميزت حكومته برفق لم يعرفه الجزائريون ، وتمثل في سلوكه مع العبيد المسيحيين ، الذين لم يعاملهم معاملة انسانية فحسب ، وانما أبدى نحوهم أيضا شهامة لم يبدها نحو مواطنيه ، مع أنه كان يعرف أنهم يستغلون ضعفه لابتزاز أمواله والحصول على نفائسه .

أما في حياته الخاصة فكان مصطفى يحيا حياة بسيطة لا أثر فيها لأبهة ولا لأي نوع من أنواع الانحلال الخلقي ، ولم يخصص لمنجزات حكومته الا النزر القليل من وقته ، ولكنه كان دائم الحركة ، فأهتم ببناءاته وبأعمال أخرى ، ولاسيما بمنزله الريفي الذي كلفه أموالا طائلة . وكان حرمه يحتوي على شريكة واحدة فقط ، كان قد اشتراها من اسطامبول ، وتزوج بها ، ووضع في خدمتها حوالي مائتين من الوصيفات والعبيد . وكانت حاشيته تتألف من ضباط أتراك ، يحيطون به عندما يغادر قصره ، وحوالي خمسين من العبيد المسيحيين وكان هؤلاء يمثلون في أغلب الأحيان أجمل ما في سجونه وأحسنهم مظهرا . فكانوا ينتظرونه ويسيرون خلفه أثناء نزهاته ، ويلعبون معه حين يكون وحده كما يلعبون مع طفل ، وكانت لهم مفاتيح خزائنه ، فعرفوا كيف يستغلون ذلك الى درجة أن بعضهم افتدى نفسه وعاد إلى أوروبا بمبالغ هامة . وكان يستقبل القناصل وقواد السفن بلطف وبصفة رسمية وغالبا ما كان يتكدر مزاجه ، فيصب شتائمه على الناس ، وقد سحب سيفه مرة ليضرب به قنصلا .

وبعد أن أجبر القنصل الأنجليزي فالكون على مغادرة الجزائر وقطعت جميع العلاقات مع أنجلترا ، وصلت في شهر يناير سنة 1805 سفينة حربية ، تولى قيادتها القائد كيتس ، الذي أبلغ الداي بأن اللورد نيلسون يأمره أن يقدم

اعتذاراته للقنصل المذكور على الإهانة التي ألحقها به وأن يسمح له بالعودة إلى الجزائر ، واذا هو لم يفعل ذلك فإن أسطوله سيسلط قنابله على المدينة ، وكان جواب الداي على هذا التهديد بأنه سوف يقطع رأس القنصل إن هو تجرأ على النزول إلى البر .

وبعد أيام وصل اللورد نيلسون بأسطوله المكون من إحدى عشرة سفينة خطية وعدة سفن أخرى صغيرة ، فانضمت إليه السفينة الخطية الأولى ، ولكن الداي لم يبال بذلك ولم يشعر بأية رهبة ، وقصر همه على إقامة التحصينات ، وأشرف عليها بنفسه تشجيعا لعماله على العمل . ولم يقترب الانجليز من المدينة في أثناء ذلك ، وكلما طال ترددهم ازداد حماسه وغروره ، وفي النهاية اختفى الأسطول ، ففرح الجزائريون بذلك أشد الفرح إذ أنهم تصوروا أن الخوف هو الذى حمل الانجليز على التراجع ، خاصة وأنهم كانوا يعرفون نيلسون ويعتبرونه ، على حد تعبيرهم ، أشجع قراصنة العالم .

وقد كانت هذه الحادثة سببا في ازدياد كبرياء الجزائريين واحتقارهم للمسيحيين . وفي الصيف التالي رجع القائد كيتس بسفينته «سوبيرب» ، وصحب معه قائما بالأعمال ، وذلك لإجراء محادثات الصلح ، فتم له ما أراد بعد أن وافقت انجلترا على جميع شروط الداي دون أن يتنازل هو عن مطلب من مطالبه ، مما زاد في كبرياء الداي وحمله على احتقار المبعوث الانجليزي وإذلاله بصورة مزرية .

وكانت قد حدثت سنة 1804 بعض الاضطرابات في داخل البلاد ، من ذلك أن رجلا من أصل مغربي كان قد استقر بين قبائل جبال بجاية وجيجل ، التي لم تكن خاضعة للحكم التركي ، فاشتهر بينها بكراماته ، واتخذته وليا فجمع منها بضعة آلاف من الرجال ، واعدا إياهم بامتلاك كنوز الجزائر وقسنطينة ، وهجم على جيجل ، وتمكن من الحاق هزيمة بالحامية التركية الصغيرة ، وأزعم سكانها على التمرد على الداي .

وهناك قرر المرابط أن يجرب حظه في البحر ، فركب مع قسم من أتباعه

عددا من المراكب ، واستولى بها على ست سفن من سفن صيد المرجان ، كان بها أربعة وخمسون بحارا ، فر عشرة منهم الى الجزائر . وحمل الباقون الى الجبال وعوملوا معاملة مشينة .

وبعد هذه الحملة البحرية توجه بجيشه كله لمهاجمة قسنطينة ، وكان عدد من جنوده لا يحمل من الأسلحة غير العصى وذلك لثقتهم في بركة قائدهم ، فخرج باي قسنطينة لملاقاتهم والتحم معهم في معركة حامية ، فهزمهم ، وسار بنفسه خلفهم الى المناطق الجبلية ، واستولى على ست عشرة قرية من قراهم ، الا أن وعورة الجبال حالت دون تقدم خيالته ، ومن ثم لم يتمكن من النصر الكامل الذي كان يطمح اليه ، فقد هاجمته القبائل من الأعالي ، ودحرته هو وأتباعه وكانوا حوالي ألف رجل . ولم يستغل المرابط هذا النصر لأنه كان قد جرح في فخذه في هزيمته الأولى ، مع أنه كان يدعي أن الرصاص لا يصيب جسده لمناعته ! ولذلك ضعف نفوذه بين القبائل ، ففضلت البقاء في جبالها . وبما أن الإمدادات كانت قد وصلت الى قسنطينة وجيجل ، فقد عادت الأمور الى نصابها ، وانتهى النزاع في هذه المنطقة .

وفي ربيع السنة نفسها قامت ثورة خطيرة في منطقة وهران ذلك أن باي هذه المنطقة ، الذى طلبت منه ضرائب ثقيلة ، لم تطلب من سابقيه أبدا ، قد وجد نفسه مضطرا الى الضغط على مواطنيه للحصول على المبالغ المطلوبة . مما زاد في بؤسهم وشقائهم وعندئذ التمس الأهالي حضرا وعربا السلاح للدفاع عن القليل الذي بقي لهم .

وفي شهر جوان خرج الباي بجيشه لمقابلة الثوار الذين كانوا قد تجمعوا في السهل بين تلمسان ومعسكر ، غير أن الصبائحية تخلوا عنه لسوء طالعه ، وكان الأتراك الذين بقوا معه ، لقلة عددهم ، عاجزين عن الوقوف في وجه الثوار ، فكان عليه أن يعود الى وهران ، حيث حاصره العرب . وبعد فترة قصيرة وصلته نجدة من الجزائر ، تتكون من حوالي ألف صبائحي ، جمعوا من مناطق أخرى . ولم يكن في وسع الجزائر أن ترسل عددا أكبر ، لأن الأوضاع فيها كانت غير

مستقرة ، اذ أن ظروف الحرب تسببت في انقطاع المواد الغذائية وغلاء المعيشة في الجزائر ، الأمر الذي جعل الناس يتهمون حكومة مصطفى بالعجز والقصور . ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى هاجمه في شهر مارس 1805 أربعة أتراك عندما كان جالسا فوق صخرة ينظر الى الأعمال الجارية في مقطع للحجر قرب منزله الريفي ، ولكن العبيد المسيحيين الذين كانوا يعملون هناك سارعوا الى انقاذه .

وقد وجد هذا السخط العام غذاء وافرا في نفوذ اليهودي بوجناح المتزايد ، الذي كان الأتراك يخضعون له كل الخضوع لأنه كان باستطاعته أن يسقطهم بل يقضي على حياتهم بكلمة واحدة تصدر عنه . وقد وقعت عدة محاولات لاغتيال هذا الربيب البغيض ولكنها كانت بلا جدوى ، وأخيرا أطلق عليه أحد الاتراك النار في 28 يونيه فأرداه قتيلا ، وفر القاتل إلى ثكنته في الحين ، فاستقبل فيها بحفاوة كبيرة وعم الفرح المدينة كلها فحمل ذلك الداي على أن يرسل للقاتل سبحته دليلاً عادياً على عفوه عنه وإنعامه عليه . لكن الأتراك اعتبروا ذلك ترددا منه وحيرة ، فقرروا الانتقام من اليهود كلهم .

ونفذوا ما اتفق رأيهم عليه في صبيحة اليوم التالي ، فدخلوا بيوت اليهود جميعا ، وقتلوا من فيها ونهبوها . لقد حاول اليهود أن ينقذوا انفسهم ، فلجأ بعضهم عبر السطوح الى الدور المجاورة واختفى بعضهم الآخر في الأقبية وغيرها من المخابيء ، ومع ذلك فقد بلغ قتلى هذه الثورة حوالي ثلاثمائة شخص ، واستمرت المذبحة حتى منتصف النهار ، وقد ربطت الجثث بحبال من أرجلها ، وقام العبيد المسيحيون بحملها الى خارج المدينة حيث جمعت وأحرقت . وكان بعض هؤلاء الأشقياء لا يزال على قيد الحياة ، فألقي في النار حيا دون أن يسمع صراخه ورجاؤه . أما بيوت المسيحيين وأصحابها فقد سلم الجميع من الأذى .

ولم يستطع الداي أن يفعل أكثر من أن يرسل إليهم رسولا من حين لآخر ، واعدا إياهم بأنه سيعفو عنهم إن هم كفوا عن مواصلة تلك المذبحة ، غير أنهم لم يستجيبوا لندائه ، وفي اليوم التالي ، في الثلاثين من شهر يونيه ، أرسل من يلقى القبض على زعمائهم ، وتمكن رجاله من إمساك بعضهم والإلقاء بهم في السجن ولكن زملاءهم أطلقوا سراحهم وأعادوهم الى الثكنة . وخلال هذه

الفوضى تم إقناع ثلاثمائة من شجعانهم عن طريق الوعود والهدايا النفيسة بالتوجه الى مدينة وهران للوقوف الى جانب حاميتها ، هذا كل ما كان في مقدور الداى أن يفعله . وقد قدرت خسائر اليهود في البضائع والأموال بنصف مليون قرش .

وكانت النعم الكثيرة التي أغدقها الداي على بوجناح وكذلك سلوكه أثناء الاضطرابات سببا في كره الأتراك واحتقارهم له وتحرشهم عليه . ومن ثم لم يسبق للداي مصطفى أن مر بفترة أخطر من الفترة التى مر بها بعد اغتيال ربيبه اليهودي .

وفي أثناء ذلك أحرز الثوار العرب على انتصارات كبيرة ، فكان الأتراك يتراجعون أمامهم بصورة مستمرة . وكان الداي مصطفى يعتقد أن السبب في ذلك يعود الى عجز الآغا العجوز ، فعزله وأرسل مكانه قائدا أكثر تجربة وخبرة ليتولى قيادة الجيش في وهران الا أن هذا القرار الذي اتخذه مصطفى لم يؤد الا الى التعجيل بسقوطه . كان الجيش التركي في وهران يعاني من ويلات الحرب وحرارة الشمس وانعدام ما يمكن سلبه ونهبه . لقد ثبط هذا عزائمهم فاغتنموا فرصة تغيير الآغا واتخذوه حجة للانصراف ، وادعوا أن الآغا الجديد عاجز عن قيادة الجيش ، ثم ساروا بقيادة الآغا القديم وزحفوا نحو عاصمة الجزائر ، فوصلوها يوم 14 أوت . وكان الداي قد أمر بغلق أبوابها ، ونظرا الى أن المدفعية الخارجية لم يكن بها جنود ، فقد استولى الثوار عليها وحاصروا الداي في عاصمته أما الأتراك الذين كانوا بداخل المدينة فقد طالبوا بالسماح لزملائهم بالدخول الى المدينة ، وهددوا بأنهم سيفتحون الأبواب بأنفسهم إذا تردد الداي في ذلك .

واضطر الداي في حيرته هذه الى التفاوض مع الآغا ، الذي عيّن فيما قبل خلفا للداي مصطفى . وقبل الآغا الهدية التي عرضها عليه الداى . وهي عبارة عن عشرين ألف قرش ، يرسلها له من ماله الخاص الى بلده على متن سفينة نمساوية ، وبعد سفر الآغا فتح مصطفى أبواب المدينة فاتجه الأتراك في سلام الى ثكناتهم . وكان الثوار العرب على بعد يومين من مدينة الجزائر ، وعوض أن يقتربوا منها ويحاصروها ويقطعوا عنها المواد الغذائية ، عادوا الى أوطانهم على شاكلة الأتراك .

وكان مصطفى لا يزال متربعا على العرش ، إلا أن سقوطه كان مؤكدا ، ولم يبقه فيه الا لأن الانكشارية لم يتفقوا على اختيار خليفة له . وكانت أول صفقة له مع الأوربيين تتمثل في تسليم مائتين وثلاثين عبدا مسيحيا ، وهم من جنوة ، وبيمون ، اللتين أصبحتا تابعتين للتاج الفرنسي ، كان هيرونيموس بونابارت قد طلبهم على رأس مجموعة صغيرة من السفن ، وتسلمهم مقابل ثمانين ألف قرش .

وفي 29 أوت . حين كانت الدلائل كلها تشير إلى أن الثورة التي كانت تهدده قد بلغت هذا النضج أرسل وفدا من أعضاء الديوان يترأسهم المفتي الى الثكنة ، وعرض على الأتراك أن يتخلى عن الحكم اذا سمح له أن يأخذ زوجته وأطفاله وقسما من أمواله الخاصة ويسافر الى الشرق ، فجاءه الجواب مبهما . وقامت الثورة يوم ثلاثين وكان على رأسها الخوجة السابق ، ويدعي أحمد الذي كان قد عزل من منصبه في الخزانة ، بسبب اساءته لبوجناح ، وكان قد استمال إليه الأتراك بواسطة الوعود التي قدمها لهم . فاجتمع شجعانهم أمام قصر الداي ، وبعد أن اتفقوا مع الحرس أمام الباب على الامتناع عن مقاومتهم ، أرسلوا رسولًا إلى مصطفى ليخبره بأن مدة حكومته قد انتهت ، وأن دايا آخر قد عين في مكانه ، وأنه لا نجاة له إلا بالتوجه إلى قبة المرابط القريبة . وحاول مصطفى عندما وجد نفسه وحيداً ، أن يقدم للثوار عروضاً مختلفة ، إلا أن محاولته لم تفده في شيء . فقد أخرج من قصره بالقوة ، وفي طريقه إلى القبة التي حددت له التقى بمجموعة كبيرة من الأتراك ، فقتلوه بسيوفهم بعد مقاومة قصيرة . وقد لقي الخزناجي نفس المصير ، لأن ثقته في بوجناح جعلتهم يكرهونه . وبعد موت هذين الشخصين ، توجه الداى الجديد الى القصر وجلس فوق العرش تحت هتافات الميليشيا ، وبما أن أتباع مصطفى قد انضموا الى الحزب المنتصر فقد تم تغيير الحكومة دون اراقة دم جديد .

احمد خوجة

(1805 — 1808)

بدأ أحمد خوجة يسعى منذ الأشهر الأولى لقيام حكومته إلى كسر شوكة

الأتراك وتنظيم شؤون البلاد . واتبع في ذلك الأسلوب التركي المعروف ، فأمر باعدام عدد من الأتراك دون أن يتحقق من الجرائم التي ارتكبوها . وكان أول ضحاياسياسته هذه من منافسيه في السلطة ومن الذين كان يخشى نفوذهم ، وطرد كذلك عددا آخر من البلاد بعد أن جردهم من أملاكهم ، فاستتب له الأمر ، ولكن البلاد كانت تعاني من شدة الغلاء ، وفرض على اليهود أن يدفعوا للخزينة 200 عوض 100 قرش المقررة سابقا ، وطلب من شركة بوجناح أن تسدد في مواعيد مختلفة ، 1,200,000 قرش تعويضا عن الامتيازات التي كانت لهما والقروض التي تلقتها في عهد الداي مصطفى ، وعندما صرح دافيد باقي ، رئيس الشركة في ذلك الحين بأنه عاجز عن دفع المبلغ المذكور ، اعتقل بأمر من الداي وفرض عليه القيام بالأشغال العامة مع العبيد الآخرين . وعندئذ وافق على دفع المبلغ المطلوب ، وبعد تسديده بقي في حوزة هذه الشركة ، بصرف النظر عن الخسائر التي منيت بها ايام عمليات السلب والنهب ، العديد من ملايين الأموال في فرنسا وفي ايطاليا وفي الجزائر .

وفي بداية الأمر لم يفكر أحمد في مهاجمة المسيحيين رغم أن القنصل الانجليزي حاول أن يحرضه على إعلان الحرب على فرنسا واسبانيا . ذلك أنه لم يكن يريد أن تكون له علاقة سيئة مع أي من الاطراف المتخاصمة ، بل لقد أطلق سراح الملاحين المالطيين ، الذين كانوا عبيدا في الجزائر ، وعددهم حوالي الثلاثين عندما طلب منه ذلك القنصل الانجليزي ، دون فدية . كما أنه دفع من جهة أخرى القيمة الكاملة للسفينة النابوليطانية ، العاملة تحت العلم الفرنسي ، التي استولى عليها قراصنته وباعوها في تونس ، مع أن الحكام السابقين لم يعترفوا لانجلترا ولا لفرنسا بحق إعارة أعلامهم للدول التي كانت تعتبر في حالة حرب مع الجزائر .

ولكن الذي كان يشغل فكر أحمد خوجة أكثر من السياسة الخارجية ، ويتطلب اهتمامه الكبير ، هو خزينة الدولة التي أفرغها من محتواها إسرافه في الوعود التي قطعها على نفسه تجاه الأتراك أثناء سعيه إلى الوصول إلى العرش ، مما اضطره الى رفع رواتبهم ، فكان يتسلم كل واحد منهم خمسة قروش شهريا وبما أن ظروف

الحرب قد فرضت عليه أن يدعو الكراغلة الى المشاركة فيها ، فقد ارتفعت مصاريف الدولة الى سبعمائة أو ثمانمائة ألف قرش في السنة . ونظرا إلى أن مداخيل الدولة لم تكن تصل الى نصف هذا المبلغ وخاصة بسبب الاضطرابات الواقعة في وهران ، ثم الهجرة إلى الارياف ، والفقر المتزايد ، فإن هذا العجز المالي قد تسبب بطبيعة الحال في مصادرة الأموال وفي فرض قيود أخرى لم يكن منها بد في فترة لاحقة .

إن الغرامة قد تبدو ضرورية بالنسبة لطاغية تركي ، إلا أن عليه أن يكون عادلا منصفا ، وهذه هي الفضيلة التي كانت غريبة عن أحمد خوجة . لقد حرص على إبعاد كل شخص يسيء الظن به أو الأمر باعدامه بكل سهولة ، سواء بسبب تعلقه بسابقه أو بسبب السمعة التي يتمتع بها عند الأتراك ، بهذه الطريقة قضى على حياة خزناجي وقائدين من قواد الجيش ومفتي وعدد كبير من الموظفين السامين . إن تصرفات أحمد (خوجة) هذه قد جعلت الناس يكرهونه وينفرون منه بعد أن كانوا يظهرون له احتراما كبيرا .

لقد نجح أحمد (خوجة) في إبرام اتفاق مع الثوار في وهران ، وذلك عن طريق إرسال باي آخر ، كان قد قلد هذا المنصب سابقا وكانت له قرابة مصاهرة مع شيوخ المنطقة . ومن جهة أخرى كانت عواقب ظروف الحرب وخيمة بالنسبة لمقاطعة وهران ، إذ تسببت الحرب في إهمال زراعة الحقول وفي ضعف ميزانية الدولة لقلة المداخيل . ولتعويض هذه الخسارة التجأ الداي إلى مصادرة الأموال وإصدار احكام الإعدام .

واضطر القنصل الانجليزى كارتزايت (Cartheoreigt) الى الابتعاد عن البلاد . لأن الداى منعه من الظهور أمامه بسبب نزاع شخصي وقع بينهما ، وبناء على طلب الداى أرسل نائب قائد ثغر جبل طارق الفرقاطة ، التي كانت تحمل الهدايا من القسطنطينية ، إلى الجزائر ، ليقدم قائدها اعتذاراته للداي عن تصرفات القنصل وتقديم الهدايا له ، وعند عودتها من القسطنطينية حملت الى الداي مرسوم تعيينه باشا كما حملت اليه القفطان المألوف .

وفي 6 يونيه سنة 1806 وصلت مجموعة من السفن البرتغالية بقيادة الدون لويس داموته (Don luis da motta) لاجراء مفاوضات الصلح ، فطلب الداي مليونين ، ولكن قائد السفن البرتغالية لم يكن لديه تفويض بتقديم أكثر من مليون واحد ، يدفع منها في مواعيد سنوية محددة 50,000 . غير أن الداي أراد الحصول على مبلغ كبير في الحال ، ومن ثم عاد البرتغاليون دون أن يحققوا الهدف الذي جاءوا من أجله ، وكان في ذلك خيبة ظن كبيرة بالنسبة للعبيد البرتغاليين المساكين ، لأنهم كانوا قد عوملوا معاملة سيئة للغاية .

وبما أن امرأة كانت قد أعلنت أن ظروف أحمد (خوجة) لن تكون أحسن من ظروف سابقه ، فقد أصدر الداي أمرا بأن كل من يتجرأ على الحديث عن شؤون الدولة سيعاقب على ذلك بالموت : خنقا بالنسبة للتركي ، وشنقا بالنسبة للحضري ، وحرقا بالنسبة لليهودى ، واغراقا بالنسبة للمرأة .

وفي هذا الوقت أيضا انتهت العلاقات السلمية مع فرنسا . فقد الحق نائب الوكيل الانجليزى بعنابة أضرارا كبيرة بالمصالح التجارية الفرنسية خلال فترة قصيرة ، وحدث هذا في الوقت الذي كان فيه القنصل الفرنسي دوبوا طانفيل (Dubois thaville) يعترض على تصرفات الداي ويذكره بالمعاهدات المبرمة ، التي تلزمه بحماية مصالح فرنسا في بلاده ، وعدم السماح للسفن الانجليزية بالدخول إلى عنابة للاستلاء على السفن الفرنسية ونهب صيادى المرجان ، ولعل القنصل الفرنسي تحدث عن ذلك بلهجة لا تخلو من تحد ، فكانت السبب في نزع الثقة منه ، يضاف اليها مناورات نائب الوكيل الانجليزي الذي حضر إلى الجزائر ، ومناورات تاجر جزائري ، وسمح للوكيل الانجليزى بالعودة الى عنابة في حين أن طانفيل ، الذي وصل بعد ذلك بفترة قصيرة إلى الجزائر لمقابلة الداي والحديث معه في هذا الأمر ، قد أبعده حرسه عن باب القصر بصورة عنيفة . ولم يكتف الداي بذلك ، بل أمر قراصنته بالاستيلاء على سفن صيد المرجان في كل من عنابة والقالة ، ومصادرتها بما فيها من مرجان (قيمته خمسون ألف قرش) واستعباد ملاحيها ، وعددهم حوالي مائتي شخص ، بحجة أنهم من الرعايا النابوليطانيين ، مع أنهم كانوا يحملون جوازات سفر فرنسية وكان

طانفيل قد طالب بإرجاعهم باعتبارهم رعايا فرنسيين ، فكان جواب الداي على اعتراض القنصل الفرنسي أنه لا يعتبر الجنويين البيسمونطيين وغيرهم من الطليان فرنسيين مادام بونابارت لم يقدم له الهدايا اللائقة به مثل بقية الدول الأوروبية الأخرى ، وهدد بأنه سوف يسحب منهم رخصة صيد المرجان ويقدمها لأعدائهم الانجليز إذا لم يضاعف الفرنسيون رسوم صيد المرجان والتجارة الخارجية .

وبالاضافة الى هذا النزاع مع فرنسا أخذ أحمد يستعد لمحاربة جيرانه التونسيين ، الذين كانوا يدفعون للجزائر ضريبة منذ سنة 1757 ، وامتنعوا عن دفعها الآن بسبب ضعف حكومة مصطفى من جهة ، وبسبب الاضطرابات الداخلية من جهة أخرى ، وقد وجد التونسيون في كل ذلك فرصة للتخلص من هذا النير . فتمسك أحمد باشا بهذه الحجة للهجوم على عدوه وهو يمني نفسه بالحصول على كنوز كثيرة من خلال تغلبه عليه وبهبه له . فكون جيشا يتراوح عدده بين عشرة واثنى عشر ألف تركي وكرغلي ، ووضعه تحت قيادة آغا معروف بمهنته الحربية ليسير به نحو قسنطينة ، ويجتمع مع الجيش العربي لبايها هناك ثم يزحف نحو تونس .

وقد اغتنم عرب المنطقة الغربية هذه الفرصة ، وكان على رأسهم نفس المرابط الذي أثار عام 1804 القبائل ضد قسنطينة ، فجددوا ثورتهم ، فاستعدت للحرب جميع القبائل التي تقطن فيما بين معسكر ومليانة ، فارسل باي وهران رسولا إلى الداي ليخبره بأنه عاجز عن مجابهة الثوار ، فأمر أحمد باشا الآغا ، الذي لم يكن بعد قد بلغ قسنطينة ، بالاتجاه إلى الثوار للقضاء عليهم حتى لا تقوم لهم بعد ذلك قائمة في المستقبل ، وكان المرابط المذكور يقود الثوار ، وما أن لمح هؤلاء الجيش التركي حتى تفرقوا وانهزموا وأنتهت هذه الحملة بالقضاء على ثورة العرب قضاء تاما بعد أسابيع ، فقتل بعض الثوار وعومل بعضهم الآخر معاملة قاسية ، وكان الآغا قد سبق جنوده إلى مثل هذه المعاملة .

لقد انتهت الآن الشجاعة التي عرف بها العرب قديما ، وتعيش منطقة وهران في وضع سيء للغاية ، وتقتصر أسلحتهم على الحراب ، أما البنادق والمقاذيف النارية فلا يملكها إلا القليل منهم . وقد أرسلت رؤوس مائات من

هؤلاء العرب إلى الجزائر علامة على النصر وعلقت صفوفا على أبواب المدينة ، ووضعت إلى جانبها فوق معارق حديدية رؤوس الحضر الذين كانوا يعدمون يوميا ، فكان كل ذلك منظرا مريعاً بالنسبة للمسيحيين ، ولكنه كان مشهدا مسليا بالنسبة للأتراك الذين كانوا يتأملون ذلك دونما اكتراث ويكتفون بالقول انه «المكتوب» .

إن نتائج هذه الحملة الظافرة والأعمال البطولية التي أبداها الباشا خلالها قد جعلت الأتراك يخضعون له خضوعا ، كان فيه ما يكفي للتعجيل بسقوطه فما كاد يصل إلى مدينة الجزائر حتى أخذ ليلا وبصورة سرية من بيته وحمل إلى السجن التركي وخنق فيه . وعندما علم الأتراك بمقتله ، استاءوا لذلك كل الاستياء ، بحيث خشي الناس أن تقوم ثورة ، ولم يستطع الداي أن يحول دون قيامها إلا بصعوبة واستعمل في ذلك الشدة حينا واسترضاء من كان يخشى سطوتهم حينا آخر ، وادعى أن الآغا يسعى إلى قتله . وبعد ذلك دعا باي التيطري ليتولى منصب الآغا ، إلا أن الخوف العام من قسوة أحمد باشا جعل هذا الباي يلجأ إلى ضريح أحد الأولياء ، لأنه كان يخشى خيانته وغدره ، ولم يتوجه إلى الجزائر إلا بعد أن أقسم له الداي بأنه لن يتعرض له بسوء .

وكان عبد الله (باي) قد تولى حكم قسنطينة سنة 1804 ، وذلك بعد أن قتلت القبائل بقيادة المرابط سابقه عثمان (باي) ، فحكم المنطقة بالحلم والانصاف ، ووضع حدا لثورة القبائل ، وحال بسلوكه الحذر دون مشاركة عرب المنطقة في الثورة التي قام بها سكان مقاطعة وهران ، وكان يتمتع كذلك بحب رعاياه واحترامهم له .

وأراد كرغلي غني أن يحل محله في حكم قسنطينة فعرض على الداي 1,250,000 محبوبا ، فقبل الداي أحمد عرضه ، واقتسم المبلغ مع حبيبه وترجمانه سيدى محمد ، وأصدر فرمانا بعزل عبد الله باي ، أما الباي الجديد فقد حاول أن يسترد المبلغ الذي دفعه للداي عن طريق القسوة ومصادرة الأموال . وبلغت به القسوة حدا أقصى ، فحاول أن يرغم عبد الله باى وأسرته عن طريق الضرب والكي بالحديد الملتهب على الاعتراف بالمكان الذي أخفى فيه كنوزه ،

ولكن عبد الله لم يكتنز شيئا ، ومن ثم لم يعترف بشيء ، ولفظ أنفاسه أثناء تعذيبه . وإذا كان الأهالي قد أحبوا عبد الله باي ، فقد كرهوا الباى الجديد كرها شديدا ، كانت عواقبه وخيمة بالنسبة له .

كان باى تونس يتوقع أن تتم حملة جديدة ضد بلاده ، كما أنه لم يكن من جهة أخرى يرغب في دفع الضريبة المعهودة ، ولذلك قام في هذه الفترة بهجوم على مدينة قسنطينة بجيش قوامه ثلاثون ألف رجل ، فاحتل مدينة تبسة الواقعة على الحدود بين البلدين ، وحاصر مدينة قسنطينة في مارس سنة 1806 . وفي هذه المحنة لم يجد الباي الجديد أى استعداد عند رعاياه لمساعدته في التسلح لمواجهة التونسيين وتقوية وسائل الدفاع . وكان جيش الجزائر ، ويتكون من 12,000 ألف رجل ، في طريقه إلى قسنطينة بقيادة الآغا الجديد ، وقد انضم إليه عدد كبير من سكان المناطق العربية التي مر بها مطاوعة وقسرا ، وذلك ما أخر وصوله إلى قسنطينة إلى شهر أبريل غير أن التونسيين لم يستفيدوا من هذا التأخير .

كانت مدينة قسنطينة محاطة بسور حجرى ، دون خندق ودون تحصينات خارجية ، وكان في وسع التونسيين أن يقطعوا عنها الماء والمواد الغذائية ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك . ولهذا لم تمض إلا فترة قصيرة حتى هاجمهم الآغا في معسكرهم ، ودامت المعركة بين الجيشين مدة يومين دون أن يكون النصر حليف أى منهما ، وفي اليوم الثالث وصلت في 2 ماي امدادات من الجزائر عن طريق البحر ، فهاجم جيش من الأتراك والكراغلة الجناح التونسي ، فتم النصر للجزائريين . وفر 800 تركي من الجيش التونسي إلى الجيش الجزائري ، واستولى الجزائريون على المعسكر التونسي . وكان بها عشرون مدفعا وستة مدافع هاون وعدد كبير من الجمال .

وعمت الفرحة في الجزائر عندما وصلت أخبار هذا النصر وأطلقت من الحاميات أكثر من مائة طلقة ، وحملت الغنائم في موكب كبير إلى مدينة الجزائر ، كما أن قسما من الجيش المنتصر قدم فيها استعراضا كبيرا . وبما أن الغرور قد

جعل الأتراك يعتقدون أنهم أكثر دول العالم بطولة ، فقد تصوروا أن في أستطاعتهم أن يضعوا القوانين لسيدهم الداي . ذلك أن الفرق التي شاركت في معركة قسنطينة تجرأت على رفض أمر الداي بمطاردة التونسيين وطالبت بمكافأة على النصر الذي أحرزته ، فأخفى أحمد (باشا) استياءه لذلك ، وأرسل الخزناجي حسن إلى قسنطينة ومعه 200 ألف محبوب ، لتوزيعها على الجنود . وما أن تم ذلك حتى آمر حسن بالقاء القبض على الآغا وقتله ، وأظهر عقب ذلك فرمان الداي ، الذي يتضمن تعيينه في هذا المنصب ، ولم يكن حسن هذا من اتباع الداي فقط ، وانما كان يمت اليه بصلة القرابة أيضا ، إلا أنه كان شابا ، ولم يكن له ما يؤهله ليكون قائدا ممتازا ، وأضاف حسن شيئا من أمواله الخاصة ووزع على الجنود مبالغ كبيرة ، فلم يترددوا عندئذ في التوجه إلى الحدود التونسية .

والتقوا بالجيش التونسي في الكاف ، وهي مدينة حصينة ، كان يقيم بها منذ شهر ماي ، وكان قد عوض بها ما خسره في الرجال والمدافع . وفي 12 يونيه هاجمه حسن على رأس خيالته التركية بقوة كبيرة إلى درجة أن هزيمة الجيش التونسي كانت محققة لو لم يشارك باي قسنطينة في المعركة .

فقد كان هذا الباى يقود فرقة الخيالة العربية التابعة للجيش التركي . وكان قد أعلن مع بداية المعركة أن الأخبار التي وصلته تقول ان الآغا قد قتل ، وترك بعد ذلك أرض المعركة ، تبعته الفرقة التي كانت تحت امرته ، وكانت تتألف من الأتراك الكراغلة ، وعندما رأى الآغا حسن أن القسم الأكبر من جيشه قد تخلى عنه ، انسحب اضطرارا في اللحظة التي كان يظن فيها أنه قد انتصر . وكان التونسيون قد تبددوا حقيقة ، وكانوا على وشك الفرار حين لاحظت حامية الكاف من فوق أسوارها وبروجها الاضطراب الذي حل بصفوف الجزائريين فنبهت القادة التونسيين ومصطفى باى إلى ذلك ، فجمعوا الفارين بسرعة وأرسلوهم لمهاجمة الجزائريين ، الا أن هؤلاء كانوا قد هربوا وتركوا معسكرهم بما فيه من مدافع وذخيرة ، فاستولى عليه التونسيون والعرب الذين كانوا يحومون حوله . وهكذا انتصر التونسيون انتصارا نادرا إلى أبعد حد دون أن يكونوا مهيئين له .

وكان في وسعهم أن يجتاحوا بجيشهم الذي كان قوامه أربعين ألف ، مقاطعة قسنطينة ، ولكنهم مكثوا الصيف كله في الكاف دون أن يحركوا ساكنا .

وكان أول ما عمله الآغا حسن انه أمر باعدام باي قسنطينة وتنصيب باي آخر في مكانه . وقد حاول الباي الجديد أن يجمع العرب حول علم الآغا حسن ، إلا أنه لم يكن من السهل حملهم على المشاركة في المعركة في ذلك الصيف ، وفي شهر أوت وسبتمبر تلقى الآغا حسن إمدادات من الجزائر ، تتكون من الأتراك والعرب والكراغلة ، غير أن عددهم تضاءل بسرعة بسبب الفرار والمرض لشدة الحرارة وقلة الماء ثم الجوع لقلة ما جمع من المواد الغذائية ، فكان اليأس والخور يسودان المناطق المحيطة بقسنطينة ، وكان من حسن حظ الجيش أن الأعداء لم يزعجوا راحته .

وفي شهر أكتوبر عاد الآغا إلى الجزائر ، فاستقبله الداي ، خاله ، بحفاوة كبيرة وخلع عليه بسخاء .

وكانت هذه هي المرة الأولى في هذه البلاد التي يتراجع فيها الأتراك أمام قوة تنتمي الى نفس المنطقة ، وقد كان ذلك باعثا على السخط العام على الداي ، الذي كان سببا في استقالة عبد الله ، لكنه استطاع مع كل هذا أن يحول دون وقوع ثورة ، وذلك بفضل نشاط عيونه وصرامة أحكامه .

وفي شهر يناير 1807 سحب الداي من الفرنسيين رخصة الاحتكار التجارية وصيد المرجان في عنابة وسلمها للانجليز في مقابل ضريبة سنوية قيمتها خمسون ألف قرش .

وفي 3 نوفمبر ابتليت الجزائر بزلزال شديد ، تسبب في تحطيم بعض المنازل في المدينة وفي الريف والحق اضرارا بمنازل أخرى .

ومثل هذه الزلازل ليست نادرة في الجزائر ، فقد وقعت زلازل عنيفة سنة 1792 في وهران ، وسنة 1802 في القليعة وهزت الجزائر نفسها مرتين .

وفي سنة 1808 استعد الداي أحمد لمحاربة تونس ، وكان الباي قد عرض

عليه الصلح ، وأيده في ذلك قابجي باشي الذي كان قد وصل من القسطنطينية بفرمان من السلطان يدعو فيه بدوره الى الصلح ، ولكن أحمد باشا لم يوافق على ذلك ، فسافر المبعوث دون أن يحقق ما جاء من أجله ، وفي أبريل أرسل جيش من الأتراك والكراغلة قوامه حوالي عشرة آلاف رجل ، وكان الأمل في نجاحه هذه المرة كبيرا ، خاصة بعد أن سار باي قسنطينة الجديد ليطوف بالمنطقة مع الآغا حسن لجميع الخيالة العربية والأموال اللازمة ، ولينضم بعد ذلك الى جيش الداي .

ووصل الجيش الى قسنطينة واستراح بها أياما ، وكان العدو ينتظره في الكاف في هدوء وبعد ذلك سار الجيش ، وبعث الآغا برسول إلى الداي ، وكانت رسالته تتضمن وعدا له بأنه سينتصر على أعدائه انتصارا كاملا ، وقبل أن يتبع الآغا الجيش ، مضى في موكب كبير إلى الجامع الكبير بالمدينة — وأثناء إقامة الصلاة دخل الجامع جمع غفير من الأتراك وسيوفهم مسلولة ، وفي لحظة واحدة سقط الآغا والباي وكبار الضباط مضرجين بدمائهم .

وقد قام بهذه الثورة المفاجئة تركي يدعى احمد ، كان قبل سنة في خدمة الآغا ، ثم صدرت عنه أقوال أثارت غضب الآغا ، ومن المؤكد انه كان سيشنق من أجلها لو أنه عاد إلى الجزائر لذلك نجا بنفسه والتحق بسفينة من سفن القرصنة ، لأن الداي نفسه لا يستطيع أن يطلب من قائدها تسليم مجرم لجأ إليها كي لا يستطيع ذلك عندما يلجأ المجرم إلى ثكنة ، ووصل خفية الى مدينة قسنطينة حيث لم ينتبه أحد إلى المؤامرة التي كان يديرها ، ومضى أحمد مع أتباعه الى دار الباي ونهب خزينة الآغا الحربية وخزينة الباي دون أن يجابه بأية مقاومة . وحمل هذه الأموال التي تقدر بحوالي مليون قرش ، وأسرع الى الجيش يوزع عليه تلك الأموال ، فلم يجد بعد ذلك صعوبة في اعلان نفسه رئيسا للاتراك ، وتفاوض مع الاتراك واتفق معهم على أن يجعلوه دايا عليهم ، فسار بهم نحو الجزائر ليخلع الداي أحمد عن العرش .

وعمت الدهشة والحيرة مدينة الجزائر ، عندما وصلت أخباره اليها ولأول مرة وجد الداي أحمد نفسه مضطرا إلى النزول عند رغبة الرأى العام ، وارسال

ترجمان الشؤون الحضرية ، وهو حضري دأب الاتراك على كراهيته لما كان يتمتع به من حظوة عند الداى ، الى جبل طارق . ونصب المدافع فوق الحاميات واتخذت كل الاجراءات للدفاع عن المدينة إلا أن الداى أحمد ، الذي كان يعلم أن الجميع سوف يتخلون عنه بمجرد وصول ذلك الثائر ، حاول أن يبرم اتفاقا مع قائد سفينة فرنسية كانت راسية بالميناء ، ومع القنصل الفرنسي ، من أجل أن يحمل هو ووزراؤه واصدقاؤه الكبار الى السفينة ليلا ويبعدوا عن المدينة في الحين ، وفي أثناء هذه التدابير وصل رسول على جناح السرعة وأخبر الداي حاشيته بمقتل أحمد شاوش وبزوال الخطر الذي كان يهددهم ، فعمت الفرحة المدينة لأن الناس كانوا يخشون أن ينهب الثوار أموالهم وينتهكوا أعراضهم .

ولم يتم كل ذلك ، لأن أحمد شاوش كان قد أقبل على المتع التي سمحت له بها أعمال السلب والنهب ، عوض أن يستغل حماس الجيش للهجوم على الجزائر ، فكان ذلك فرصة عرف كيف يستغلها قائد في صفوف الجيش ، كان قد تولى القيادة بصفة مؤقتة ، فاستطاع إقناع مجموعة من الأتراك بالوقوف إلى جانب الداي ، وهاجم بهم الثائر أثناء مأدبة من مآدبه ، وقتله مع عدد من أتباعه .

وخلال ذلك كانت الفوضى قد تسربت إلى صفوف الجيش ، ولم تلبث أن أصبحت شاملة ، فلم يكن من المنتظر أن تؤدي الأحداث المذكورة إلى شيء آخر غير الاضطراب وأعمال العنف .

لقد فر مئات من الأتراك إلى تونس ليعودوا من هناك الى أوطانهم ، وكانت خزينة الدولة فارغة تقريبا ، ولم يستطع الآغا الجديد ، وهو القائد الذي قتل أحمد شاوش ، إعادة الأمور إلى نصابها ، وقد حمل هذا كله الداي على التخلي عن القرار الذي كان قد اتخذه بمهاجمة تونس . أمام رجال الجيش ، فقد اجتمعوا وتشاوروا فيما بينهم حول ما يجب عليهم أن يحذروه من الداي ، وتحدثوا عن قسوته ، واتفقوا في النهاية على أن من واجبهم أن يقضوا عليه ليأمنوا جانبه ، والتزموا الهدوء لفترة وهذا بعد وصولهم إلى مدينة الجزائر في شهر سبتمبر ، وفي أثناء ذلك عرف أحمد باشا عن طريق جواسيسه أن هناك عاصفة تتجمع حول

رأسه ، وفي 6 نوفمبر 1808 تسلل أتراك من قسنطينة إلى مدينة الجزائر ليلا ، وقد حملوا معهم رسائل من أصدقائهم يشكون فيها من أن أحكام الإعدام اليومية تكاثرت في قسنطينة ويذكرون أنهم اجتمعوا ذات يوم وطلبوا من الباي بشكل جماعي أن يذكر لهم السبب ، الذي جعله يتخذ موقفا كهذا من زملائهم ، فأراهم أمرا كتبه احمد باشا بخط يده ، يطلب منه فيه أن يخنق أكبر عدد ممكن من الأتراك ، لأنه يتوقع قيامهم بثورة ضده .

لقد أغضب هذا الأمر الأتراك فقرروا الانتقام منه بسرعة ، ووقع ذلك في شهر رمضان ، الذي لا يلزم فيه الأتراك ، خلافا لما جرت به العادة ، بالبقاء في ثكناتهم مساء وليلا ، وإنما يسمح لهم بالبقاء ليلا في المدينة والتسلية ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، وهكذا تمكنوا من نشر الأخبار التي وردت من قسنطينة ليلة 6 و 7 نوفمبر دون تأخير ، واستغلوا الوقت للتشاور في الأمر . ولم يتجرأ أحد منهم على الدفاع عن الداي أحمد ، فقرروا قتله وتعيين أول مترشح لمنصب الداي خلفا له وفي صبيحة اليوم التالي كان كل شيء قد أعد لتنفيذ المآمرة ، وكان أحمد باشا قد عرف ما يجرى حوله ، ولكنه لم يجد مع ذلك وسيلة للنجاة منهم . فقد تخلى عنه الجميع ، ولم يجرؤ أحد على الامتثال لأوامره ومضى المتآمرون إلى قصر الداي ، فلم يمانع الحرس في فتح الباب وترك الداى للمصير الذي ينتظره ، فأرسل إليهم أحد عبيده المسيحيين وعرض عليهم كنوزه كلها والسماح لهم بنهب المدينة إن هم أبقوا على حياته ، ولكنهم لم يقبلوا ذلك وهاجموا القصر ، وصعدوا السلم ، ففر أحمد باشا إلى السطح ، وراح يثب من سطح إلى آخر إلى أن أصابته رصاصة أثناء وثوبه فوقع في الشارع ، وهناك مثلوا به بصورة فظيعة ، فقد قطعوا جسده وعلقوا رأسه فوق عمود أمام باب القصر ليراه جميع الناس .

لقد كانت قسوته وثقته العمياء في المقربين إليه ، الذين استغلوا نفوذهم استغلالا شنيعا ، سببا في النفور العام منه ، ولذلك لم يجد من يتأسف عليه . ولم يتورع حتى عن الاساءة الى قناصل بعض الدول الأجنبية ، فأراهم قسوته وغلظته ، ووضع القيود في أطراف عدد منهم ، فكان عليهم جميعا أن يستعملوا انجع الوسائل وأكثرها تأثيرا حتى يعيد اليهم بسرعة ما كان لهم من كرامة ومنزلة .

علي باشا

(7 نوفمبر 1808 ـ 4 مارس 1809)

كان هذا الباشا الجديد قد ترك الخدمة العسكرية قبل بضع سنوات، واشتغل مدرسا في أحد مساجد الجزائر، وكان لا يزال يشغل هذه الوظيفة ويعيش في ظروف تعسة عندما قتل الداي أحمد باشا، واحتار المتآمرون في العثور على خلف له، لأن الداي كان قد قضى على اجلىر الرجال بهذا المنصب، ولأن من بقي منهم، ان كان قد بقي فعلا، كان يخشى التطلع إلى هذه الوظيفة الخطيرة.

وهكذا اقترح حزب ضعيف تعيينه خلفا له، فجلس على العرش دون أن تكون له معرفة بأساليب الحكم ولا موهبة، وبعد جلوسه بأيام قليلة قدم الشبان من الأتراك، الذين كانوا يعتقدون أن تجارب السنوات الأخيرة تمكنهم من إزالة أي نوع من أنواع الظلم، عريضة إلى الحكومة، طالبوا فيها بإبطال أحكام الإعدام ضد الأتراك في المستقبل من جهة وبدفع تعويضات مناسبة لهم من جهة أخرى، ولم يخفوا رغبتهم في نهب المدينة، وكان الداي أضعف وأعجز من أن يتخذ قرارا في هذا الشأن، وما كانت مدينة الجزائر لتسلم من السلب لو لم يتدخل الكبار العقلاء والمتزوجون من الموظفين الأتراك للحيلولة دون وقوع هذه الثورة، فقد اتضح لهم الخطر الذي يهددهم جميعا، فأعلنوا أنهم سيردون على العنف بالعنف، وتشجع الداي حين عرف موقفهم هذا، فألقى القبض على عدد كبير من قادة الثوار، وأمر بإعدام بعضهم وإرسال بعضهم الآخر إلى المشرق على متن الباخرة، وبهذه الطريقة تم القضاء على الفوضى.

وعزل علي باشا موظفي الداي السابق السامين وعوضهم برجال من أتباعه، واستولى على كنوز سابقه وأموال أهله وأصدقائه وطلق زوجته تقربا إلى المليشيا، إلا أن عجزه وسوء اختياره لوزيره خوجة الخيل، الذي كان له أتباع أيام حكم الداي أحمد وزاد عددهم بعد توليه منصبه الجديد، كانا سببا في سقوطه، فقد أغلقت الأبواب في 4 مارس، ودخل المتآمرون القصر دون مقاومة، وكان خوجة الخيل يتقدمهم، وقبضوا على الداي وحملوه إلى الشارع فتسلمه

الشواش وقدموه لرئيس الجلادين ، من غير أن يصغوا إليه وهو يتوسل اليهم أن يعيدوه إلى المسجد لممارسة مهنته ، فخنقه ، بتهمة الجناية والطغيان .

الحاج علي باشا

(4 مارس 1809 ــ 22 مارس 1815)

لم يتقلد هذا الداي ، وكان خوجة الخيل عند سابقه ، أي منصب كبير في السنوات الماضية ، وكان يعيش حتى ذلك الحين ، في عزلة . وكانت تنقصه التجربة في أعماله ، إلا أنه استطاع أن يعوض هذا النقص بذكائه الفطرى وسلوكه الحذر مع المليشيا ، وعلى العكس من ذلك لم يخف ميله إلى الصرامة والقسوة في معاملة الحضر واليهود والعبيد الذين لم يخش ثورتهم ، وهأنذا أقدم فيما يلي أمثلة على ذلك .

عثرت دورية أثناء الليل على قارب صغير فوق الشاطئ أمام باب عزون ، فرأت في ذلك مخالفة للقوانين ، ونقلت الأمر إلى الداي بذلك في الحين ، فالقانون يمنع وقوف القوارب فوق الشاطئ ، بسبب فرار العبيد . فأمر الداي من غير أن يتحرى حقيقة الأمر ، باحضار جميع العبيد الذين يقيمون قرب موقف القارب ، وضربهم بالفلقة 1200 ، ضربة ، وبهذه الطريقة عاقب 13 بريئا ، مات تسعة منهم في اليوم التالي نتيجة لهذه الوحشية . وكان العبيد أبرياء فعلا ، فقد اتضح فيما بعد أن الحضر هم الذين احضروا القارب ودفعوه إلى الشاطئ .

وألقى ذات يوم القبض على دافيد باكرى ، رئيس الشركة التجارية الغنية ، بعد مقتل بوجناح ، رئيس الطائفة اليهودية وصراف الداى أيضا ، فطلب العفو وعرض 25,000 من المال للإبقاء على حياته ، ولكنه لم يقبل ذلك منه ، وأمر بقطع رأسه أمام القصر دون أن يعرف أحد السبب في ذلك . والغريب في الأمر أن أمواله لم تصادر ، فقد دعي أبوه إلى القصر لتسلم إليه التسعمائة قرش التي وجدت في حوزة القتيل . وقد لقي تاجر إيطالي نفس المصير دون معرفة السبب ، اللهم إلا إذا كان الأمر يعود إلى الكيف الذي كان الحاج علي واقعا تحت سيطرته .

وساءت العلاقات مع فرنسا مرة أخرى ، فقد ترك القنصل ديبوا تانيفيل (Thainville) بعد أن دفع 22,000 قرش ، وهو المبلغ الذي طلبته الدولة في مقابل 106 عبيد أطلق سراحهم في أيام أحمد باشا ، وأناب عنه قائما بالأعمال ، ولكن هذا القنصل استعمل لهجة لم ترق للداي فأمره بمغادرة البلاد ، وهكذا بقيت فرنسا دون ممثل لها . وفي هذه الفترة كانت سفن القرصنة الفرنسية قد حملت غنائم كثيرة إلى وهران ، فأمر الداي ببيعها ووضع ثمنها وهو 150'000 قرش في خزينته . وفي الوقت نفسه طلب من فرنسا مبلغا كبيرا تعويضا عن حمولات جزائرية صودرت في مرسيليا بموجب النظام القاري . وأمر كذلك بإخلاء سفن القرصنة الفرنسية في الموانئ الجزائرية من الغنائم التي تحملها ، وأعادها بعد ذلك إلى الانجليز .

وفي صيف 1810 قامت ثلاث فرقاطات جزائرية بغزوة في جبل طارق ، وهاجمت فيه مجموعة من السفن البرتغالية أقوى منها واستولت على ثلاث سفن غنية بحمولتها ، وعادت بها إلى الجزائر دون أن يتمكن البرتغاليون من التغلب عليها ، كما كانت قوتهم توحي بذلك . وبعدها بفترة قليلة وصل إلى الجزائر المبعوث البرتغالي لإجراء مفاوضات الصلح وتسليم الأسرى مقابل فدية مقدارها ألف قرش للأسير الواحد . ومثل هذه العمليات من شأنها أن تزيد من كبرياء الجزائريين واحتقارهم للأوروبيين .

قتل حضري جزائري في كارطجينا أثناء نزاع خاص ، ووصل خبر مقتله إلى الجزائر ، ولكن الحكومة لم تهتم بذلك لأنها كانت تعتبر الحضري إنسانا خبيثا وتراه قد نال جزاءه . وكانت قضيته قد نسيت تقريبا عندما وصلت من كارطجينا سفينة تحمل على متنها خمسة تعساء مقيدين في السلاسل ، وضعوا تحت تصرف الداي لأنهم كانوا متهمين بقتل الحضري ، فأمر الداي بإرسالهم في الحين إلى اسبانيا ، إلا أنه طلب من القنصل الإسباني أن يدفع قبل ذلك بضعة آلاف من القروش .

وفر عبد في سفينة إسبانية ، فأمر الداي في الحال باعتقال ملاحين من ملاحي سفينة إسبانية كانت واقفة بميناء الجزائر ، واحتفظ بهما في مكان ذلك

العبد ، ولم يطلق سراحهما إلى أن أمر حاكم ماهون بالقاء القبض على العبد الآبق وإعادته إلى الجزائر .

ووقع نزاع بين الحاج علي باشا والانجليز بسبب حمولات جزائرية مختلفة ، كانت في طريقها إلى فرنسا ، فاستولى عليها الاسطول الانجليزي ، إلا أن وصول ثلاث ناقلات من جبل طارق إلى الجزائر في صيف 1811 ، وكانت تحمل على متنها بارودا وأسلحة أخرى ، هدية من الانجليز إلى الداي ، الحاج علي باشا ، قد زاد من روابط الصداقة بين الجزائر وانجلترا ، وهي الصداقة التي شعرت بوطأتها سفن القرصنة الفرنسية .

وفي نهاية سنة 1811 انزل الداي ظلمه بالاسبان أيضا إلا أني أود أن أوفر على القارئ روايته ورواية ما قام به مرة أخرى ضد فرنسا ، لأن مثل هذه الأعمال كان هدفها دائما الضغط على العدو بصورة وقحة ، وكانت تنتهي ، مثل غيرها مما ذكرت ، في صالح الداي وتزيد من صلفه وكبريائه .

ولم يؤثر إعدام اليهودي باكري على نفوذ أسرته ، فقد أتاح لها هذا النفوذ أن توصل أعداءها القدامى أمثال بن دوران ومازامر وغيرهما باقوالها إلى حبل المشنقة .

وفي نهاية 1811 وجهت حملة بحرية ضد تونس ، وعلى الرغم من أن مجموعة السفن التونسية قد تجنبت السفن الجزائرية فان الجزائريين تمكنوا من الاستيلاء على اكبر سفنهم وهي مزودة باربعين مدفعا ، والتوجه بها إلى الجزائر .

وفي شهر جويلية سنة 1812 أعلن الداي الحرب على أمريكا الشمالية ، لأنه لم يرض عن الهدايا التي وجهت إليه ورفض أخذها ، فكان على القنصل الامريكي أن يدفع ما تبقى من الديون الامريكية ويغادر البلاد .

وفي هذه السنة نفسها وصلت سفينة من القسطنطينية ، تحمل على متنها مبعوثا تركيا ليتوسط في عقد الصلح بين الجزائر وتونس والمطالبة باعادة بعض السفن الحربية ، إلا أنه رجع دون أن يحظى بمقابلة الداي .

وفي ربيع سنة 1813 أمر باي وهران بقتل جميع الأتراك في حامية كل من وهران ومعسكر وغيرهما من مدن المقاطعة ، وذلك ليستقل عن الجزائر ، ولهذا السبب قام بعد ذلك برحلة في المقاطعة ليتأكد من وقوف شيوخ المنطقة إلى جانبه . ولم ينج من هذه المذبحة إلا عدد قليل من الأتراك فروا إلى مدينة الجزائر . ولم يكد الباي يعود إلى وهران حتى أرسل اليه الداي بحرا عددا من الضباط الأتراك فاعتقله أقرباؤه ، الذين كان قد وكل اليهم أمر تكوين فرق عسكرية لحمايته ، وسلموه إلى هؤلاء الضباط .

وفي أثناء ذلك كان الآغا عمر قد وصل بجيشه المكون من الأتراك والكراغلة ، وأنقص القاء القبض على الداي من عزائم الثوار العرب ، فأعيدوا الى الطاعة بسرعة وبعدئذ انتقم عمر من الباي إنتقاما مريعا ، فقد قتل اطفاله أمام عينيه ، وعذبه هو نفسه ، ومثل به ، ولما توفي بعد أيام من الألم والهوان ، قطع رأسه وأرسله الى الجزائر علامة على النصر الذي أحرزه عليه ، فعلق فوق عمود وعرض في الشارع . وقد مات أفراد أسرته ميتة فظيعة ، وكان من بينهم عدد من أولئك الذين خانوه وسلموه للآغا عمر ومع ذلك يجب أن نذكر ان أخاً لعمر كان ضمن من قتلهم باي وهران .

وفي شهر يونيه من نفس السنة تم الصلح بين الجزائر والبرتغال بفضل وساطة انجلترا ، ودفعت البرتغال 320,000 قرشا في مقابل الصلح و 800,000 قرش في مقابل اطلاق سراح 400 عبد ، وحمل القنصل فوق ذلك ، عند استلام مهام منصبه ، 1,200,000 بيسوس دوروس من باب الهدية .

وفي شهر جويلية جهز الأسطول الجزائري كله ، ويتكون من 14 فرقاطة وحراقة وسفينة شراعية وسكا بالاضافة إلى 45 مركبا مجهزا بالمدافع ، وخرج لمحاربة تونس بقيادة وكيل الخرج ، وفي نفس الوقت توجه الآغا عمر لنفس الغرض إلى قسنطينة لينظم جيشه هناك إلا أنه لم يستطع حمل فرقة الفرسان العرب التي كونها ، على السير معه ، فما أن تجمع عددا منهم حتى يتفرقوا مرة أخرى ، ويعودوا إلى أماكن إقامتهم . ووصل الأسطول إلى تونس ولكنه لم يقترب من

حاميات الساحل وتمكنت بعض السفن التونسية ، التي كانت راسية تحت المدافع ، من تحطيم القوارب الجزائرية المحملة بالمدافع وعاد الجيشان البري والبحري إلى الجزائر في شهر أكتوبر دون أن يحققا الهدف من خروجهما ، وبعد خسارة 20 قاربا مدفعيا .

وفي 22 مارس 1815 قتل الحاج علي باشا ، وكان قبل ذلك بيوم واحد قد هدد أحد عبيده السود بالقتل ، إلا أن هذا العبد سبقه إلى ما كان ينوى فعله معه ، فعند ما كان الداي في اليوم المذكور في الحمام ، قفل العبد الباب وراح يزيد النار في الموقد إلى أن أغمي على الداي ، فدخل إليه وقتله . ومع أن العبد الزنجي لم يقبل على عمله هذا دون أن يوعز اليه بذلك بعض الموظفين الكبار ، فقد دفع حياته ثمنا لفعلته . وكان الحاج علي باشا قد تجاوز الستين من عمره عندما قتل ، وكان الناس قد اطلقوا عليه ، لقسوته وصرامته ، اسم علي النمر .

وفي أيام حكومة الحاج علي باشا كان قد تكون في السنوات الأخيرة حزبان بين الأتراك ، يتزعم أحدهما عبد الله ، ويتزعم الآخر الاغا عمر ، الذي سبق ذكره . وكان كل منهما رجلا قديرا ، ولكن الحاج علي استغلهما في سيطرة أحد الحزبين على الآخر . ولدى موت الحاج علي المفاجيء لم تجد أي منهما نفسه مستعدا لتولي الحكم ، ولذلك جعلا الوزير الأول أو الخزناجي خلفا للداي القتيل .

الحاج مصطفى

هذا هو اسم الخزناجي ، الداي الجديد ، وهو شيخ عجوز في حوالي السبعين من عمره ، هادىء الطبع ، دمث الخلق ، ولم يكن له مؤيد بين الأتراك ، وبما أنه لم توضع مقاليد الأمور بيده الا لكسب الوقت ، فقد قتل في 7 أبريل ، إذ دخل عمر القصر على رأس أتباعه واعتقله وأرسله إلى المكان الذي يعدم فيه الجنود ، وأمر بخنقه ، وجلس عمر فوق العرش وجعل عبد الله وزيرا للبحرية .

عمر باشا

(7 ابريل 1815 ــ 8 سبتمبر 1817)

لم يتلق هذا الداي أى نوع من التعليم ، فلم يكن يعرف القراءة والكتابة ، ومع ذلك فقد زودته الطبيعة بالصفات التي يجب توفرها في الحاكم ، كان في حوالي الأربعين من عمره ، قوى البنية ، موفور الحيوية ، اتسمت اعماله بالعدل والحلم .

ووصل مبعوث جديد من القسطنطينية إلى الجزائر ، وعقب زيارته أطلق سراح العبيد اليونانيين ، إلا أن الصلح مع تونس لم يتم في هذه المرة أيضا .

وفي شهر يونية خرجت من الجزائر مجموعة قليلة من السفن لمطاردة السفن الامريكية والهولاندية فالتقت فرقاطة وحراقة ، كانتا قد اتجهتا الى الساحل الاسباني ، بمجموعة قوية من السفن الامريكية بقيادة ديكوكتورز (Decoctors وذلك عند كابودى غالو (Copo de Gallo) ، وهاجمتها في الحين ، فخرجت إليها فرقاطتان . وبعد اشتباك دام حوالي نصف ساعة نكست الفرقاطة الجزائرية العلم ، واصطدمت الحراقة بالقعر ، فسحبها الاسبان وقادوها إلى كارطجينا ، وهي الميناء الذي حمل إليه الامريكان غنائمهم .

وبعد ذلك مباشرة اتجه قائد السفن الامريكية إلى الجزائر وراسل الداى بالشروط التي ينبغي أن يتم الصلح على أساسها ، وخلال اجراء المفاوضات وصلت سفينة من سفن القرصنة الجزائرية من عنابة ، وكان على متنها 400 تركي ، فحاصرتها السفن الامريكية عند مدخل الميناء ، فحمل ذلك الداي على قبول شروط الصلح فالغيت الاتارة التي كانت أمريكا تدفعها سنويا حتى ذلك الحين ، وكذلك أبطلت عادة تقديم الهدايا إلى الداي ، ودفعت الجزائر القيمة الكاملة لغنائم أمريكية كانت السفن الجزائرية قد استولت عليها ، ووعد القائد الامريكي باعادة الفرقاطة دون فدية كما طلب من الاسبان إرجاع الحراقة الى الجزائر .

وفي شهر أوت 1815 وصلت إلى ميناء الجزائر مجموعة من السفن الهولاندية بقصد إجراء مفاوضات الصلح ، ثم أبحرت دون أن تحقق الغرض من زيارتها .

في صيف السنة المذكورة وصلت من الصحراء جيوش من الجراد لا تحصى ، وأحدثت أضرارا بالغة في أقاليم الجزائر ، فاختفت ضوء النهار وغطت الحقول كلها ، وقضت على الأعشاب والنباتات والأوراق في لحظات محدودة .

وبدأ نفوذ حزب عبد الله ، وزير البحرية ، الذي كان قد قبل ثورة منافسه عمر على مضمض ، يزداد شدة وخطورة ، ولكن عمر احتاط للأمر قبل وقوعه ، فأمر ذات صباح باعتقال عبد الله وحمله الى سفينة متوجهة إلى الشرق ، كانت راسية بميناء الجزائر ، وأمر كذلك بارسال أمواله وأغراضه ، وبهذه الطريقة تخلص من منافسه ومن الثورة التي كانت تهدده .

واصطدمت السفينة الحربية الاسبانية فرناندو السابع ، بالساحل الافريقي بسبب العواصف ، وكانت مزودة بمائة وعشرين مدفعا ، واتجه ملاحوها ، وعددهم مائتان إلى البر لينقذوا أنفسهم من الغرق ، فحملوا إلى الجزائر في مراكب صغيرة وكان الداي قد بذل كل ما في وسعه لانقاذ البحارة الاسبان ، ولما وصلوا الجزائر أبقاهم رهائن في مقابل الحراقة الجزائرية التي كانت لا تزال محتجزة في كارطجينا .

في سنة 1816 أمر عمر بحرق ثلاثة يهود أحياء ، وهذا نوع من العقاب كان مستعملا قديما ، ولكنه لم يعد كذلك منذ مدة . وكان ذنبهم فيما قيل ، أنهم أفلسوا أو عجزوا عن إرضاء دائنيهم ، والظاهر أن موتهم كان نتيجة مؤامرة قام بها رئيس أو مقدم اليهود العجوز باكري ، ذلك أنه غضب عليه وطرد من البلاد بمجرد أن عرفت القضية على حقيقتها .

وفي فبراير 1816 وصل قنصل فرنسي إلى الجزائر لتصفية الأمور بين الدولتين ، فتم له ما أراد بعد أن لبى جميع مطالب الجزائر وقدم هدايا كثيرة .

وفي شهر مارس أعاد الاسبان الحراقة الجزائرية المحتجزة وتسلموا ملاحي السفينة فيرناندو السابع الذين احتفظ بهم رهائن في الجزائر .

ووصل اللورد اكسموث في 31 مارس باسطول يتكون من سبع عشرة سفينة شراعية ، لاجراء مفاوضات الصلح نيابة عن نابولي وسردينيا فأعلت

الجزائر عن استعدادها لذلك . وكان على نابولي أن تدفع مليون قرش فدية لألف من مواطنيها العبيد في الجزائر ، و 24,000 ألف قرش إتاوة سنوية بالاضافة إلى الهدايا القنصلية والهدايا الأخرى التي تقدم كل سنتين . أما سردينيا فكان عليها خلافا لذلك أن تدفع خمسمائة قرش للشخص الواحد من رعاياها العبيد في الجزائر ولكنها لم تلزم بتقديم الإتاوات والهدايا .

وبعد ذلك اتجه الأسطول إلى تونس وطرابلس ، ولكنه عاد إلى الجزائر في 13 ماي ، وطلب اللورد إكسموث باسم حكومته وبقية الحكومات الأروبية من الجزائر أن تطلق سراح العبيد المسيحيين جميعا دون فدية والا تستعبد أي أروبي في المستقبل ، بل ينبغي أن تعتبره أسير حرب ، وهدد بمهاجمة مدينة الجزائر في حالة رفض مطالبه ، وعندما تلقى من الباي جوابا لا يخلو من التواء ، عاد إلى سفينته وهو يهدد بضرب المدينة ، وفي الطريق لحقته اهانات من الشعب ومن وزير البحرية نفسه . وتأخر القنصل الانجليزي وضابطان انجليزيان ، فالقي القبض عليهم ، وفي خلال نصف ساعة توجه الفا رجل الى حاميات الساحل ووجهوا مائتي مدفع نحو الاسطول الانجليزي ، ومر يومان تخللتهما تهديدات وتظاهرات متوعدة . وفي اليوم الثالث أرسل اللورد اكسموث مبعوثا إلى الداي ، وأخبره بأنه موافق على اقتراح الديوان المتعلق بترك أمر الغاء الرق للقرار الذي يتخذه الباب العالي . وبذلك عادت الأمور الى نصابها وتجددت أواصر الصداقة ، وتم تبادل الهدايا بين الطرفين ، وسمح اللورد اكسموث بأن يسافر مبعوث جزائري على متن فرقاطة انجليزية إلى القسطنطينية بهدايا كثيرة ، ورجع اللورد اكسموث بعد ذلك إلى انجلترا .

وفي شهر يونيه وصلت مجموعة من السفن الهولاندية تتكون من أربع فرقاطات ، فاطلقت عليها الحاميات النار ، فردت بالمثل ، واستمر تبادل نيران المدافع نصف ساعة على فترات طويلة ، ولم يصب أحد بجراح ، وعادت السفن الهولاندية إلى عرض البحر .

وعرف الناس في الجزائر مع نهاية شهر جويلية أن انجلترا تستعد لحملة تقوم خلالها بضرب مدينة الجزائر ، فضاعف الداي من جهده في تحصين المدينة

للدفاع عنها ، فعين ثلاثة آلاف رجل من الأتراك والحضر للعمل في الحاميات ، وجمعت فرقتان من فرق الخيالة العربية قرب مدينة الجزائر لمهاجمة الانجليز فيما إذا نزلوا إلى البر ، وتم إصلاح حوالي 40 قاربا لحمل المدافع ومدافع الهاون ، وقد أشرف الداي بنفسه وبكل مهارة على عمليات الاصلاح .

وفي 5 أوت وصلت طليعة الحملة وتتمثل في فرقاطة ، وطالب قائدها بصعود القنصل الانجليزي إليها ، ولكن الداي لم يسمح بذلك بل أمر باعتقاله في منزله وتشديد الحراسة عليه ، ولكن زوجته وابنته تمكنتا من الفرار متنكرتين ، اما بقية الأوروبيين فقد ظلوا يتمتعون بحريتهم إلا أن بعضهم ممن كانوا يريدون السفر قد منعوا من الصعود إلى الباخرة .

وفي صبيحة 27 أوت ظهرت عند مدخل ميناء الجزائر القوة البحرية المعادية ، وكانت تتألف من سفينتين خطيين بمائة وعشرة مدافع ، وثلاث سفن بأربعة وسبعين مدفعا ، وست فرقاطات انجليزية ، وست فرقاطات هولاندية واثنتي عشرة حراقة وقوارب أخرى صغيرة وأربع مدمرات ، ووصل قارب ، كان على متنه مبعوث يحمل رسالة إلى الداي ، وطلب منه الاجابة عليها بعد مضي ساعة ، وبما أنه لم يتلق جوابا فقد عاد إلى الأسطول ، الذي اقترب قليلا من مرمى مدافع الحاميات . وحوالي الساعة الثالثة والنصف بدأ الجزائريون يطلقون النيران من حامية البرج فردت على ذلك سفينة أمير البحر كوين شارلوت (Quen charlotte) والفرقاطة لياندر (Leander) واتسع ميدان اطلاق النار بحيث شمل الخط كله ، وسرعان ما تجاوبت أكثر من أربعمائة فوهة مدفع ، وتحطمت قوارب المدافع الجزائرية بسرعة ودمرت الحاميات البحرية وتركت ، ولم تصمد سوى الحاميات السفلى ، التي كان يقودها الداي بنفسه . وفي المساء اشتعلت النيران في الفرقاطة الجزائرية الراسية في الميناء بفعل المواد المحرقة التي رمتها بها القوارب الأنجليزية ، ومنها أنتقلت النيران إلى السفن الأخرى المتوقفة في الميناء ، فالتهمت في الليل أربع فرقاطات وخمس حرقات وثلاثة قوارب صغيرة . والفجر كذلك زورق شراعي انجليزي ، واصطدم حطام فرقاطة مشتعلة بسفينة تجارية ، فاشتعلت فيها النيران واتجهت نحو سفينة أمير البحر كوين شارلوت فأرغمتها على سحب

المراسي ، والفرار بسرعة . وفي حوالي الحادية عشر هبت عاصفة شديدة مصحوبة بامطار غزيرة ، انقدت الترسانة البحرية والمخازن الجزائرية من ألسنة النيران ، وهبت في الوقت نفسه رياح جنوبية . فتحركت السفن الانجليزية ودخلت الميناء ، وبذلك انتهت المعركة البحرية بعد أن استمرت ثماني ساعات .

ويقدر الانجليز عدد القذائف التي اطلقوها بثلاثين ألف قذيفة ، أطلق أغلبها على المدينة ، وقد ألحقت بها أضرارا بالغة بسبب شكلها الهرمي ، ولم يكن للصواريخ الكونغريفية مفعول كبير ، لأن الدور قوية الجدران وليس فيها إلا القليل من الأماكن التي يمكن أن تلتصق بها وتشعل فيها النيران . فكانت أغلب القذائف تمر فوق المدينة ، لأن السفن المقبلة كانت قريبة جدا من المدينة .

وذكر اللورد اكسموث في تقريره أن الجزائريين خسروا في هذه المعركة أربعة آلاف قتيل وجريح ، مع أنه من المعروف أن جيشهم لم يكن يتجاوز ثلاثة آلاف ، وقد جرح وكيل الحرج ، وقتل ستة قرسان ومائة وثلاثون تركيا ، ومن المرجح أن عدد القتلى من الحضر لم يتجاوز الستمائة أو الثمانمائة . وكانت خسائر السفن المتحالفة حسب الاخبار العامة تسعمائة وأربعة عشر قتيلا وجريحا ، وقد فقدت السفينة الحطية (Empregnable وحدها ، وعلى متنها 110 مدافع ، مائتي رجل ، وتحطمت ، وكذلك الفرقاطة ليآندر (leander) أما السفن الأخرى فلم تلحقها أضرار بالغة.

وفي صبيحة يوم عشرين وصل للمرة الثانية مبعوث ، واقترح على الداي الصلح حسب الشروط السابقة ، أي إطلاق سراح العبيد ، والالتزام بابطال الرق في المستقبل ، وهو ما الزم نفسه به كل من باى تونس وليبيا ، وإعادة مبلغ 375,000 ألف قرش التي دفعتها نابولي وسردينيا بسبب أعمال العنف التي وقعت في عنابة . وأخيرا ضرورة عقد الصلح مع هولاندا وعدم الزامها في المستقبل بدفع الاتاوات والهدايا .

وجمع الداي الديوان واقترح عليه إخلاء المدينة من الأموال والعبيد والميليشيا التركية وتركها للانجليز ، الذين لن يستطيعو الاحتفاظ بها لنقص المواد الغذائية ،

ولكن الديوان رفض هذا الاقتراح ، فاضطر الداي إلى قبول الشروط المقدمة ، وأرسل في النهاية علي رايس وهو ابرع ضباط البحرية الجزائرية وأكبرهم سمعة ، ومعه القنصل السويدى الذي دعاه لمرافقته ، إلى الأسطول ليعقد الصلح باسمه مع انجليترا وهولاندا .

وفي 21 أوت انطلقت نيران المدافع معلنة عن اتمام الصلح وأرسل العبيد الذين كانوا قد أبعدوا عن المدينة قبل المعركة لتسهل حراستهم ، إلى الأسطول الانجليزى تدريجيا ، وكان عددهم 1147 من بينهم 707 نابوليطانيين و173 روميا ، و 6 توسكانيين و 28 هولانديا ، و 226 اسبانيا ، و 7 يونانيين . وبعد أيام قليلة أقلع الأسطول الانجليزى ، وكان اللورد اكسموث قد وعد قبل ذلك بأن انجليترا لن تتدخل في المستقبل في علاقات الجزائر بالدول الأروبية .

وتمثلت الضرورة الملحة بعدئذ في إعادة بناء البحرية ، فما كاد الأسطول الانجليزي يختفي عن الأنظار ، حتي بدأت الأعمال بكل جد ونشاط في إصلاح الاضرار التي لحقت بالسفن والمنشآت فجند آلاف العمال ، وكان يشرف عليها بصفة مستمرة ، وفي خلال شهرين تم إصلاح البحرية والبرج إصلاحا كاملا ، وقبل نهاية الشتاء أعيدت المدينة إلى ما كانت عليه وأنشيء أسطول جديد .

وأرسل الداى مبعوثا إلى القسطنطينية ، فعاد بعد فترة وجيزة ونقل إليه مساندة السلطان الأعظم له ووقوفه إلى جانبه كما حمل إليه هدية تتكون من فرقاطتين وحراقة واشترت الجزائر سفنا من طرابلس وليفورنو وغيرهما ، وبنت سفنا أخرى . ولم يهمل أى شيء ولا اقتصد في شيء ، ولا وقع تردد في بذل كل شيء ، ومع أن ذلك كله قد كلف خزانة الدولة مبالغ كبيرة ، فان العجز لم يتطرق إلى ميزانية الحكومة ولم تلجيء إلى الوسائل التعسفية .

وفي شهر ديسمبر 1816 تم الصلح مع أمريكا الشمالية بعقد اتفاق جديد ، وكان الداي حذرا أيضا في معاملته لإسبانيا ، فقد كان له مطلب عليها فأخره إلى وقت آخر أنسب . وفي مارس سنة 1817 وقع الداي معاهدة مع فرنسا تعيد لها بموجبها ، نظير دفع 42,000 إتاوة سنوية ، الحقوق التجارية السابقة في عنابة والقالة بالاضافة إلى صيد المرجان .

وفي شهر يونيه 1817 بدأ الطاعون ينتشر في الجزائر التي لم تبتل به منذ عشرين سنة ، وقد انتقلت عدواه بواسطة سفينة وصلت من الاسكندرية الى عنابة .

وأمر الداي أسطوله ، الذي كان يتكون من سفن كثيرة ، ولكنها ليست كبيرة جدا بالقيام بحملة بحرية في الجانب الآخر من مضيق جبل طارق ، واستولى على عدد من الغنائم ، أعيدت إلى أصحابها بعد وصول الأسطول إلى الجزائر مباشرة . فهل كان المقصود من ذلك إظهار ما في إمكان الأسطول الجزائري أن يفعله ؟!

وكان علي موسرلي جنديا بسيطا ، لا وظيفة له ولا ثروة ولكنه كان ذا حيوية وجرأة . فاستمال إليه مجموعة كبيرة من الأتراك طورا عن طريق الوعود بالوظائف والمكافآت ، وطورا آخر عن طريق الانتقادات الموجهة لحكومة الداي عمر ، فاتفقوا معه على إسقاطه وإبعاده عن العرش ، وقد حذره وكيل الخرج حسين من المؤامرة التي تدبر له في الخفاء ، ولكنه لم يحتط للأمر ولم يهتم بالمصير الذي ينتظره ، لأن الوزراء الآخرين أكدوا له أن المسألة محض إشاعة كاذبة .

وفي يوم 8 سبتمبر 1817 كان الداي قد ذهب إلى حريمه في المساء ، ولكن خازندارا أيقظه من نومه حوالي منتصف الليل ليخبره بأن الثوار قد اجتمعوا في ثكنة كفالي وأنه من المتوقع أن يأتوا إلى القصر بعد ذلك ، فدعا الديوان إلى عقد اجتماع وأمر وزير البحرية بإحضار المدفعيين والمدافع إلى القصر ، ولكن ذلك كان بلا جدوى ، فقد وصل الثوار قبل أن يتخذ أي إجراء من إجراءات الدفاع ، ودخلوا القصر ، واعتقلوا الداي الذي دافع عن نفسه بسيفه وحملوه في الحين إلى الاسطبل وخنقوه بحبل أدير حول عنقه .

علي باشا

(8سبتمبر 1817 — 1 ماي 1818)

نصب الباشا الجديد دون أدنى مقاومة إلا أنه سرعان ما ظهر تذمر أتباع

الداي المخنوق عمر باشا ، وعلم علي باشا بذلك ، فانتقم منهم من غير أن يبحث طويلا فيما إذا كانت الاتهامات الموجهة اليهم صحيحة أو غير صحيحة ولكي يأمن على حياته أمر بأن ينقل محل إقامته من القصر السابق إلى القصبة ، أعلى نقطة في المدينة ، في سرية تامة وفي الليل أيضا . وكانت القصبة محل إقامة الباشاوات ، ولكنها لم تستعمل منذ مائة سنة ، واستخدمت ترسانة ، تحيط بها الأسوار التي تعلوها مدافع ، تحرس المدينة كلها والطرق المؤدية إليها . وحرص علي باشا على الزيادة في تحصين القصبة فزودها بمائة مدفع آخر وبالإضافة إلى حرسه التركي كون فرقة قوية من الكراغلة والخضر وفرقة أخرى من الزنوج ، وجعل محل إقامتها في القصبة ، وحرص دائما على أن تكون الفرقة التركية أضعف الفرق في الجيش وفي الحاميات على حد سواء ، حتى لا تستطيع أن تقوم بأية حركة ضده وقد أثارت هذه التصرفات سخط الأتراك ، وزاد من سخطهم سلوكه الذي تميز بالقسوة والصرامة والعنف . وعلقوا آمالهم على فرق الجيش التي ستعود من قسنطينة والتي كان بعض رجالهم قد أخبروها بما حدث في الجزائر ، فثارت وقررت اسقاط الداي ، وعينت دايا آخر في مكانه .

وفي 30 نوفمبر وصل إلى الجزائر جيش يتكون من 4000 أو 5000 آلاف رجل .

وعلم علي (خوجة) بذلك ، فاستعد للأمر واستقبلهم بنيران المدافع ، التي انطلقت من القلعة ومن بعض الزوارق ، فاضطر الثوار إلى التراجع وإقامة معسكرهم بعيدا عن المدينة ، ولكن هذا المعسكر اختفى في اليوم التالي ، لأن القبائل العربية عادت إلى أوطانها بعد فرار الداى الجديد وامتناع الأتراك في المدينة عن فتح الأبواب خلافا لما تم الاتفاق عليه . ذلك أن علي (خوجة) كان قد أخذ حيطته فأمر بتجريدهم من الأسلحة وسجنهم في القلعة واستسلم بعض الأتراك سرا ، وفر آخرون فقتلهم العرب .

وأطلق الداي علي العنان لكراهيته للميليشيات التركية ، ولم يعد خافيا على الناس أنه كان آنئذ يريد أن يستأصل شأفتهم ويجعل من الجزائر عرشا وراثيا . وساعده في هذا الأمر صهره الحاج مصطفى ، وهو تاجر حضري طماع جشع ،

ولم يكن من الصعب على الداي أن يحقق مشروعه هذا بعد أن تبددت فلول جيش قسنطينة ، فقد أخذ عدد الأتراك في الجزائر يتناقص يوميا عن طريق الاعدام والطرد وغير ذلك . ومنهم من عاد إلى وطنه تلقائيا ويقدر عدد الأتراك الذين لقوا مصرعهم على يده ، خلال الستة أشهر التي حكم فيها ، بألف وستمائة تركي ، يضاف إليهم أولئك الذين ذهبوا ضحية طمعه وجشعه ، فقد أمر باعدام أغنياء الكراغلة والحضر ليستولي على أموالهم ، وبذلك قضى على مساندة طبقة ، كان بامكانه أن يواجه بها الأتراك للمحافظة على التوازن في حكومته. وهناك أيضا تصرفات أخرى كان لها دورها في اشتداد الكراهية له والنفور منه ، فقد أرغم التجار الأغنياء والفقراء من الحضر ، وكذلك من اليهود على حمل الحجارة والكلس إلى القصبة والبحرية ، كما أمر بأن يضرب بالفلقة خمسمائة ضربة كل من بلغ العشرين من عمره ولم يتزوج ، وكان يأخذ من اليهود أطفالهم ، فيرغم أبناءهم على اعتناق الإسلام ، والقيام بالحراسة في القصبة ويرسل البنات إلى حريمه ، وقد أثارت أفعاله هذه اشمئزاز جميع المسلمين ، لأن دينهم لا يرضى باعمال من هذا النوع .

وفي أيامه استمر الطاعون في الفتك بحياة الناس ، ففي شهري أوت وسبتمبر 1817 كان يؤدي بحياة مائتي شخص يوميا من مدينة الجزائر . أما عدد الموتى في قسنطينة وعنابة ووهران فكان مرتفعا نسبيا ، وقد فقدت بعض القرى نصف سكانها .

وفي نهاية السنة أرسل الداي سفن قراصنته للقيام بحملة في عرض البحر ، فاستولى القراصنة على عدد من السفن الاسبانية والجنوية بدعوى أن أوراقها غير صحيحة واعتبروها غنيمة .

وفي نهاية فبراير أصاب الطاعون علي (خوجة) ، وبعد أيام قليلة لقي حتفه في أول مارس سنة 1818 . ومع أن علي (خوجة) قد يكون أقسى الباشاوات الذين تعاقبوا على عرش الجزائر ، فهو أول من مات ميتة طبيعية ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنه نقل محل إقامته إلى القصبة واضطهد الميليشيا التركية ، لا عن طريق إحكام الإعدام فقط ، وإنما عن طريق اسناد جميع الوظائف الى عدد كبير من

الكراغلة والحضر أيضا ، وبذلك سيطر على الأتراك سيطرة تامة وبصورة مستمرة . وقد حدث كذلك لأول مرة في هذا القرن أن الديوان تمكن من ممارسة وظيفته الاساسية باختيار داى جديد ، ووقع اختياره على خوجة الخيل .

حسين باشا

(1818 — 1830)

ويدعى الداي الجديد حسين باشا ، وبعد مبايعته ، عزل وزراء علي (خوجة) وطردهم من البلاد ، أما الحاج مصطفى ، صهر علي باشا ، فكان حسين باشا قد وعده بأنه لن يأمر باعدامه ، ثم عامله معاملة سيئة بحجة إرغامه على الكشف عن أمواله المخزونة ، فكان يضرب بالفلقة يوميا إلى أن لفظ أنفاسه في أحد الأيام .

وأعاد حسين أطفال اليهود إلى آبائهم ، وأعاد كذلك قسما من الأموال التي أخذت من الأتراك الذين كانوا قد هربوا الى المناطق الأخرى ، وفي عهده رجعت الأمور الى أوضاعها السابقة ، ولكنه فضل البقاء في القصبة ، لأن أسوارها القوية كانت أكثر حماية له من القصر الآخر الواقع في أسفل المدينة .

وكان علي باشا قد عقد الصلح مع تونس وتنازل عن الإتاوة السنوية السابقة . وعندما تولى حسين باشا الحكم وصل مبعوث من تونس ، يحمل هدايا كثيرة ، ولكن بما أن الداي رفض قبول الصلح بالشرط المذكور ، فان تشوء العلاقة الحسنة بين البلدين لم يتم . وعلى العكس من ذلك وافق الداي حسين على دفع تعويض عن الظلم الذي اقترف أيام حكم علي باشا في حق العلم السرديني ، وذلك حين وصلت في شهر ماي فرقاطتان انجليزيتان للمطالبة بدفع هذا التعويض . وطلبت اسبانيا كذلك تعويضات عن الحمولات التي أخذت وهي تحت حماية علمها ، غير أن الداى أرى الاسبان قائمة حساب ، كان على إسبانيا أن تدفعها لشركة باكرى التجارية وهكذا بقى المشكل قائما .

وعندما أشيع أن هناك محادثات تجري بين الدول الأوربية العظمى حول

مطالبة البرابرة بالغاء القرصنة ، وجه الداى في أوت مبعوثا إلى لندن رغبة منه في حماية هذه الدولة العظيمة له وكسب صداقتها .

واذا كان لم يتم أى عمل من أعمال القرصنة ، ولم توجه آية إهانة إلى القناصل ، ولم يقع أى حادث من حوادث ابتزاز الأموال بالقوة ، فإن الفضل في ذلك يعود إلى طبيعة الداى حسين الوديعة وميله الى الهدوء والسلام .

ورجع في أوت 1819 المبعوث الذي كان قد توجه إلى لندن وكان قد استقبل فيها استقبالا حسنا ، وأعيد إلى الجزائر بهدايا كثيرة ، وقد نال ما أعربت عنه انجلترا رضا الداى والديوان ، إلى أن حدث في شهر سبتمبر ما كدر سرور الجزائريين بهذا الجواب ، إذ وصلت مجموعة من السفن الانجليزية والفرنسية لتنقل إلى الداي القرارات التي اتخذتها الدول الأوربية العظمى ، وتتمثل في وضع حد للقرصنة البربرية والاجراءات التي ستتخذ لتنفيذ تلك القرارات عند الضرورة .

وقد اندهش الداي لذلك ، لأنه لم يقم منذ أن تولى الحكم بأى عمل من شأنه أن يحمل على اتخاذ قرارات من هذا النوع ، وبعد أن تدبر الأمر بضعة أيام وتشاور مع الديوان ، أخبر قادة الأسطول بقراره وهو أنه لن يقدم جوابا مكتوبا ، لأن الحلفاء أنفسهم لم يوجهوا إليه شيئا مكتوبا ، وبناء على ذلك فهو لا يعلم ما إذا كان القادة قد كلفوا حقا بنقل تلك القرارات ، ثم إنه لا يستطيع أن يفهم مما نقل اليه حقيقة الموضوع الذي يدور الحديث حوله ، وأنه قد عزم عزما صادقا على معاملة الدول الصديقة معاملة معتدلة ومنصفة كما فعل حتى الآن ، إلا أن الدولة الجزائرية لاتستطيع أن تنظر إلى دولة مسيحية ، ليست لها معاهدة مع الجزائر وليس لها قنصل يمثلها ، إلا على أساس أنها دولة معادية وأوضح أيضا أنه لا يستطيع أن يتنازل عن الحقوق القديمة التي تتمثل في مراقبة جميع السفن التجارية في البحر كيفما كانت جنسيتها ، وفحص أوراقها والاستيلاء عليها في حالة ما إذا كانت أوراقها غير صحيحة . وبذلك انتهت المفاوضات وعاد الأسطول إلى عرض البحر .

وفي شهر ماي أمر حسين سفن القرصنة وعددها خمسة بالخروج في حملة

بحرية ، وعادت في شهر يونيه وجويلية بثلاث سفن تونسية وعدد من سفن الصيد التوسكانية . وأطلق سراح الملاحين في الحين .

وكانت أعمال السلب التي أمر بها الداى السابق ، وأضرار الطاعون قد حولت قسما كبيرا من الأقاليم إلى صحراء كبيرة وقضت على الحركة التجارية والزراعية ، فلم تعد محاصيل الحبوب والزيتون تكفي لسد حاجيات البلاد ، ووصلت واردات الجزائر من المواد الغذائية والألبسة إلى مليون قرش سنويا . أما صادرات الجزائر فكانت تتمثل في الصوف والجلود والشمع ومنتوجات أخرى صغيرة ، ولكن أثمانها لم تكن تتجاوز مائتي ألف قرش ، فإذا ما أضفنا إلى هدايا الدول الأروبية ما تدفعه فرنسا في مقابل امتيازاتها التجارية ومراكز صيد المرجان ، فإن الجزائر قد خسرت حوالي نصف مليون قرش سنويا كانت تستلمه من الخارج .

وكانت خزانة الدولة أيضا في حالة سيئة فقد ضوعفت أجور الميليشيات ووصلت مصاريف الدولة إلى مليون بيسوس دوروس في حين أن المداخيل كانت في حدود خمسمائة ألف بيسوس دوروس ، وكانت تتم على الصورة التالية :

كانت ترسل في ربيع كل سنة فرقة من الخيالة التركية والحضرية إلى كل إقليم من أقاليم الجزائر ، فيتولى قيادتها باي المقاطعة ، ويقوم بحملة في منطقته يجمع الضرائب ، ومعاقبة العصاة والقضاء على الثوار ولم تكن هذه الإجراءات تتم في لين ورفق ، بل كانت مثل هذه الحملات تتم بالسلب والنهب ، وبهذه الطريقة كان الباي ينال رضا حكومة الجزائر الكامل ، لأنها حينئذ لم تكن تخشى أن يتمكن باي المنطقة من تكوين حزب له في ولايته والحال أنه يمارس ضد رعاياه أمثال هذه الأعمال القاسية الشنيعة ، ولأن الداي كان على يقين من أنه سيقتسم الغنائم معه .

في بداية هذا القرن بلغت الضرائب التي أخذت من الأرياف حوالي 350 ألف قرش ، استقرت كلها في الخزينة ، وانضمت إليها كذلك مداخيل المكوس ، والإتاوات وهدايا الصلح المقدمة من طرف الدولة الأروبية والضرائب المأخوذة من

الأهالي ، ولكن أحسن مورد بالنسبة للدولة كان حتى سنة 1816 يتمثل في أعمال القرصنة ، وكانت المبالغ تختلف باختلاف الظروف .

أما موارد الداي الخاصة فكانت تتكون من الهدايا الكثيرة التي تصله من كل جهة ومن عمليات ابتزاز الأموال التي كانت تتم على أيدي البايات والقواد وغيرهم من رجال الدولة . وكانت الخزانة تعتبر ، منذ أن نشأت الدولة التركية في الجزائر ، شيئا مقدسا ، يجب أن يكبر باستمرار وألا تمتد إليه يد إلا عند الضرورة .

الفصل السابع

موريتس فاغنر

فاغنر عالم طبيعي ورحال الماني (1813 ــ 1887) ظهرت مواهبه وهو لم يتجاوز بعد الخامسة عشرة من عمره ، فنظم اشعارا وكتب مقالات وقصصا وكان الى ذلك يبدي منذ طفولته ميلا لمراقبة الحيوانات والنباتات ، فأشار عليه أخوه رودولف ، الذي كان يشغل منصب استاذ في جامعة ارلانغن ، بأن يعمق معلوماته في علم الحيوان . والتحق بوظيفة تجارية في مدينة مارسيليا ، مكنته من القيام بزيارة قصيرة للجزائر سنة 1835 ، فحملته هذه الزيارة القصيرة على العودة اليها عام 1836 كمراقب وجامع للاشياء الطبيعية ، فحل بها في شهر اكتوبر من السنة المذكورة . وقد حمل معه توصيات من باريس أتاحت له على الخصوص الاتصال بأدريان بيربرجر وتوثيق علاقته به ، كما سمح له دامريمون بالانضمام الى اللجنة العلمية التي كلفت باعداد بحوث عن الجزائر ، فشارك في حملة قسنطينة والبليدة ورغاية . وبعد توقيع الهدنة زار مدينة معسكر تحت حماية الأمير عبد القادر . ولما ترك الجزائر قام برحلات في بلدان أوربا وآسيا وامريكا الشمالية والجنوبية ، ثم استقر أخيرا بمدينة مونشن ، حيث أنتخب عضوا في المجمع العلمي ، وتفرغ لدراسة نظرية داروين في النشوء والارتقاء وساعد على فهمها اكثر من أي عالم آخر باستثناء ارنست هيكل (1834 ــ 1919) ، وحور

عبارة داروين البقاء للأصلاح فجعل منها البقاء للاصغر والأقوى ! ولما تقدمت به السن وعجز عن العمل وضع حدا لحياته !

وضع موريتس فاغنر كتابا عن الجزائر بعنوان «رحلات في ولاية الجزائر في سنوات 1836 ، 1837 و 1838» ، صدر في مدينة لايبتسيغ سنة 1841 . ويتكون كتابه من ثلاثة أجزاء ، وصف في الاول مدينة الجزائر والمدن الأخرى التي شاهدها ، وتحدث في الثالث عن تاريخ الاحتلال والمعارك التي حضرها ، أما الجزء اما الثاني فقد خص به الفونة أو المجموعة الحيوانية الجزائرية ، وضع هذا الجزء بمشاركة أخيه رودولف .

ينتقد المؤلف في مقدمة كتابه الرحالين الذين سبقوه ، فيقول عن كامبل انه نجح كشاعر ولكنه لم ينجح كرحالة ، فما يجده الانسان في رسائله لا يزيد عن انطباعات السواح العادية زد على ذلك أن اقامته في الجزائر كانت قصيرة جدا ، فهو لم يبق مثلا اكثر من ساعة واحدة في مدينة معسكر وعاد بسرعة الى وهران ، وهو سعيد لان في امكانه ان يقول للقراء الانجليز بأنه قد زار عاصمة الأمير ! ويرى فاغنر أن «سيميلسو» أكثر سطحية منه ، ذلك أن مؤلفه الأمير بوكلر ـــ موسكاو يمتاز بذكائه ودقة ملاحظته وظرافه نكتته ، ولكنه كرجل الصالونات لم يكن يصلح للاقامة بين الجزائريين ولا كانت لديه القدرة على فهم حياتهم ووصفها كما ينبغي . (ص 1/19) .

والحقيقة ان فاغنر مصيب في هذا الى حد بعيد ، فكتاب بوكلر ـــ موسكاو «سيميلسو في افريقيا» لا يحتوي على الكثير مما هو جدير بالاعتبار ، وتجاربه في الجزائر ليست ذات أهمية من الناحية التاريخية ، فأكثر ما كان يهمه هو تنوع المناظر الطبيعية التي رآها في جوانب من الساحل الجزائري ، لاسيما منطقة ما بين الجزائر وعنابة . ومن هنا أسهب في وصفها ، أما فيما عدا ذلك فانه يكتفي بالتعليق على هذه الحادثة أو تلك ، وينقل بين الحين والآخر الرسائل التي كان المحاربون الجزائريون يوجهونها إلى الجنرال الفرنسي بوهران أو إلى الوالي العام بالجزائر . ومن جملة هذه الرسائل الرسالة التي أرسلها الأمير عبد القادر إلى حاكم

وهران ، وانكر عليه فيها تهديده اياه باعلان الحرب عليه أن هو لم يعمل على تطبيق شروط المعاهدة . وفيها يخبر الأمير الجنرال المغرور ان البدوي لا صنعة له غير الحرب وانه في انتظار مرتزقته في أي وقت كان .. وخيوله نفسها تحمحم تشوقا للحرب والنزال !

وبعد هذا يتحدث بوكلر موسكاو عن قبول الجزائريين لكل أنواع التحدي وعدم الرضا بالهون ويقول عنهم ان اسلوبهم في المجابهة يفيض عزما وقوة ويضرب مثلا على ذلك جواب قبيلة كانت تسكن في نواحي دلس على رسالة بعث بها اليها الوالي العام .. يهددها فيها بسبب اعتقالها لجنود غرقت سفينتهم قرب الشاطئ . وقد جاء في هذا الجواب : «الى حاكم الجزائر الذي يحكم أبعد مما هو في حوزته ، أعلم أن احرار دلس هم أسياد أنفسهم !» ثم ينقل بوكلر — موسكاو عن صديقه كليميرات الذي شاهد الامير قوله : «ان الانطباع الذي تركه الأمير في نفسي هو انطباع سياسي أروبي حاذق لبق أكثر منه انطباع محارب عربي مخيف !» وكان بوكلر — موسكاو قد نشر كتابه سنة 1836 ، وروى في الجزء الثاني كيف تعلم اللغة العربية عند مثقف مصري يدعي فرعون ، كان قد شارك في حملة اسماعيل ضد الوهابيين ، ثم أرسله الباشا مع عدد من المصريين الى باريس ، ومنها ذهب الى الجزائر واصبح مترجم الحاكم العام وأستاذ اللغة العربية في إحدى المدارس . ولنكتف بهذا القدر عن بوكلر — موسكاو لقلة أهميته ، كما ذكرت ، ولذلك لم أتعرض له على حدة ، ونرجع الى فاغنر .

ويصف فاغنر اقامة روزيه بانها كانت قصيرة ايضا واقتصرت على الجزائر والبليدة والمدية ووهران ، بينما اهتم ميلتينس بوصف الجزائر ولم يتجاوزها الى سواها ، ويثني على شيمبر ويتأسف لأن وصفه اقتصر أيضا على الجزائر وضواحيها . ولعله من الجدير بنا أن نذكر هنا ان فاغنر قد أهدى كتابه إلى ولي العهد الفرنسي ، وذلك ما قد يحمل القارىء على الاعتقاد بان المؤلف يتعصب لفرنسا ، ولكن احد العسكريين الألمان وهو كارل دبكر ، يدافع عنه بأن مواصلة القراءة لا تلبث أن تقنعه بخلاف ذلك .. ويعتبره أحسن كتاب الماني وضع عن الجزائر حتى سنة صدور كتابه هو سنة 1844 . والواقع أن كتاب فاغنر لا يخلو

من التعصب ، فقد صبغ عباراته بصبغة الفرنسيين الذين كانت له بهم علاقة وطيدة ، فنمت عن حقده على الجزائريين ووصفهم بالهمجية في غير ما موضع ، على الرغم من أنه زار مناطق عربية مستقلة وساعده رجال الأمير على اداء مهمته ، وعلى الخصوص حاكم معسكر الحاج بخاري . وكان قد اخذ رسالتين احداهما من الجنرال فالي والاخرى من بيليسي ، مدير المكتب العربي ، ذكرا فيهما أنه طبيب يرغب في البحث عن النباتات الطبية في منطقة وهران الداخلية ، ولكن فاغنر يعترف بأن هذه الحيل لم تعد تفيد ، فالعرب يرون في كل أروبي جاسوسا لفرنسا ، بعد أن سافر كثير منهم تحت هذا الستار لاستكشاف منطقة الأمير ووضع خرائط عنها . ومع هذا فهو يأخذ على الجزائريين أنهم لا يثقون في احد ومن ثم فان على كل انسان أن يكون حذرا منهم الحذر كله ، ويصف مرافقيه وصفا مزريا .. وشعر بالخوف من احدهم وهو يؤدي فريضة الصلاة . وهذا لا يعني أنه من جهة أخرى راض عن كل ما قام به المعتدون ، كما سنرى فيما بعد .

ويبدأ المؤلف كتابه بوصف ميناء الجزائر والحديث عن العاصفة التي حطمت قبل سنة ثلاثين سفينة فامتلات شبه الجزيرة ، على حد تعبيره ، بالبضائع والانقاض . ويذكر أن وصول السفن الى ميناء الجزائر يعتبر عيدا بالنسبة لأهل البلاد ، فهم يكسبون في اليوم الواحد ما يكفيهم لعدة أيام ، وذلك لان ما بين الاسبان وبينهم من عداوة وتنافر قد اجبرهم على أن يتقاسموا العمل معهم ويشتغلوا يوما دون آخر . وكانت الباخرة لا تصل الى الجزائر الا مرة في الاسبوع ، ويتكون العمال الجزائريون من العرب والزنوج والبسكريين ، وقد دأب الألمان على الحديث عن الاخيرين بصورة خاصة . ومن ثم يشير المؤلف الى أن الثياب الرثة ليست دائما ثياب الدراويش ، كما ان الطعام القليل ليس دليلا على الفقر والعوز . فهناك من البسكريين من يحمل تحت ثيابه خمسين دولارا اسبانيا ويشد عليها كما يشد على أمعائه ، ومع هذا فان روائح المطاعم الفرنسية الطيبة لا تثير شهيته باي حال من الأحوال ، وانما يكتفي بالخبز الرديء يأكله مع التين أو التفاح ، ويتناول طعامه في قاعة اكله تحت النجوم الجميلة ، وهي في الوقت نفسه بهوه وغرفة نومه ! (30/1 — 32) .

ويصف الاشياء التي كانت تعرض في السوق بساحة الحكومة ويقول ان هناك من المبيعات ما هو مقصور على البعض دون الآخر ، فالاسبان يبيعون الورود والأزهار والمالطيون الاسماك والخضر والبرتقال والعرب الطيور والحيوانات البرية ، وكانت الارقام مكتوبة بالفرنسية ، وكان النطق بها أقرب الى الاسبانية منه الى الايطالية ، وتحدث عن حيوانات غريبة شاهدها تباع في السوق . (34/1 — 35) ويذكر بعد ذلك أن كلمة «الجزائر» تعني «الغازية» وهذا الاسم يوحي بالبطولة والقوة ! وحين يسأل المرء أهل البلاد لماذا دعيت الجزائر بالغازية ، يجيبون «لأنها اخضعت المسيحيين !» (ص 36) . وتحدد سكانها عند منتصف سنة 1839 ب 28 الفا باستثناء الجيش الفرنسي ، 9 آلاف من الحضر و 6 آلاف من اليهود و 5 الآف من «أجناس مختلفة من اهل البلاد» و 8 الآف من الاروبيين ، ولكنه يعترف بان هذه الاحصاءات ليست دقيقة ! فعدد الأروبيين غير معروف بالضبط ، لأن الكثير منهم لم يسجل اسمه خوفا من التجنيد . وكان الرحالة القدامى ، امثال شو ، بنانتي وشالر ، قد قدروا سكانها بعدد مرتفع ، فجعلهم شو 100 الف وبانتي 60 الفا ، وكانت هذه التقديرات اعتباطية ، فالحكومة الجزائرية لم يكن لها أي نوع من السجلات ، ويقدر عدد المهاجرين الجزائريين حوالي 15 ألفا ، وحل محلهم حوالي نصف هذا العدد من الاروبيين . (37/1)

وبعد أن يتحدث عن الحيين العربي والاروبي ويصف شوارعهما وأزقتهما يذكر البناية التي تحتضن المدرسة والمكتبة ، ويدير هذه آدريان بيربرجر ، وفي المدرسة يتعلم الكثير من أبناء الأمم المتخلفة العربية والفرنسية . أما المكتبة فتحتوي على حوالي 600 كتاب ، منها كتاب معروف عن مصر ومخطوطات عربية أخرى نفيسة استولى عليها الفرنسيون في دار ابن عيسى بقسنطينة وفي مساجد أخرى من المدينة نفسها ! (ص 47/1 — 48)

ويؤكد فاغنر ما ذكره شيمبر من أن الحكومة الفرنسية قد هدمت الكثير من المساجد اما لتوسيع الشوارع أو لاقامة بنايات جديدة في محلها ، وقد لقي المسجد ، الذي كان قديما يحتل مكان السوق الآن ، نفس المصير ، ونقلت

اعمدته المرمرية الى أماكن أخرى ، وقد كان هذا المسجد أفخر جامع بالجزائر . وهناك مساجد أخرى فقدت وظيفتها القديمة ، فأصبح مسجد مسرحا وآخر مخزنا للتبن وثالث ثكنة . ويعلق فاغنر على هذا بقوله : «هكذا اعتدت فرنسا على حرمات المسلمين ، وذلك ما لن يغفره لها الجزائريون ولن ينسوه أبدا !» (ص 48 ــ 49) ويشير كذلك الى أن عدد المدارس قبل دخول الفرنسيين كان مرتفعا ، فقد بلغ حوالي 100 مدرسة ، لم يبق منها اليوم سوى النصف تقريبا ، يذكر مواد الدراسة ويصف علاقة الاستاذ بطلابه والثقة التي تسود هذه العلاقة وبقاءها حتى بعد انتهاء الطالب من دراسته . (56/3)

وينتقل المؤلف الى الحديث عن المحكمة العليا ، ويذكر أنها كانت تتألف من خمسة قضاة ، من بينهم يهودي ومسلم ، ثم صار عددهم لا يتجاوز اثنين يضاف اليهما رئيس له صوت واحد ، وكان القاضي هو الذي يفصل بين الاهالي ، وكانت المرافعات تستمر احيانا حتى ساعة متأخرة من الليل .. ولم تكن تخلو من مهازل بسبب الخطأ في الترجمة ! (58/1) أما المحكمة العسكرية فكانت تقع قرب باب عزون ، وكانت تجتمع باستمرار للنظر في الجرائم التي يرتكبها جنود الجيش الافريقي ، وتتمثل في بيع الاسلحة والذخيرة . واحكام الاعدام لم تكن قليلة ، وخصوصا في أيام روفيقو ، حيث كان الاعدام ينفذ في كل أسبوع . ويتعرض لقضية مونصل التي اثارت اهتمام الرأي العام في ذلك الحين ، وتتبع الجزائريون أخبار محاكمته برئاسة الالزاسي شاونبورغ بعناية خاصة ، لأن مونصل كان مسلما مثلهم . وكان قد فر من الجيش الفرنسي بعد اهانة الحقها به رئيسه ، وانضم الى الحجوطيين وتزوج منهم وأصبح شيخ دوار ، وقد أعجب الأمير عبد القادر بشجاعته ومنحه ثقته ، حتى أنه وجهه رسولا الى سلطان المغرب . (60/1)

وبعد أن تمكن مونصل من الانتقام من الضابط الذي أهانه وركله ، ألقي عليه القبض في سوق الاربعاء بمنطقة سيدي موسى ، وذلك بواسطة أحد ضباط المكتب العربي . وقد مثل أمام المحكمة في ثياب عربية ، فكان كما يقول فاغنر أشبه بالمرابط منه بالمجرم . وعندما تكلم سحر الجنود بالفاظه الجميلة فطالبوا

بالعفو عنه ، ولكن القاضي لم يستجب لهذا الطلب ، فحكم عليه بالاعدام وأعدم أمام مدخل باب الواد . فأقسمت قبيلة حجوط بأن تثأر له ، وقد وفت بذلك ، فجميع الاعمال الحربية والمناوشات التي حالت دون توقيع معاهدة تافنة وتجددت منذ نهاية سنة 1937 انما كانت انتقاما لمونصل ، فلم يغفروا ذلك للجنرال دامريمون كما لم يغفروا لروفيقو قتل العربي بن موسى . (61/1 — 62) وبعد هذا يتحدث فاغنر عن محكمة القاضي المالكي والقاضي الحنفي قرب باب الواد ويذكر أن منصب القاضي كان يشغله في سنتي 37 — 1838 سيدي أحمد بن جدو (63/1) .

وأسواق الجزائر ، في نظر المؤلف ، لا تشبه لا أسواق بغداد ولا أسواق مدينة القسطنطينية ، فقد قضى الفرنسيون على الاسواق الجميلة وأقاموا مكانها دكاكين ومخازن أروبية . أما محلات العرب فهي صغيرة جدا ، وأغلب اصحابها من الكراغلة ، وتباع فيها البلغ ومحافظ النقود وغير ذلك ، وتتكون البضائع على الاكثر من العطور مثل الورد والياسمين والمصنوعات الحريرية ، وهي جميلة الى حد بعيد على الرغم من أنها مصنوعة يدويا . (67/1) وتتناثر المقاهي بين هذه المحلات ، حيث يوجد منها في الحي العربي وحده حوالي 60 مقهى ، يتعلم الاجنبي فيها مختلف المصطلحات الجزائرية . وأحسن مقهى عربي ، يكثر فيه الرواد ، يقع في شارع الديوان ، ويزوره عدد كبير من الاروبيين لجودة القهوة فيه ولوجود الموسيقى . ويدير الفرقة عربي ، كان في القديم موسيقار الداي الخاص ، ويمتاز بالمهارة في العزف والقيام في أثناء ذلك بحركات غريبة جدا تجلب أنظار الناس اليه ، وفي بعض الأحيان تظهر في نفس المقهى فتيات ليرقصن ويغنين .

وصاحب المقهى هو أخو ابراهيم شاوش ، أو جلاد الجزائر ، وله ثروة كبيرة . أما المقاهي في القسم الاعلى من المدينة فان المشاهد فيها أكثر اصالة وجنونا ، ففيه يوجد المقهى اليوناني وصاحبه ذو مقدرة كبيرة على اجتذاب الناس اليه بأرخص الوسائل . فكانت تجتمع في مقهاه حثالات البشر من كل جنس من غير تمييز عنصريا كان أو دينيا ، فكان فيهم المسلم والمسيحي واليهودي والأروبي والافريقي . وفي هذا المقهى تختلط أصوات السكارى رجالا ونساء باصوات الآلات الموسيقية بشكل غريب ! (71/1 — 72)

ويشير فاغنر الى ان هناك حفلات خاصة تقام في اوقات معينة ، ففي أيام رمضان مثلا تقام حفلات القرقوز ، يحضرها العرب والأوربيون على حد سواء والقرقوز شخصية بدوية تمتاز بكبر الحجم والنكتة اللاذعة والهيأة المضحكة . وتتمثل وظيفة القرقوز في شيء واحد هو أن يضارب الجنود الفرنسيين من بداية المسرحية حتى نهايتها . وكان صاحب المسرح احد المترجمين ، ولذلك كان يخلط العربية بالفرنسية بصورة غريبة بقصد تسلية المشاهدين من الأوربيين . وكان وجود الجنود الفرنسيين في مسرح القرقوز لهذا الغرض أيضا ، حسب ما يراه المؤلف ، ولكن الواقع كان خلاف ذلك ، فمصارعة القرقوز للجنود الفرنسيين كانت تمثل في الحقيقة مقاومة الأرياف للوجود الأجنبي ، ويكفي دليلا على هذا أن الحكومة الاستعمارية لجأت في سنة 1843 الى منع اقامة حفلات من هذا النوع ، لا غرض منها سوى الاستهزاء بها والسخرية من جنودها . ولعل من بين أغراضها ايضا ما ذكره المؤلف (80/1) من ان العرب كانوا يحرصون على ارسال ابنائهم الى مشاهدة مسرحيات القرقوز !

ويصف فاغنر شابا عربيا أعدم بباب عزون في 20 يناير 1837 ، وقد جعلت ساحة الاعدام في المكان المذكور بقصد اثارة الرعب في نفوس المواطنين الذين كانوا يجتمعون في السوق . وكان قد وجهت اليه تهمة التجارة بالبارود والثورة ضد الحكومة . فتقدم الشاب ، وكان قد تزوج حديثا ، الى المقصلة ، منتصب القامة ، مرفوع الرأس ، لم يكن في خطاه ما يدل على أنه خائف ، والقى نظرة متحدية على الشاوش ابراهيم . ولما انتهى الترجمان من قراءة الحكم الصادر فيه ، أقسم الشاب انه بريء ، ثم توجه الى القبلة وأحنى رأسه ، وصعد بعد ذلك بخطى ثابتة .. صعود الباشا للجلوس على العرش الذي أعد له . وتم أعدامه بثلاث ضربات حسب الطريقة الجزائرية ، وكان الفرنسيون قد احتفظوا بها . (92/1 ـ 93)

ويرى فاغنر أن دناءة الفرنسيين تجلت بوضوح في فتح القبور والاضرحة الجميلة بحثا عن الاموال ونقل حجارتها الى أمكنة أخرى ، وأفظع من هذا ان

الفرنسيين أخذوا عظام الموتى وحملوها بالسفن الى فرنسا ليبيعها لمعامل مسحوق العظام ، ومسؤولية هذه الاعمال البغيضة تقع على عاتق روفيقو ، فقد دفعه حقده على المسلمين الى جرح مشاعرهم الدينية ، حتى أنه استعمل لهذا الغرض عددا من الجزائريين من قبائل وبسكريين ، وأرغمهم على فتح القبور وتحطيم اخوانهم في الدين ، وفيهم الأب والاخ والقريب . وبما أن عمليات الاعدام كانت تتم يوميا تقريبا ، فان الخوف كان قد تمكن منهم وشل أيديهم وألسنتهم ، فلم يجدوا الجرأة على الاحتجاج على هدم قبور أوليائهم وذويهم ، وهكذا شهدوا هذه المناظر برؤوس مطرقة ووجوه عابسة . الا أن هذا كله لم يمنع البعض منهم من جمع تلك العظام بعناية ودفنها في مكان آخر . وقد تحدث عن ذلك كل من الجزائريين والفرنسيين بصورة علنية ، وان حاولت الجهات المسؤولة تكذيب ذلك ! ويضيف فاغنر أن جميع من كتبوا عن الجزائر قد احتجوا على هذه الأعمال الوحشية التي شملت حتى قداسة الاضرحة ، مما ادى الى حدوث استياء عام بين الأوساط الخاصة ، لأن انعدام حرية الصحافة في فرنسا قد حال دون وصول مثل هذه الجرائم الى آذان الشعب هناك . (96/1 — 97)

وبعد هذا يثني المؤلف على عزة العربي وأنفته واحتفاظه بقامته المنتصبة حتى في أحرج الظروف ! ويضرب المثل على ذلك بالجزائريين الذين تم أسرهم قرب البليدة في شهر ماي 1837 ، فعندما مروا أمام الجنرال دامريمون كانوا مرفوعي الرأس ، واضحي النظرة ، وكانوا يجيبون على اسئلته في أنفة وكبرياء . ثم يقول ان مفهوم الحرية عند الجزائريين لا يصل الى الحد الذي تصبح فيه الفوضى عملا مباحا والجريمة شيئا لا يتطلب العقاب . فالقبائل لم تكن لتلتف حول الأمير عبد القادر لو أنه لم يقض على الفوضى التي عمت الجزائر بعد سقوط الحكم التركي . فحين احتل الفرنسيون الجزائر لم يكن يهمهم ما كان يحدث في داخل البلاد ، وقد حملت فرحة الخلاص من نير الاتراك العرب على ارتكاب عدة أعمال كريهة ، ولما تكررت هذه الاحداث من الجانبين ، واصبحوا مرة سراقا وأخرى مسروقين ، ضجروا من هذه الاوضاع ولجأوا الى رؤسائهم لاعادة أمورهم الى مجاريها الطبيعية ، وعلى هذه الصورة انتشرت رقعة سيادة الأمير عبد القادر وتمت له الغلبة ! (25/1 ، 41/2)

ويلي هذا حديث المؤلف عن الأحداث العسكرية في الغرب الجزائري ، ويبدو أنه قد استقى أغلبها من حوليات بيليسي ، وقد كان صديقه الذي حمله رسالة الى رجال الأمير كما سبق القول . ويذكر الخراب والدمار الذين الحقهما جنود فرنسا بمختلف مناطق الجزائر ، ويشنع بأعمال هؤلاء الجنود في قالمة حيث حطموا جدرانها القائمة وفتحوا المقاهي والنكاكين ، ويتعجب كيف استطاع هذا الشعب الفرنسي أن يتعدى على قداسة الآثار القديمة على الرغم من دوران كلمة المدنية على فمه ، ويورد ما وصف به شاعر الماني الفرنسيين من اتهم فنذال ! ويقول : ان هذه الحرب انما هي حرب ضد الاحياء والاموات ، وسخرية من تراب الاجداد بقدر ما هي سخرية من المجد والتاريخ والعلم ، فقد حطم الجنود أعمدة المعبد المرمرية لمجرد أنها كانت تقوم وسط الطريق المؤدي الى الخمارة ، ونزعوا عنها ما كان فوقها من نقوش ، لأن الحجارة الملساء انسب للبلاط ! ويعلن غضبه على تدمير الوثائق الوحيدة التي تتحدث عن ماضي قالمة ... والشهود الناطقة بمجدها وحضارتها . ويثور فاغنر على قطع الاشجار أيضا ، فان ذلك في نظره ، بمثابة قتل المرضعة ، فهي تحمل في اعماقها ما يسد به المدمر الأحمق رمقه في المستقبل ! (95/1) .

ويبلغ الغضب بالمؤلف مبلغا كبيرا ، جعله يتمنى لو أن الضباع ، ويسميها حارسة الآثار القديمة ، انطلقت من مقامها الجليل لتمزق الدخلاء على حرمها أشلاء ، ويتساءل لماذا لا ينهد الجبل الراسخ مرة اخرى ويقضي على الطغاة ، كما حدث في وقت سابق ! ويرى المؤلف بعد هذا أن تشبيه الجنود وأصحاب الخمارات الفرنسيين بالفندال غير مناسب ، لأنه لم يسبق لا للفندال ولا للشرقيين أن تعرضوا للآثار القديمة بالتخريب والهدم .. احتراما منهم لبقية الديانات الاخرى ! وقد اصطحب فاغنر معه أدريان بيربرجر وذهب يشكو الى قائد الجيش الفرنسي دوفيفي ، ولكن القائد لم يزد ، على حد تعبير فاغنر ، على أن مسح لحيته بيده ، وراح يشكو بدوره من رغبة الجنود في الهدم وعدم طاعتهم وأنه لا يرى حلا لهذه المشكلة .. ثم اخذ يدافع عن الجنود وعن الانانية التي غرستها في نفوسهم صعوبة الحياة في الجزائر وظروف الحرب ! ويعلق فاغنر على موقف دوفيفي هذا

بأنه ينتظر من وراء ذلك أن ينال ترقية في وزارة الحربية ! (1/ 298)

ويتناول المؤلف في حوالي 80 صفحة (3/261 ــ 338) حملة قسنطينة التي شارك فيها بنفسه ضمن أعضاء البعثة العلمية ، ويصفها بصورة مفصلة ، وكان قد نشر هذا الوصف في احدى الجرائد الالمانية سنة 1837 ، ويقول انه كتب قسما منه في الخيمة . فيتحدث عن معسكر مجاز عمار والقوات الفرنسية التي كانت موجودة فيه ، ويصف الشخصيات العسكرية المختلفة ومن انضم الى جيش العدو مثل ابن زكري والحاج سليمان ، ومرور القوات برأس العقبة ثم الوصول الى قسنطينة وضرب المعسكر في المنصورة واطلاق نيران المدافع على المدينة واشتباكات الخيالة التي سبقتها وبالتالي الهجوم عليها من جهة الكدية .. كما يشير الى زغردة النساء التي كانت تنطلق من فوق السطوح ! وبعد أن سكتت مدافع الجزائريين ظن داميمون انهم سيخرجون اليه طالبين الصلح ، ولكنه ، فيما يقول فاغنر ، شعر بالخيبة حين لم يظهر رسول من اجل ذلك ، فالجزائريون لم يكونوا على استعداد للتسليم ولو هدمت المدينة كلها ! ويذكر أن رسولا أرسل يوم 12 أكتوبر 1837 الى المدينة ، وهو من فرقة الزواوة ، فقبض عليه السكان الى أن ملأوا الثغرة التي أحدثتها القنابل في الجدار ، ثم اطلقوا سراحه ليقول لمرسليه : «ان في قسنطينة كثيرا من المؤن والذخائر ، واذا كان الفرنسيون في حاجة الى شيء منها فان في استطاعتنا أن نزودهم بما يريدون ! أما الاستسلام فاننا لا نعرف معناه وسنصمد في الدفاع عن مدينتنا ودورنا . انها لن تسقط في ايديكم ما دام مدافع حيا يرزق !» وبعد أن سمع داميمون هذا الجواب قال : «انهم رجال شجعان فليكن ذلك اذن ! ان المعركة ستكون بالنسبة لنا أمجد ! (3/309) »

وقد كانت المعركة بالنسبة اليه على الأقل كما قال ، اذا اصابته رصاصة قاتلة ، فاسرع اليه بريقو فلقى نفس المصير . ولما تم للجنود الفرنسيين الوصول الى الثغرة والدخول منها سقط بيت فوق رؤوسهم فقتل كثيرا منهم وعقب ذلك انفجر مخزن للذخيرة فقضى على عدد آخر ، وحين تقدمت فرقة ثانية بقيادة كومب أصيب هو الآخر ولقي مصرعه بعد أيام ، وذلك لأن المدافعين كانوا قد

تحصنوا خلف متاريس تكونت بنفسها من الجثث والأنقاض وراحوا يتصيدون المهاجمين من كل اتجاه ، واخيرا وجدوا أنفسهم مغلوبين على أمرهم فانسحبوا الى بيت ابن عيسى ، ومن هناك واصلوا مقاومتهم ثم فر بعضهم الى الجبال ومات البعض الآخر وأسلحتهم في ايديهم . ومن بينهم وصيفة كان باحدى يديها مسدس وبالأخرى سكين ! (316/3 ــ 18)

ويذكر فاغنر انه التقى عند الثغرة بالنقيب لوفيان فسأله : «كيف دافع القسنطيون عن أنفسهم ؟» فاجابه : «كالشياطين لحما ودما !» (320/2) ثم يقدم وصفا للشوارع وما تراكم فوقها من قتلى وكيف جمع الموت بين الفرنسي والجزائري فتعانقا بعد أن قتل أحدهما الآخر . ومما يأخذ على فاغنر أنه لم يعف حتى الموتى من سخريته ولم يستطع أن ينسى عنصريته الأروبية أمام الأجسام الهامدة ، بحيث يبدو أن انسانيته مقصورة على الآثار القديمة والأضرحة الفاخرة وعظام الموتى ! فالجنود الفرنسيون الموتى كانوا يبدون له كالنائمين وقد ارتسم على وجوههم هدوء بطولي ، وهذا في الوقت الذي يرى فيه وجوه جثث الجزائريين الملطخة بالدم قد تقلصت عضلاتها الى أبعد حد ، ويتصور أن العصبية تبتسم في ملامح شيخ أبيض اللحية وتحتل لذة الانتصار مكانا فيها ، وكان قد لمح هذا الشيخ جالسا في زاوية أحد البيوت ، وقد رفع احدى يديه نحو السماء وشد بالأخرى على مسدس وفتح عينه وفمه ، مما جعله يظن أنه يستغيث بأحد ، ولكنه عندما وصل اليه وجده جثة هامدة ! وكان منظر تلك الجثث يوحي لفاغنر بالخوف من انها قد تتحرك في منتصف الليل لتواصل المعركة من جديد ! (321/3)

ويقول فاغنر ان المدينة قد نهبت لمدة ثلاثة أيام متتالية ، وعرضت للبيع غنائم مختلفة من زرابي وبرانس وأسلحة ومواد غذائية وكتب عربية وغيرها (322/3) ، وقد فاز اليهود ، الذين كانوا يقبلون أيدي الغزاة ويساعدونهم على النهب بأجمل الغنائم ، وذلك بحكم معرفتهم لمحلات المسلمين وما تحتوي عليه من نفائس وتحف . (326/3) وقد حدث هذا بعد أن هرب الكثير من المواطنين الى وادي الرمل ، نزلوا اليه بحبال ربطوها بالصخور ، ولكن الحبال تقطعت بهم من

كثيرة من تعلق بها منهم ، فوصلوا الى اعماقه موتى أو بأعضاء مكسرة ، وانتهى هناك ما يزيد عن خمسمائة شخص . (327/3) كانت طلقات البنادق تلاحقهم أينما اتجهوا في هلعهم ذاك ، فبقيت جثتهم نصف معلقة فوق نواتىء الصخور . وفوق ناتئة منها جلست امرأة كسرت رجلها وبحضنها طفل في الرابعة من عمره ، لم يصب بأي أذى ، فحاول كل من فاغنر وصديقه مورالت الوصول اليها ومساعدتها ، ولكن دون جدوى لصعوبة النزول الى تلك الناتئة . ويثني فاغنر على صديقه الذي بذل كل ما في وسعه لانقاذ المسكينة وطفلها ، حيث وضع مكافأة مالية للجنود الفرنسيين الذين يتمكنون من انقاذها ، فاجتمع اليه في الحين كثير منهم ، واستطاع زواوي أن يصل الى ذلك الموضع الخطير غير أن المرأة رفضت أن تستلم أية مساعدة من المسيحيين ، واعربت عن رغبتها في ان تموت هناك هي وطفلها ، واكتفت بطلب جرة الماء ! ولما أنزلت اليها بحبل ، سقت طفلها ثم شربت هي ، ودحرجت الجرة الى أعماق الوادي ! ويضيف المؤلف أنه لا يعرف ماذا حدث للمرأة بعد ذلك ، فعندما عاد الى نفس المكان في اليوم الثاني وجدها قد اختفت مع طفلها . (328/3) وبعد هذا يصف فاغنر حريم باي قسنطينة والحفلة الراقصة التي اقامتها للغزاة الجميلة عائشة ، على حد وصفه لها ، والأسود المقيدة وحارسها الألماني فندلين شلوصر ، ثم يذكر الأشياء التي عثر عليها في دار ابن عيسى زواوي فأصبح ثريا وطلب اعفاءه من الجندية ، وتزوج وأقام في قسنطينة . (330/3) وفي هذه الدار التقى فاغنر بأفراد البعثة العلمية وكان بيربروجر في ذلك الحين يحاول شراء ما وجده عند الجنود من مخطوطات نفيسة ، من بينها «كتاب القضاة» و «تاريخ مدينة قسنطينة» . ويقول فاغنر ان اغلب هذه الكتب قد ضاعت في الطريق الى عنابة ، لان الجنود لم يكونوا يعرفون قيمتها ، ولذلك تركوا على الطريق عدة صناديق ! ويرى المؤلف أن من واجبه أن يعترض على السلب والنهب التي تعرضت له الكتب العربية ، مهما كانت الأعذار التي برر بها الفرنسيون أعمالهم ، فقد ذكره ذلك بفترة حرب غير بعيدة لاقت فيها بعض كتب شيلر على يد الفرنسيين أنفسهم نفس المصير ! فالكتب في الجزائر قليلة جدا ، كما يقول ، ولذلك فهي نفيسة بالنسبة للسكان ،

ونادرا ما تمتلك الأسرة العربية أكثر من كتاب واحد . ويعتقد أن الاربعمائة أو الخمسمائة كتاب ، التي أرسلت الى مكتبة الجزائر لخزنها في قاعاتها المغبرة ، كان المفروض فيها لهذا السبب أن تبقى في أيدي أصحابها ، أما وقد حدث خلاف ذلك فان هناك كثيرا من الأسر العربية قد حرمت من العلم ومتعة القراءة (331/3) !

وبالاضافة إلى هذه الحقائق التي ذكرها فاغنر ، وإن لم تكن مقصودة لذاتها ، فقد أورد في نهاية الجزء الثالث من كتابه ترجمة مختصرة لكل من الأمير عبد القادر وأحمد باي ، وفرحات بن سعيد ، وبوعزيز بن قانة ، ومصطفى بن اسماعيل ، ومحمد بن عيسى البركاني والميلود بن عراش .. وأطول ترجمة هي ترجمة الأمير .

الفصل الثامن

الوجه الآخر لمقابلة تافنة

قصة المقابلة التاريخية التي جرت بين الجنرال بيجو والأمير عبد القادر ، بطلب من الأول والحاح من جانبه ، معروفة لدى الباحثين في تاريخ الجزائر ، الحديثة . غير ان معرفتهم لها تكاد تقوم ، فيما أعتقد ، على مصادر فرنسية بحتة . وهذه المصادر تحاول احيانا ، هذا ان لم نقل في أغلب الأحيان ، ان تقلل من شأن المقاومة الوطنية وأن تنظر الى أبطالها نظرة صليبية ، بينا تحرص من جهة اخرى على اظهار الوجه البطولي ، بحق أو بغير حق ، لقادة الحملة الفرنسية ، ومن بينهم الجنرال بيجو ولهذا فمن الضرورة أن يرجع الباحثون ، عندما يتصدون لكتابة تاريخ الجزائر ، الى مصادر غير فرنسية ، قد تساعدهم بشكل من الأشكال على الوصول الى معرفة حقيقة هذه الأحداث أو تلك ، أو هي تطلعهم على الأقل على أفكار وآراء جديرة بالدرس والمناقشة . ومعروف أن فترة الأمير عبد القادر أحفل فترات تاريخنا بالبطولات وأبعدها أثرا ، ومن ثم فان معرفة الوجه الآخر لتلك المقابلة التاريخية من شأنها أن تلقي ضوءا على جانب من هذه البطولات أكثر ألقا وأبعد أنفة وشمما في حياة الأمير على الأخص . وقد روى قصة هذه المقابلة النقيب السويسري فون موراليت وسجلها لصديقه الألماني الدكتور موريتس فاغنر ، فنشرها هذا في كتابه المذكور آنفا .

وكان موراليت قد شارك في حملة بيجو بناء على توصية من طرف الحكومة

الفرنسية وحضر تلك المقابلة . ولعله من الطريف أن يقابل الباحثون بين ما كتبه النقيب السويري وما كتبه الجنرال بيجو الى وزير الخارجية الفرنسية في ذلك الحين . وفيما يلي نص «الوجه الآخر لمقابلة تافنة» .

في الساعة السادسة من صباح أول حزيران (يونيو 1837) ترك الجنرال بيجو معسكره في تافنة ، وتوجه مع أركان حربه الى المكان الذي عين للمقابلة وقد صحبته اليه ست فرق من المشاة وخيالته ومدفعيته . والسبب في ذلك أنه كان يريد أن يهيء لخصمه استقبالا عسكريا ، يأمر فيه بعزف الموسيقى واطلاق نيران المدافع تحية له . ولهذا أمر عند وصوله الى المكان المحدد ، الذي انتصبت فيه أشجار صغيرة من النخيل البري والمصطكاء ، بأن تتخذ قواته مواقع مهيبة ، وكان الغرض من هذه الأبهة العسكرية احداث أثر في نفس الأمير عبد القادر . وانقضت ساعات في انتظار ممل دون أن يرى هنالك أثر للأمير وجيشه .

وفي آخر الأمر حضر شيخ عربي ، قيل عنه أنه وزير الأمير ، وسلم رسالة من «سلطانه» الى الجنرال . ففتح الجنرال الرسالة ــ وعندئذ اقتربنا منه وازدحمنا حوله بدافع الفضول . وبعد أن تلا عليه ترجمانه رمزي ، وهو سوري ، محتواها ، قطب الجنرال حاجبيه ، ثم التفت الى الترجمان قائلا :

ــ قل للوزير بأني تعبت من هذه المماطلات . أخبره بأني ليس معي سوى نصف جيشي ، ومع ذلك فاننا ندعو أميره الى خوض معركة ضدنا .

وبعدئذ وثب رمزي والوزير فوق فرسيهما وأسرعا الى الأمير لينقلا اليه هذا الجواب الذي يتوعده فيه . وكان الأمير قد سأل في رسالته عن أسعار الأسلحة والذخيرة التي وعد بها ، وقد الح هو وقادته في هذه النقطة ضمن شروط المعاهدة وعبروا عن رغبتهم فيها بكل صراحة . وهذا وحده كان ينبغي أن ينبه الجنرال الفرنسي الى حقيقة نوايا الأمير ومشاريعه . فالخصم ، الذي يطلب عند عقد المعهدة تزويده بالأسلحة والذخيرة ، لاينوي ولاشك أن يكون جادا في ميله الى السلم ، فطلبه يدل على العكس من ذلك على أنه يفكر في حرب جديدة . وبيجو أذكى من أن يجهل عواقب المعاهدة ، الا أنه كان يعرف انه قد تجاوز الحد في تصرفاته وأن الوقت المناسب للحرب قد انقضى في أثناء المفاوضات وأن الوق

على وشك الانتهاء . وكان يعتقد أن أمره سينكشف ، كما أنه كان يخشى حملات الصحافة المعادية ، اذا هو عاد الى وهران من غير أن يحارب ولا أن يبرم المعاهدة مع الأمير ، ودون أن يحقق شيئا من الحملة التي سبقتها دعاية كبيرة . وهكذا ضحى ، لكلي يوفر على نفسه الفضيحة ، بجميع الاعتبارات الكبيرة .

ومرت الساعات ، وانحدرت الشمس انحدارا عميقا الى حد ما ، وبرغم ذلك لم يبد بعد للأمير أثر . وتأخر كذلك ترجماننا . وكان بيجو يحاول أن يخفي امتعاضه وتبرمه ، بينما كان الضباط يهمهمون ، وقد سمعت أحدهم يقول :

ـ لن يحضر الأمير أبدا . ان جنرالنا سيتلقى صفعة جيدة .

وتتالت ملاحظات مقذعة بين الجنود . ولكيلا يسمع الجنرال حديثهم ، ولكي يتجنب العتاب الذي كان قد ارتسم على ملامحهم ، استلقى فوق العشب وحاول أن ينام . ثم جاءت الرسل العربية من جديد بكلمات موجزة ، فقال أحدهم ان «السلطان» كان مريضا وانفصل عن المعسكر في وقت متأخر ، وأكد آخر أنه لم يعد بعيدا ، وقال ثالث إنه قريب جدا ، ولكنه حدث له ما أعاقه . فاستقبلهم بيجو بجفوة وغلظة ، وأراهم كتائبه ومدفعيته ثم أعادهم .

وكان العقيد كومب [1] أخطر شخصية بين الحضور من الضباط ، لا من حيث المرتبة طبعا ، ولكن من حيث الموهبة والخلق . فقد كان حلو الشمائل ، طيب المعشر ، واضح الهدف ، متحمس لمجد فرنسا الى أقصى حد ، ذا طبيعة بسيطة ، ولكنها مؤثرة . ومع أنه كان ينتمي الى حزب أحرار بلاده ، وأن مذهبه لم يكن تبعا لذلك يتناسب مع مذهب الجنرال العام على الاطلاق ، فان بيجو كان يثق به كل الثقة ، وكانت بينهما صداقة شخصية ، وان اختلفت آراؤهما حول الوضع الراهن . وقد رأيت الاثنين منخرطين في حديث حاد . فقد طلب كومب من بيجو ألا يدع الوقت الثمين يمضي في تافلة دون عمل ومن غير فائدة ، واذا كانت المؤن لا تكفي للمدة المقررة للحملة ، وهي أربعون يوما ، فينبغي على الأقل مطاردة (العدو) لمدة ثمانية أيام في جميع الجهات . وكان العقيد يتكلم بحرارة كبيرة ، ويأسف على الملايين التي تنفقها بلاده ها هنا دون فائدة . ولابد ان يوافقه على ذلك كل انسان عاقل .

أما بيجو فقد نفس عن غضبه وتبرمه الداخليين بصيحات شديدة :

ــ الام آل اليه أمرنا بعد أيام قليلة . لقد أرغمنا على الاعتراف بأن الحرب لم تعد ممكنة . ان أوامري لم تنفذ . ولسوف أكون أول من يخوض الحرب . وأنا رجل شهم مثلكم . ولكننا لا نستطيع . واذا انسحب الأمير ، ولم يظهر ــ فما العمل اذن ؟ آه . ان هذه الحرب لعويصة جدا .

كانت هذه كلمات بيجو . وقد لوحظ عليه تردد مستمر . ولو كانت القيادة بيد كومب لاتخذت الأحداث مجرى آخر .

وأخيرا وصل ترجماننا فوق فرس تطوي الأرض طيا ، وقال ان الأمير كان في اللحظة التي تركه فيها قد غادر معسكره مع جيشه كله ، ولسوف يكون من الممكن رؤيته بعد قليل . فعاود بيجو ابتهاجه وانبسطت أساريره وجلس رمزي ، وقد أخذ التعب عليه أنفاسه ، فوق حجر ، وراح يكتب بعض السطور التي أملاها عليه بيجو كاضافة لمسودة المعاهدة [3] . ومر الوقت في أثناء ذلك دون أن يمكن رؤية الأمير . ورأينا عن بعد فرق الخيالة العربية تحتل بعض الجبال .

وكانت الساعة تشير الى الخامسة مساء ، فقرر الجنرال ، وقد كان يرغب في العودة بفرقة في اليوم نفسه الى المعسكر ، أن يذهب بنفسه لملاقاة الأمير ، فركب جواده وانطلق اليه مسرعا ، وسار معه بعض الضباط وخمسة جنود من ذوي الأسلحة الخفيفة وعدد من السباهية (الصبائحية) . وقد انضممنا أنا وشتورلر [1] إلى مرافقيه . فكان عددنا على الجملة حوالي عشرين شخصا .

ولعل سبب تأخر الأمير عبد القادر لم يكن يرجع إلى عدم الثقة أصلا ، وإنما إلى الأنفة والشمم . فقد أدرك أنه لا يستطيع ان يظهر أمام جبهة العدو بصفته سلطانا ، وانما الذي يستطيعه هو أنه سيقف مع الجنرال الفرنسي على قدم المساواة . فحاول أن يتجنب هذا بدافع الأنفة التي جبل عليها بقدر ما هو بدافع الفطنة واصالة الرأي ، لأنه لم يكن يريد أن يتنازل عن شيء من كرامته أمام نظر عربه .

وبعد مسيرة في طريق وعر تقريبا ، استغرقت ثلاثة أرباع الساعة ، خيل الينا أننا نرى الأمير فوق منحدر تل بين فرسانه ، ولكننا كنا متوهمين . اذ لم نلمح سوى فرسان ، ظهروا فرادى ملوحين بمناديل بيضاء . وأخيرا قدم البوحميدي (*) ، شيخ قبائل تافنة ، وأكد للجنرال أن بامكانه أن يلتقي بالأمير بعد قليل . وأحاط بنا من الجانب ومن الخلف بعض الفرسان العرب ، فبدأ موكب الجنرال يضطرب ، وارتفعت أصوات كثيرة هاتفة :

ــ اننا نعرض انفسنا للخطر ، أيها الجنرال ــ فلنقف !

فكان جواب بيجو في تلك اللحظة :

ــ لم يعد هناك وقت لذلك ، أيها السادة !

وكان على حق ، لأنه لم يبق وقت للحذر ، ذلك أن عددا كبيرا من الفرسان كان قد أحاط بنا من كل جهة ، ولأذكر بهذه المناسبة أن مظاهرتهم تلك لم تكن تدل على أي عداء . فقال البوحميدي ، الذي لاحظ ما اعترى الحاشية من اضطراب :

ــ اطمئنوا ، ولا تخافوا شيئا .

فأجاب بيجو :

ــ اني لا أعرف الخوف . فقد تعودت على منظركم . الا أني أجد أنه ليس من اللائق برئيسك ان يتركني انتظر مدة طويلة وآتي الى هذا المكان البعيد .

فقال البوحميدي :

ــ أنه هناك . وستراه بعد حين .

وكان للطريق هنا منعطف ، وفجاة رأينا الأمير أمامنا . كان الامير يمتطي صهوة جواد أسود ، والى جانبه فرقته الموسيقية الزنجية ، وحوله جمع من الرؤساء ، وقد امتطوا بدورهم جيادا رائعة ، وخلفه جيش من الخيالة والمشاة ، اتخذ مواقعه على منحدر التل بصورة بهيجة .

وعندما لمح بيجو الأمير ، دفع جواده بضع خطوات نحوه ، داعيا اياه بلطف أن يفعل مثله . الا أن الأمير لم يعبأ به ، بل حمل جواده الصحراوي البديع على الرقص والتهادي ، واظهر في اثناء ذلك مهارة فائقة في الفروسية فكان ذلك الجواد الناري يثب اربعة أو خمسة أقدام طورا ، ويسير طورا آخر على قدميه الخلفيتين بضع دقائق ، وكان ينفخ ويزعر بصوت مسموع ، وعرفه الطويل يلامس الأرض . وكان الشيوخ والرؤساء خلفه ، وعددهم حوالي مائة وخمسين أو مائتين ، قد تركوا جيادهم أيضا تتهادى وتشب وتثب .

واذ لم يرد الأمير السير لملاقاة الجنرال ، فقد وثب بيجو بجواده اليه ومد يده لمصافحته ، فمسكها الأمير في عزة وأنفة وبصورة مهينة لجنرالنا . ونظر بعضنا الى بعض ، كنا في موقف حرج ، واصفرت على الخصوص وجوه المسؤولين ، لأنهم خشوا أن يكون في الامر خدعة . وكان الجنرال بيجو قد نزل عن جواده ، ونزل الأمير كذلك واستلقى على العشب من غير أن يدعو الجنرال اليه . أما نحن فان الامير لم يتكرم علينا بنظرة واحدة . وقد بدا عليه أنه يحتقرنا احتقاره للكلاب . فجلس الجنرال أيضا الى جانبه دونما تكلف . وجلس قربه ترجمانه رمزي ، بينما جلس قرب الأمير الميلود بن عراش [7] ، آغاه ونائبه . هذا في حين بقي مائة وخمسون رئيسا ، وأغلبهم من المرابطين والشيوخ ، فوق جيادهم ، مشكلين صورة هلال كبير حول المجموعة ، واقترب اثنان منهم ووقفوا بيننا وبين رئيسهم ، ولعلهم فعلوا ذلك ليسرعوا الى نجدة «سلطانهم» ، فيما اذا عن لنا التضحية بحياتنا للقضاء على «العدو» الخطر ...

كان الأمير قصير القامة ، نحيف البنية ، جبهته بارزة جدا ، وفمه كبير وكانت أسارير وجهه تنم عن الورع والتقوى ، التي ربما تكون مصطنعة بعض الشيء . وكان في ذلك اليوم يرتدي أبسط رداء ، وهو عبارة عن برنوس أسود منسوج من شعر الجمل [8] . ولم نعرف من نتأمل من بين أفراد تلك المجموعة الغريبة ، الأمير عبد القادر ، شيوخه ، هيأتهم الملكية أو أرديتهم الطويلة المتاوحة . أما أبهى منظر لهم فقد تمثل في الجيش العربي ، الذي كان يغطي ظهور الجبال

كلها على شكل رهيب ، وكان قوامه ثمانمائة فارس ومثلها مشاة . كان الصمت شاملا في بادىء الأمر ، ثم بدأت المفاوضات [1] .

قال بيجو :

ـ إنّ الشرط الأول في المعاهدة يتعلق بالاعتراف بسيادة ملك فرنسا في افريقيا .

فصاح الأمير :

ـ ماذا تقول ؟ وبقية أمراء افريقيا ، مراكش وتونس ، هل يجب عليهم أن يعترفوا بسيادته أيضا ؟

فأجاب بيجو :

ـ وماذا يعنيك أنت من هذا الأمر ؟

فسكت الأمير ، وقرىء الشرط الثاني ، وحينئذ طلب بيجو رهائن كضمان لتنفيذ نصوص المعاهدة . فقال الأمير :

ـ في هذه الحالة سأطلب منك أنا أيضا رهائن . ينبغي أن تكفيكم عقيدة العربي وتقاليده . فلم يسبق لي أن نقضت عهدي . اما جنرالات فرنسا فانهم لا يستطيعون أن يدعوا شيئا كهذا .

وكرر الأمير الجملة الأخيرة عدة مرات . فأجاب الجنرال :

ـ اني أثق بكلمتك وأرهن نفسي على اخلاصك لدى ملك فرنسا . اني أعرض عليك صداقتي الشخصية .

ـ اني أقبل صداقتك ، ولكني أحذر الفرنسيين من أن يعيروا المتآمرين آذنا صاغية .

ـ ان الفرنسيين لا ينقادون لأحد . ولن يكون في الجرائم المفردة تهديد للسلم ، الا أن الأمر سيكون كذلك فيما اذا لم تنفذ المعاهدة أو يرتكب عدوان خطير . أما ما يتعلق بالجرائم المفردة ، فينبغي أن يخبر احدنا الآخر بها وأن نعاقب المذنبين ، كل من جهته .

ـــ حسن جدا . اخبرني بذلك . فان المذنبين لن يفلتوا من العقاب .

ـــ أوصيك بمعاملة الكوله أغل (الكراغلة) بتلمسان معاملة حسنة (*)

ـــ كن مطمئنا . سوف يعاملون معاملة الحضر .

وسأل الأمير مرة ثانية عن اسعار الأسلحة والذخيرة التي ستسلم له ، فانزعج الجنرال وهتف بترجمانه :

ـــ يا للشيطان . قل له بأنا لسنا أطفالا . ستكون له بثمن الجيش .

وبدا الرضا على الأمير . وبعد فترة صمت سأل بيجو :

ـــ هل أمرت بأن تعود المعاملات التجارية مع مدننا الى ما كانت عليه ؟

فكان جواب الأمير :

ـــ لا . ان ذلك لن يحدث الا بعد ان تسلم لي مدينة تلمسان .

ـــ ولكنك تعرف اني لا أستطيع أن اسلم لك مدينة تلمسان الا بعد موافقة ملكي على المعاهدة .

ـــ اذن فليس لك تفويض بعقد معاهدة ؟

ـــ بلى . أن ذلك مفوض لي ، ولكن المعاهدة يجب أن يصادق عليها . وهذا أمر ضروري كضمان لك . فاذا عقدت المعاهدة من طرفي فقط ، فان في امكان خلفي الغاءها . اما اذا وافق الملك عليها فان خلفي مجبر أيضا على احترام نصوصها .

ـــ إذا لم تسلم لي مدينة تلمسان ، فانه لا فائدة لي من عقد المعاهدة . وعلى هذا فانها ستكون هدنة لا غير (*) .

ـــ حقا ربما تكون مجرد هدنة ، ولكن فيها كسبا لك وحدك . الا تخاف مدفعيتي ؟ واذا دمرت محصولاتك وحرقتها ...؟

ـــ إن الشمس هي مدفعيتي التي ستقضي على جيوشك . ولك أن تحرق على أية

حال جزءا من محصولاتنا . فسوف نجد القمح في مكان آخر . ان بلادنا كبيرة ، ولن تستطيع مطاردتي بطوابيرك ، لأن الحرارة والأوبئة سوف تهلكها . وحينما ظهرت السحبنا أمامك ، ثم لا تلبث أن تنتهي ذخيرتك . أما نحن البدو الرحل ، فاننا سنجد في كل مكان ما يكفي لغذائنا .

ـ أعتقد ان العرب لا يفكرون مثلك . وقد شكرني بعضهم لأني لم أتعرض لتخريب حقولهم .

فضحك الأمير باحتقار ، ثم سأله كم يلزم من الوقت لوصول الموافقة الملكية فأجابه بيجو قائلا :

ـ ثلاثة أسابيع .

ـ هذه مدة طويلة .

ـ انك لن تفقد شيئا في خلال ذلك .

فاقترب بن عراش وقال للجنرال :

ـ إن ثلاثة أسابيع مدة طويلة . إننا لن ننتظر أكثر من أسبوع أو أسبوعين .

فصاح بيجو :

ـ هل يمكنك أنت أن تصدر أوامرك إلى البحر ؟

ـ اذن لن تستأنف العلاقات التجارية إلا بعد وصول موافقة ملكك .

وقد روى لي رمزي [5] أن بيجو قد قال للأمير في أثناء المحادثة :

ـ أن أسرتنا أو قتلتنا ، فانك لن تكسب من ذلك شيئا ، ذلك أن هناك بعد في فرنسا الف جنرال مثلي .

وبعد مداولات استغرقت ثلاثة أرباع الساعة ، نهض بيجو بينما ظل الأمير مضطجعا دون أن يهتم به أدنى اهتمام . فنظر اليه مندهشا ، ويداه معقودتان على صدره ، ثم مسك يده فجأة وأنهضه ، فابتسم الأمير شاكرا لطفه هذا وانتصب على قدميه .

وعندما قرأ الجمهور الفرنسي مجرى هذه الحادثة ، ظن أن مسلك الجنرال كان يتسم بالشهامة والنبل [١١] . ولكن إنهاضه للأمير قد ترك في الواقع اثرا معاكسا في نفوس الجزائريين . فقد اعتبروه إهانة للجنرال الفرنسي ، خدمة الخدم من نوع خدمة الامبراطور فريدريش بربازوسا الذي مسك الركاب للبابا .

حين انتهت المحادثة كانت الساعة تشير الى السادسة مساء ، وكانت الشمس تغطيها السحب . فوثب الأمير ، دون أن يلتفت حوله ، فوق صهوة جواده وصعد الجبل ركظا ، وتبعه شيوخه وعددهم مائة وخمسون . وفي تلك اللحظة ارتفعت فجأة هتافات طويلة للجيش الشبحي ، الذي كان الى الآن يشاهد المحادثة من غير حركة ، وتدحرجت ابتداء من سفح الجبل مندفعة الى أعلى كموجة البحر . وبعد ذلك بقليل انطلق من بين السحب صوت الرعد الخافت ، ردد صداه الجبل ، فزاد من غرابة ذلك المشهد

وأقبل علينا بيجو وهو يقول :

ــ ياله من رجل أنوف . ولكني أرغمته على النهوض !

ولعله أحس في أعماقه بأن العرب لم ينظروا الى سلوكه على أنه عمل بطولي .

وفي طريق عودتنا كانت تعتمل في نفوسنا مشاعر غريبة . كنا مما شاهدناه كالحذرين وظننا أننا في حلم . وكان الجنرال نفسه مطرقا صامتا ، وجواده يسير به . وعندما وصلنا الى المعسكر التف حولنا مائات من الضباط الفضوليين وحسدونا على ما شهدناه ، فوجب علينا أن نروي لهم ما حدث . وكان مصطفى بن اسماعيل [١٢] جالسا على العشب ، وقد غام وجهه وتدلى رأسه الجميل المحترم فوق صدره . كان يشبه نبيا يحتضر . وعندما سمع بأن كل شيء قد أصبح الآن على ما يرام وأن الحرب مع الأمير لن تستمر بعد ، قال بنبرة ملئت مرارة :

ــ لم يبق لي الآن إلا أن أسافر إلى مكة وأكفر في الكعبة عن الثقة التي منحت الفرنسيين أباها .

هوامش :

(1) لقي حتفه أثناء الحملة الثانية على قسنطينة . أنظر جوليان ، تاريخ الجزائر المعاصرة ، ص 141 .

(2) يذكر ناصر (ج 3 ، ص 236 وما بعدها) أن المفاوضات كانت قد بدأت بعد الحملة على مدينة معسكر ، ولكنها لم تؤد إلى نتيجة ، فاستأنفها بيجو ووكل بذلك اليهودي بن دران . ثم أساء به الظن باعتباره أحد ثقات الأمير ، فعزله وعين مكانه عربياً من العاصمة يدعى سيدي حمادي بن سكال .

(3) طبيب سويسري أيضاً ، كان ينتمي مثل جوانت إلى الفرقة السويسرية لملك نابولي . المرجع السابق ، ص 249 .

(4) محمد البوحميدي أحد أبطال المقاومة الوطنية ، عرف بالصدق في الوطنية والحلم في المعاملة والإخلاص في العقيدة ، وأصله من قبيلة ولهاصة . وقد جمع بين العلم والبطولة فلم يكن يحب شيئاً مثل حبه لكتبه وسلاحه . وكان الأمير قد أرسله سنة 1847 إلى سلطان المغرب عبد الرحمن بن هشام ، فمات بأمر هذا مسموماً . وللأمير مقطوعة في رثائه تحدث الأخ الشاعر صالح الخرفي عن ظروفها التاريخية (القاعد ، عدد 368 ، 21 ماي 1947 ، ص 22 - 33) إستناداً إلى ما كتبه ف. باتورني ، المجلة الإفريقية (عدد 40 - 1896) ويحوي هذا العدد على صورة للمقطوعة .

(5) تحدث ناصر (ص 333) عن الميلود بن عراش وذكر عنه أنه لم يقم بأي دور في الحرب ، وكان معروفاً بقلة الشجاعة والخوف من الحرب ، وكان إلى ذلك فارساً بارعاً رغم إنتمائه إلى قبيلة غرابة الهارية . ولكنه يعتبر أفضل شخصية سياسية لدى الأمير عبد القادر ، وهذا ما جعل الأمير يسند إليه القيام بجميع المهمات السياسية ، فوكل إليه إيصال الهدايا إلى ملك فرنسا ، وكان الأمير يثق به كل الثقة قبل قيامه بتلك المهمة ، إلا أن الميلود بن عراش فقد ، كما يقال ، رضى الأمير عنه منذ ذلك الحين . ويجدر بي أن أنبه هنا إلى أن ما ورد في تحفة الزائر (ص 47) يدل على أن الأمير قد رضي عن ابن عراش بعد أن اعتذر إليه هذا عن تدخله في مسألة تحتمل معاهدة ثانية .

(6) زار مالتسان الأمير عدة مرات ، وكانت آخر زيارته له سنة 1860 ، فكتب بعد هذه الزيارة يقول (ثلاث سنوات في شمال افريقيا ، ج 1 ، ص 284) : « لقد أصبح الأمير الآن مواطناً مسالماً من مواطني دمشق ، كما أصبح ضخم الجثة ، وقد حاولت عبثاً العثور على تعبير حربي حاسم في ملامح وجهه . حتى اللباس السوري ، الذي كان يرتديه ، لم يكن ملائماً له ، وكان عبارة عن قفطان متعدد الألوان ، بدا فيه أشبه بتاجر تركي كسول من تجار السوق . أما ذلك البرنوس ، الذي كان يحمله سابقاً والذي لم يكن يختلف في زنانته عن ثياب البدو ، فقد ودعه يوم ودع مشاريعه الحربية . ومع ذلك فإنه لم يتحول عن طبيعته إلى درجة يخفي عن طريقها بأنه قد أصبح يحب الفرنسيين ، ذلك أنه لم يكن يحتفظ بذكرى طيبة إلا للامبراطور نابوليون الذي أعاد إليه حريته . لقد قال لي باللغة الجزائرية : « السلطان أنوليون راجل (رجل) ، الفرنسيس لخرين (الآخرين) الكل كلاب ! » .

(7) تمت المعاهدة بعد هذه المفاوضات الثانية ووافقت عليها الحكومة الفرنسية بعد حوالي أسبوعين رغم صعوبة مضمونها لها

فاستغلها الأمير للقضاء على الفوضى وإرساء قواعد دولته الفتية بعد أن أصبح ذلك ضرورة ملحة . وشروط المعاهدة معروفة . أنظر الجزائر العربية ، ص 80 ، الجزائر في مرآة التاريخ ، ص 191 ، تحفة الزائر ، ص 280 و 283 .

(8) كان الكراغلة محاصرين في قلعة المشور ، وقد انضموا إلى الحامية الفرنسية هناك ، على الرغم من أن كلوزيل كان قد ألزمهم بدفع ضرائب باهظة ، أنظر فاغنر ، ج 3 ، ص 231 .

(9) هذه العبارات تشبه إلى حد كبير ما ورد في تحفة الزائر ، ص 281 .

(10) ينبغي الإشارة إلى أن المؤلف يكتب هذا الإسم في النص الألماني راسشا ، ولعله تحريف لما ذكره .

(11) أشار فاغنر (ص 3 248-49) إلى أن الجرائد الفرنسية نشرت في ذلك الحين قصة المقابلة بصورة ناقصة ، لأن المسؤولين الفرنسيين حرصوا على أن لا يطلع الجمهور الفرنسي على أجوبة الأمير وملاحظاته أثناء المفاوضة .

(12) مصطفى بن اسماعيل أحد الأذناب المعروفين أيام الاحتلال ، وأصله من قبيلة الدوائر ، وكان في العهد التركي يحتل منصب آغا في منطقة وهران ، وقد تصدى لمحاربة الأمير ، فلما هزمه الأمير هرب إلى مشور تلمسان وسلمها إلى الفرنسيين سنة 1836 ، ومنذ ذلك الحين باع ضميره لهم وراح يطعن وطنه في الصميم ويحارب إخوانه على شكل مخجل ، كل ذلك نظير لقب مارشال أو راتب مناسب لهذه الرتبة ، ويذكر فاغنر (ص 353) أنه كان آنذاك شيخاً عجوزاً في حوالي الثمانين من عمره وأنه كان أكثر تحمساً لمحاربة الأمير من الجنود الفرنسيين ، مع أن الأمير سبق له أن شمله بعطفه وشهامته بعد إنتصاره عليه في أحد معاركه الأولى معه .

الفصل التاسع

الأمير عبد القادر

عمر الأمير الآن (سنة 1838) 32 سنة ، وهو قصير القامة ، نحيف الجسم ، ولكنه جميل المظهر ، شديد بياض البشرة . عيناه زرقاوان يخالط زرقتهما لون رمادي ، وهما تشعان في جمال ، خاصة حين يتكلم بحيوية . وله لحية وشارب شديدا السواد ، غير أنهما ليس كثيفين ، وقد كسر نصف أحد أسنانه الأمامية ، أما أسنانه الباقية فليست جميلة كما هو الحال عند أغلب العرب . صوته عميق حلو النغمة ، والحماس الديني أبرز ملامح الأمير ، وعلى جبينه ووجنته ويده اليمنى وشم صغير . أما ثيابه فانها في منتهى البساطة ، فهي أقل جمالا من ثياب بقية الشيوخ . ويرتدي الأمير عادة حائكا أبيض ويلبس فوقه برنوسا مصنوعا من شعر البعير ، ومن الصعب أن يصل الانسان إلى معرفته بين جمع غفير من العرب ، إلا أن سلاحه وسرجه يمتازان بنوع من الفخامة .

وحياة الأمير بسيطة كثيابه ، فهو يسكن ، منذ أن هدم قصره في معسكر ، خيمة عادية لا يتركها إلى قصره الجديد في تقدامت إلا لمدة قصيرة . وطعامه زهيد ، ولا يخشى الأمير الجوع ولا التعب ، ويعتبر أحسن الفرسان في بلاد الجزائر . وفي المعركة يحمل فوق رأسه شمشية مذهبة ، وعلى جانبي فرسه يسير عبيده من الزنوج . والعرب يجلون أم الأمير ، واسمها الزهرة ، غاية الاجلال ، وذلك أمر غير عادي بالنسبة لامرأة مسلمة . فهذه المرأة العجوز ، التي كان

سيدي محي الدين يفضلها على غيرها من نسائه لهدوئها ورزانتها ، كثيرا ما تحدث عنها من رآها من الأوروبيين بإعجاب كبير . وكانت تعرف أوضاع البلاد وظروف ابنها مع الكفار معرفة جيدة ، دون أن تخفي كرهها الشديد لهم ، وقد أكسبها عطفها على المرضى والفقراء حب جميع التعساء والأشقياء .

لقد رفض الأمير عبد القادر أن يتبع طريقة أبيه وغيره من الشخصيات البارزة فيما يتعلق بأمر الزواج الشرعي ، فقد تزوج هؤلاء بدون استثناء تقريبا أربع زوجات ، وهو العدد الذي سمح لهم به الشرع ، ولكن الأمير عبد القادر لم يتزوج بأكثر من امرأة واحدة ، وهي امرأة وديعة لطيفة جميلة مكتئبة ، تعيش في عزلة ولا تهتم بغير أطفالها . وزوجها يحترمها ولكنه يظهر لها القليل من الحنان ، فغالبا ما تمر أشهر كثيرة دون أن يراها ، ومع ذلك لم يبد أية رغبة في أن يتزوج غيرها رغم الحاح اقربائه عليه وعلى الرغم من أن مصاهرة الشيوخ من ذوي النفوذ كانت تعود عليه بالخير والنفع الكثير . وقد أبطل الأمير احكام الاعدام المترتبة عن الخيانة الزوجية ، وان ظل يعاقب عليها بشدة وكانت ابرز خصائص الأمير عفته .

وللأمير عائلة ، تتكون ، بالاضافة الى زوجته ، من بنتين ، احداهما تقترب من سن البلوغ ، والأخرى في الثالثة من عمرها . اما ابنه فقد توفي وهو في الرابعة من عمره ، وذلك في شهر أكتوبر سنة 1837 ، وقد تحدث الدكتور فاتير ، طبيب القنصلية الفرنسية في معسكر ، عن الظروف التي مات فيها الطفل ، وكان قد عالجه ، فذكر أن أفراد العائلة فزعوا عندما رأوا الإبرة ، إذ أنهم ظنوها مدفعا صغيرا ، واعترض مرابطو الأسرة على استعمالها ، غير أن الزهرة وأم الطفل المريض أصرتا على أن يتم كل ما يأمر به الطبيب ، ولكن الطفل لم تقدر له النجاة رغم كل الوسائل التي استعملها الطبيب . وظلت الأم معلقة العينين بابنها الحبيب المحتضر الى ان لفظ آخر أنفاسه ، ثم التجأت الى وحدتها ، وامتنعت عن الأكل واستخفت بالعزاء . وكان الأمير في تاقدامت عندما وصله خبر موت ابنه فقال «هذه مشيئة الله» ، ثم صلى عليه ونسي آلامه .

وكان الأمير تقيا ورعا متحمسا لدينه ، وكان يلقي الخطب في بعض الاحيان وقد القى افضل خطبه له في جامع معسكر ، فمكنته هذه الخطبة من أن

يضم قبيلة بني عامر الى صفه بعد ان كان شيوخها قد قرروا الخروج عليه ، فأصبحوا منذ ذلك الحين من أخلص أتباعه .

ولم يكن الأمير يحمل الشعب على التعصب الشديد ، وبرهن أكثر من مرة على أنه يريد مسالمة الكفار ، فاستضاف من زاره من الرسل الفرنسيين والرحالين وأكرمهم وعاملهم بلطف ، ولم يكن يرى ما يحول بينه وبين أن يتحدث معهم في كل شيء حتى في المواضيع الدينية . وكان يتكلم بحيوية ، ولكنه لم يكن يحتد أبدا ، وحديثه أحيانا في منتهى الروعة ، حيث كانت الكلمات الجميلة والافكار البديعة تنبعث من فمه أخاذه .

عندما زاره الضابط أليغرو ، الذي كان يتكلم العربية بصورة جيدة ، ونصحه الا يغتر بالحظ الذي واتاه حتى الآن ، أجابه الأمير : «لقد كنت قبل ثلاث سنوات رابع أولاد أبي لا غير ، وكان علي ، حين اقتل رجلا في المعركة ، أن آخذ سلاحه وفرسه لأزيد فيما أملك . وأنت ترى ما أنا عليه الآن . فكيف لا أكون واثقا من نفسي ؟» وحمل اليه رسول المرشال كلوزيل بعد الاستيلاء على تلمسان رسالة تهديد ، فأجابه الأمير : «عندما تقف على الشاطيء وترى الاسماك تعوم في البحر ، قد تتصور أنه يكفيك أن تمد يدك تمسك بها ، ولكنها تنزلق من بين أصابعك كلما خيل اليك أنك قد تمكنت منها ، وعليك بعد أن تلحق بها في أعماق البحر . فاذا كان السمك صاحب البحر ، فان العربي سيظل كذلك صاحب البادية» .

وعندما حمل صوربون الى الأمير هدايا ملك فرنسا ، استقبله الأمير بحضور عدد كبير من رجاله من رؤساء القبائل ، ولعله أراد بذلك أن يحملهم على الظن بأن ملك فرنسا يدفع له الجزية . وقد أثارت الزهريات الخزفية اعجاب الحاضرين ، وكانت تحمل رسوما لآيات قرآنية تم اختيارها بذكاء من تلك الفقر التي تحث على التسامح . وبينما كانت الزهريات تنتقل من يد الى أخرى ، التفت الأمير الى رجاله وقال : «ألا ترون أن الفرنسيين يعرفون كل شيء ويقدرون على كل شيء ؟» ثم استدرك ضاحكا : «كلا . إنهم لم يجدوا بعد وسيلة ضد الموت .»

وتقدر هذه الهدايا الفرنسية بأكثر من مائة الف . وبعد أسبوع من استلامها قدم الأمير هذه الهدايا للآخرين باستثناء زهرية وبندقية فضية ، احتفظ بهما لنفسه . أما الباقي فقد انتقل بعضه الى ملكية سلطان المغرب وكبرائه والبعض الآخر الى المشائخ والمرابطين في منطقته وهران والتيطري .

وكان الأمير يسوس رعيته بالعدل ، ولم تقل عمليات الاعدام أبدا بقدر ما قلت في أيامه . والجدير بالاعتبار ايضا انه لم تقع قط محاولة لاغتياله حتى في أيام محنته وهزيمته . وذلك عندما انفصلت عنه اخلص القبائل له ، في حين أن أغلب الدايات كانوا قد انتهوا نهاية دموية ، وأن الداى حسين ، آخر دايات الجزائر ، كان يلازم القصبة ولا يتركها ، وأن الدايات لم يكونوا أبدا يجرؤون على القيام بنزهات من غير ان يرافقهم عدد كبير من الحرس التركي . أما الأمير فكان يسكن في خيمة مفتوحة ويسير بمفرده متنقلا بين القرى من غير سلاح وكان يستقبل اينما حل باحترام بالغ وتقدير فائق .

ومعاملته لقبيلة الحشم اكبر دليل على حمله وشهامته ، فقد خدعوه وخانوه بعد سقوط معسكر ، وحين رجع من تافنة بقوة كبيرة خرج اليه شيوخ هذه القبيلة بوجوه صفراء شاحبة ، فسألهم بصوت رزين : «لماذا استوليتم على ملكي ، ونهبتم قصري ؟» . فاجابه هؤلاء : «عفوك . لقد رأينا الكفار مقبلين ، ولذلك أخذنا كل ما وجدناه قبل وصولهم . ألم يكن من الأحسن أن نسرق متاعك بدل أن نتركه للكفار ؟» فعاد الأمير يسألهم : «ولكن لماذا سخرتم بي وخنتم عهدي ؟» أجابوا : «لقد خلب الشيطان لبنا ، فظننا أن الله تخلى عنك ، وقد ثبت الآن أنك أحب الناس اليه وأعظم ملوك الأرض . اذا كان الدم يرضيك ، فلك أن تعاقب أكبرنا ذنبا» قال الأمير بلطف مثير للاعجاب : «أمضوا في سبيلكم ! لقد عفوت عنكم ونسيت ما مضى . لقد أراد الله أن يعلمكم نظامي مرة أخرى . احتفظوا على كل حال بما سلبتموه مني اذا كان لا يعذبكم ما تأكلون من مال حرام . ولكن اياكم أن تعودوا الى ذلك مرة أخرى ، وليكن في علمكم أن ابن الزهرة قادر على أن يضرب من جديد ألف رأس من رؤوسكم » .

ولكنه لم يجد ما يحمله على تنفيذ ما هددهم به ، فقد أخلصت له قبيلة الحشم منذ ذلك اليوم ، ولم يندم الأمير على ما أظهره أمامهم من حلم ورفق .

الفصل العاشر

الحياة الاجتماعية في مدينة الجزائر إبان الاحتلال

من الملاحظ ان الباحثين الجزائريين قد بدأوا يهتمون بدراسة ماضي الجزائر ، إلا أن اهتمامهم لم يتعد ــ للأسف ــ الناحية السياسية . فاذا استثنينا بعض الاشارات العابرة ، فاننا لا نكاد نعثر على كتاب يقدم لنا صورة عن المجتمع الجزائري في العصور المختلفة . ومن ثم بقيت جوانب اخرى من حياة الجزائر لاتزال تنتظر من يكشف عنها ويعني بدراستها دراسة تفصيلية . فليس في الامكان معرفة مجتمع ما دون معرفة تاريخه . فتاريخ المجتمع هو الذي يبين لنا مقدار نموه وتطوره خلال المراحل التي مر بها ، كما يوضح لنا مدى استجابته لانماط الحياة التي خبرها نتيجة احتكاكه بالغير واطلاعه على نظمه وتقاليده وثقافته .

والقيام بمثل هذه الدراسة يتطلب الاطلاع على ما كتبه الرحالون الأجانب عن المجتمع الجزائري ، وجمع مادتها وتصنيفها ، ثم تحليل نفسية هذا المجتمع على اسس علمية متينة للوصول الى نتائج تتعلق بالمرحلة التي وصل اليها . وقلة المراجع العربية ، أو بأحرى انعدامها التام ، يبرر الاهتمام بما انطبع في نفوس هؤلاء الأجانب عن الجزائر في فترات تاريخية طويلة أو قصيرة ، فحرصوا على تسجيله ليطلع عليه مواطنوهم في حينه ، ونستفيد نحن منه في المراحل التالية ، خاصة وأنه لم يعد هناك ما يحول بيننا وبينه . ففي وسع مؤسساتنا ان تقوم بتصوير مختلف

الكتب ، التي تتحدث عن ماضي الجزائر ووضعها تحت تصرف الباحثين والدارسين لياخذ كل منهم ما يقع في دائرة اختصاصه .

وكاتب هذه السطور ليس باحثا اجتماعيا ولا مؤرخا ، ولذلك يكتفي بتقديم الصورة التالية عن المجتمع الجزائري وحياة افراده ، وتوصيله الى المتخصصين توصيلا أمينا ، أعتمادا على ما كتبه نفس الرحالة موريتس فاغنر ، صاحب الموضوعات الثلاثة السابقة .

القضاء :

بعد أن يتحدث فاغنر عن المحكمة العسكرية الفرنسية ، ينتقل الى الحديث عن المحكمة الشرعية الاسلامية ، التي كانت تقع في احد شوارع باب الواد الجانبية ، ويصفها بانها لم تكن تقل منزلة عن المحاكم الفرنسية . ثم يذكر أن القاضي المالكي يمثل الجانب الدنيوي بالنسبة للمسلمين في حين ان المفتي الحنفي يمثل الجانب الديني ، ويقول ان هذا المنصب كان يتقلده أيام زيارته للجزائر واقامته بها الشيخ سيدي أحمد بن جعفون ، وهو رجل يبدو عليه الوقار ، ويزيد من رفعة قدره ما يرتديه من ثياب فاخرة .

والقاضي المالكي يعقد جلسته في قاعة بسيطة ، تغطي ارضها الزرابي ، ويتميز عن غيره من الحاضرين بعمامته الكبيرة ، التي تحتوي على ثنايا كثيرة غير انه لا يختص بهذه العمامة ، اذ يشاركه فيها رجال الدين من ائمة وعلماء وقراء ومرابطين بالاضافة الى معاونيه من الكتاب والمحررين . ويتخذ القاضي مكانه فوق مقعد عال عند مائدة بيضوية الشكل ، وأمامه نسخة من القرآن مذهبة الجلد ، وعن يمينه وشماله كتابه ، الذين يقومن بتسجيل محاضر الجلسات ، ويتولون اعداد الوثائق الخاصة بعقود البيع وغيرها من الملفات الرسمية ، ويتوجهون بالنصيحة الى القاضي في المسائل التي تشكل عليه . ويوجد في الجزائر من هؤلاء حوالي إثنى عشر كاتبا ، يقومون بعملهم بالتناوب في أيام معينة . ولأغلبهم لحي كبيرة ، ملامح لينة حينا ، ومرعبة حينا آخر ، حسب ما يوجد في طبائعهم ومظاهر هم من فروق (ج 1 ص 62) .

وحين يدخل الشاوش أو خادم المحكمة المتخاصمين يمثلا أمام القاضي ، يقفان في النهاية الاخرى من المائدة . أما اذا كانا من النساء ، فانه لا يسمح لهن بالدخول الى قاعة المحكمة ، وإنما يتحدثن الى القاضي من وراء قضبان نافذة الفناء . وكثيرا ما تكون هذه المرافعات شيقة حتى بالنسبة لأولئك الذين لهم إلمام قليل باللهجة العربية أو لا معرفة لهم بها على الاطلاق ، خاصة حين يكون النساء طرفا في النزاع . ان براعتهن في الحديث ، والحركات التي تصدر عنهن في اثناء ذلك ، وهدوء القاضي ، الذي يترك المتخاصمين يتراشقان بالكلمات دون أن يبدي حركة تدل على سأم أو ملل ، كل ذلك يكون مشهدا متناقضا لا مثيل له . وليس هناك حادث يمكن أن يخرج القاضي عن هدوئه ، فهو يستمع الى الاصوات المتراشقة مطرقا في هدوء تام ، ويلقي على احد المتخاصمين بين الحين والآخر سؤالا ، ويستنطق الشهود ان وجدوا ، ثم يصدر حكمه في القضية بكل رزانة ووقار ، فيقبل حكمه دون ان يبدي أحد الطرفين رغبته في استئناف الحكم . ينحني الخصوم لتقبيل يده قبل الحكم وبعده ، وينفذ الحكم عادة في الحين وفي المكان نفسه .

ويعاقب المذنبون في الغالب بالضرب على الأرجل ، وهم يفضلون الفلقة على السجن ، وقد حاولت الحكومة الفرنسية أن تبطل هذا النوع من العقاب ، الا انها لم تلق أي تأييد من طرف الاهالي ، ولم يكن في وسعها أن تدخل هذا الاصلاح الانساني الا بموافقتهم . وكان لديها مشروع معقول ، ولكنها لم تجد آذانا صاغية ، ولا عثرت على من يتفهم الغرض الانساني الذي كانت ترمي اليه . والفرنسيون ـــ والشعور بقيمة الانسان عندهم في رأي فاغنر ، اكثر عمقا وأشد قوة منه عند بقية الشعوب الاوروبية بكاملها ! ـــ يشعرون بالغضب العنيف لمجرد التفكير في الاهانة الجسدية ، وهو شعور يدل دائما على مدى ثقافة شعب من الشعوب ، أما الأهالي فإنهم لا ينظرون فيه إلا إلى الألم الجسمي ، لأن المذنب تبقى كرامته محفوظة بعد أن ينال العقاب الذي يستحقه . وكان هذا النوع من العقاب مستعملا في أيام الداي أيضا ضد أي موظف ، ولو كان وزيرا ، فاذا ارتكب هذا الوزير ذنبا ، فإنه ينال عقابه

بالفلقة ، ثم يعود إلى أهله وأحبابه ، ليجد مشاعرهم نحوه كما تركها .

ذلك أن هذا العقاب لا يلصق به أي عار . أما دخول السجن فان الجزائري كان يخافه كل الخوف ، لأنه يبعده عن أسرته من جهة ، ويحول بينه وبين واجباته الأخرى من جهة ثانية ، وبالتالي فانه لم يتعود مثل هذا العقاب . وأقسى العقوبات بالنسبة له هي الغرامة المالية . فحرصه على جمع المال لا يسمح له بدفع أية غرامة مهما كان مبلغها . فهناك من الجزائريين من يفضل أن تؤخذ قطعة من لحمه على أن يدفع شيئا من ماله . ومن أجل هذا رفضت الاقتراحات التي قدمها السيد «لورانس» في هذا المجال بشدة ، بحيث أن مشروعه لم ينل صوتا واحدا ، لهذا قررت الحكومة الفرنسية الابقاء على قوانين الاهالي القديمة ، التي لم يكونوا يحسون بثقلها إلا بقدر ما يحس الحلزون بصدفته ، وتركت أمر ذلك للوقت والاحتكاك بشعب متحضر ، فلعل ذلك يحملهم على أن يطلبوا تغيير ذلك بأنفسهم (62/1 — 66) .

الأسواق :

وتوجد في الجزائر بعض الأسواق ، يعرض فيها الغرباء عن المدينة بضائعهم وهي لا تشبه تلك الأسواق الضخمة ، التي كانت موجودة قديما في بغداد أو طهران ، والتي تحدث عنها المؤرخون العرب . إن أسواق الجزائر لا يمكن أن تقارن حتى بأسواق ازمير أو القسطنطينية ، مع ان هذه ليست لها ايضا تلك الفخامة التي عرفتها الأسواق القديمة والتي تمثلت في المنتوجات الشرقية الرائعة . فأسواق الجزائر فقيرة بجانب تلك الاسواق ، وهي عبارة عن دور تشبه الدور العربية ، مع فارق واحد وهو ان جانبي الفناء يحتويان على حجرات ، الواحدة منها منفصلة عن الاخرى . ولكل سوق طابقان أو ثلاثة طوابق وغرف كثيرة .

والعادة المتبعة منذ القديم هي أن الأجنبي أو الجزائري أو اليهودي يكتري في السوق محلا أو عدة محلات بمجرد حصوله على رخصة بذلك ، ويعرض في أبوابها بضاعته . ولم يكن يعدم من يزور محله ، الا أن زواره كانوا يكتفون بتقليب

البضائع ، وقلما يشترون شيئا منها . فالتجارة لم تكن في يوم ما بالجزائر مربحة ، ولم تزدهر أبدا مثل ازدهارها في بقية العواصم الأخرى بالبلدان المتأخرة ، فقد كان الثراء في الجزائر يشبه الحكم بالاعدام . وكانت للجزائر اسواق تحتوي على اكثر من اربعين محلا ، إلا أن القسم الأكبر منها ، بل أجملها وأجدرها بالاعتبار قد هدم ، وقامت في مكانها محلات ودكاكين تجار أروبيين . وتوجد منها الآن دكاكين لا تقل جمالا عن دكاكين مدن من الدرجة الثانية مثل طولون وتيس .

أما دكاكين التجار من الأهالي ، وهي تقع خارج هذه الأسواق ، فانها صغيرة تافهة ، فليس فيها تنوع في البضائع ، ولا تلفت الأنظار إلا بشكلها الغريب . هذه الدكاكين عبارة عن ثقوب مربعة ، تغلق في الليل بباب خشبي مهترىء ، ولا تستثنى منها إلا الدكاكين الموجودة في شارع الديوان ، لأن بضائعها متنوعة ومنظمة بصورة تدل على ذوق اصحابها ، وهم في الغالب من الكراغلة . وبضائعها على العموم من الصناعات المطرزة بالذهب ، مثل الخفاف والمحافظ وأدوات الزينة الخاصة بالأسلحة وغيرها ، وهي مصنوعة في الغالب من القطيفة الخضراء ، ويغطيها طلاء ذهبي كثيف ، تبهر العين بفخامتها اكثر مما تبهره بجمالها .

أما بقية البضائع فتتكون في أغلب الأحيان من الروائح والعطور المستخرجة من الورد والياسمين ، ومن المصنوعات القطنية المحلية ، التي تدل على ما بذل في نسجها من جهد ، وهي باعتبارها مصنوعات يدوية لا تضاهي طبعا المنسوجات الأروبية الآلية في جمالها ولا في اسعارها . وكثير من الأشياء المصنوعة من خيوط الصبر ، مثل أكياس الصيد ، وركائب السيدات ، وأحذية الأطفال وغيرها تهم الانسان لغرابة المادة التي صنعت منها . وأصحاب هذه الدكاكين من الكراغلة والحضر الزياء في أغلب الأحيان ، ويقومون بشراء هذه المصنوعات من الطرازين ومن بعض الحضريات . وتجد بضائعهم هذه اسواقا رائجة في اروبا ، فلم يحدث أبدا ان سافر عسكري فرنسي الى بلاده دون أن يأخذ لأصدقائه ومعارفه اشياء كثيرة من الصناعات الأهلية ، التي تروق العين بروعة أشكالها والوانها (1/67 — 68) .

المقاهي :

وينصح فاغنر المسافرين بزيارة المقاهي العربية ، التي يزيد عددها في القسم الأعلى من المدينة فقط عن الستين ، ويذكر أنه كان يقضي كل أمسية في واحدة منها دون أن يندم على الوقت الذي قضاه فيها أبدا . ويعتبر المقاهي من الأماكن التي تتيح للأجنبي أن يتعرف على الشعب ، ويتعلم لغته ، بل لا يوجد بالنسبة له مكان يتعلم فيه التعابير الشعبية مثلما يتعلمها في المقاهي .

ويشير الى أن الأهالي لا يتحدثون فيها كثيرا ، إلا أن الحضر أكثر استعدادا للحديث منهم في أي مكان آخر ، وفي أي وقت آخر من أوقات النهار . ومن هنا يستطيع الانسان أن يدرس ملامح رواد المقاهي ، وهم جالسون فوق الأرض . فيرى الحضري الهادىء جالسا قرب التركي في لباسه الفخم ، ويليه زنجي أسود كالفار ، يرتدي نفس اللباس ، وبعده عربي من البادية ، طويل القامة ، جميل المظهر ، وقد لوحت الشمس بشرته ، يغطي عضلاته الفولاذية برداء طويل أبيض ، وفوق رأسه عمامة بها حبل من شعر الجمل ، وغير بعيد منه قبائلي بقامته القصيرة ونظراته الثاقبة . ثم ميزابي من الصحراء ، وبسكري من بلاد الجريد ، وبينهم فرنسي في لباسه الرسمي ، وقد تعود على حضور جميع الحفلات ، واخذ يظهر جوانب من مزاجه المرح في كل مكان .

ويقع أجمل مقهى عربي في شارع البحرية ، وبه قاعة مقسمة إلى مقصورات ، تستند على أعمدة ، وتتسع لعدد كبير من الزوار . ويضيف فاغنر أنه شاهد مقهى من هذا النوع في أواخر سنة 1836 ، ولكنه أضيق ، وكانت تقع في شارع لالاهم ، وقد أصبح كلاهما أثرا بعد عين . فقد اشتراهما الأروبيون وأقاموا مكانهما بنايات على الطراز الفرنسي ، وقضوا في مقابل ذلك على جانب كبير من اصالتها الشرقية ، فليس هناك اليوم مقهى واحد يشبه المقاهي القديمة .

إن مقاهي اليوم مظلمة مستطيلة الشكل ، ولا تحتوي على عرصة واحدة ، وبها صفين من المقاعد الحجرية ، تغطيها حصائر من سعف النخيل ، ويجلس فوقها الرواد على الطريقة الشرقية . ويقع المطبخ في منخفض بمؤخرة القبو ، وتقدم القهوة في فناجين مصنوعة من الخزف فوق صحون من الصفيح ، ويوضع فيها

مسحوق السكر ، وهي قوية الطعم الى حد ما ، ولكنها لذيذة ، وتكاد رواسب البن تملأ نصف الفنجان . ويقدم للمرء معها غليون أحمر ذو قصبة طويلة ، وتبغ من النوع الممتاز ، وثمن ذلك كله سنتيم واحد ، ولا يتصور المرء أن هناك متعة أقل ثمنا من هذه .

ويجلس صاحب المقهى عند المدخل في وقار ، دون أن يهتم بمحله الكبير ، ويستقبل الزائر الأوروبي قائلا «مساء الخير يا سيدي» واخاه في الدين «وعليكم السلام» ثم ينادي في اتجاه القبو «حب قهوة — حب سيبي !» والطباخ من السود عادة . أما النادل فهم من ابناء الحضر ، ووجوهم شديدة البياض موردة ، وفوق رؤوسهم الحليقة قلانس حمر ، البستهم في الأماكن التي يكثر فيها الرواد نظيفة وفاخرة في بعض الأحيان ، ولا تتجاوز أعمارهم السادسة عشرة ، وقد تركت الأعمال اليدوية آثارها على ملامح البعض منهم .

ولا تخلو المقاهي الكبيرة من الموسيقي في أي يوم من أيام الأسبوع . ومكان الجوقة في العادة قرب المطبخ ، مما يجعل اعضاءها ينظرون الى القدور التي يتصاعد منها البخار ويستمدون منه الحماس . وتتكون الآلات التي يستعملها الفنانون الجزائريون من الرباب والنايات والقيثارات المختلفة والطر ، غير أن الأخير يستعمل في الحفلات التي تقام في الهواء الطلق . أكثر مما يستعمل في المقاهي . وتخلو هذه كذلك من الطنبور والموسيقي الصاخبة الخاصة بالأعراس وحفلات شهر رمضان . فرواد المقاهي يفضلون الاستماع إلى الموسيقى الرتيبة الهادئة التي تدغدغ حواسهم ، وتناسب الأحلام التي يستسلمون إليها في لذة ، وينفرون من الأنغام القوية التي تذكرهم بقعقعات السلاح وبطولات الأجداد (1/68 — 70) .

ويقع أكثر المقاهي العربية روادا في شارع الديوان قرب الكنيسة الكاثوليكية ، ويتردد عليه كثير من الأوروبيين ، فالقهوة فيه ممتازة ، والمجلس شيق ، والجوقة كبيرة ، وقائد الفرقة عربي عجوز ، وهو عازف بارع على الربابة ، يشد الأنظار اليه بغرابة تمثيله الصامت ، واهتزازات رأسه ، وحركاته الرزينة الرتيبة .

وكان في الماضي أحد أعضاء الفرقة الخاصة بالداي الأخير ، ويمارس العزف فيالأعراس الجزائرية منذ ستين سنة ، ولذلك فهو يتمتع باحترام كبير لدى جميع الأسر الجزائرية ، التي تفتح له ابوابها باستمرار فيسمعها انغامه اللطيفة في كل الظروف والأحوال . فيعزف في حفلات الختان ، ويمدهم بالأنغام الراقصة في الأعراس ، معتصرا من ربابته انغاما حزينة بهيجة في الوقت نفسه .

ويعثر المرء بين الحين والآخر في مقهى شارع الديوان على عدد من الفتيات الخليعات أيضا ، وهن يرقصن على نغمات الموسيقى أو يغنين . أما صاحب المقهى فهو أخو ابراهيم شاوش ، جلاد الداي ، ويتمتع مثله بمكانة مرموقة عند الحضر ، وله شخصية قوية مثل أخيه الجلاد ، وذو ثروة كبيرة . والحفلات التي تقام في مقهى القسم الأعلى من المدينة اكثر اصالة وصخبا ، خاصة ما يقع منها قرب القصبة . فهناك يقع المقهى اليوناني ، الذي يحاول صاحبه ، ويدعى «سبيزيوطه» اغراء جمهوره باحقر الوسائل ، فترى الأهالي ، وكثيرا ما يختلط بهم الأوربيون ، يصخبون فيه ويصرخون مع الموسيقى الصاخبة ، دون فارق ديني أو عنصري ، فيجتمع المسلم ، والمسيحي واليهودي ، والأوربي ، والأفريقي ، في اكثر الأماكن عربدة . وتمتزج تلك الأصوات كلها باصوات السكارى من النساء الخليعات اللواتي يتبادلن الأحاديث القذرة مع عدد من رواد المقهى (1/70 — 72) .

التقاليد الدينية :

يتحدث فاغنر بعد ذلك عن بعض التقاليد المتبعة في شهر رمضان وأيام العيد الصغير ، فيقول ان الاعلان عن بدء شهر الصيام يتم باطلاق مائة طلقة من مدفع كبير ، أقيم في الميناء ، وليست هذه الطلقات إحسانا من جانب الحكومة الفرنسية ، ذلك أن السلطات المدنية تحتم على المسلمين أن يدفعوا خمسة فرنكات لكل طلقة في مقابل هذه التحية . وبعد هذه الطلقات توقد مصابيح كثيرة فوق منارات المساجد ، تضيء الهلال الذي يتوج رؤوسها . ويقف المؤذن بثيابه الجميلة وسط اضواء المصابيح ، ويرفع العلم الأبيض ثم يدعو المؤمنين ال

الصلاة . وليس هناك مسلم راشد لا يسرع الى تلبية النداء ، فلا الشيخوخة ولا الثروة تحول بينه وبين المضي الى بيت الله . وكانت المساجد ، وعددها أيام اقامة فاغنر بالجزائر ، تسعة وثلاثون ، دائما مكتظة بالمصلين .

ويقول الرحالة الألماني : «وكنت أحضر الصلاة بصورة منتظمة ، مع أني لم أكن مارقا . وكان الفضول ، تلك الرغبة الخاصة بنا نحن الألمان في مشاهدة المناظر الغامضة ، يدفعني ، كلما سمعت صوت المؤذن ، الى المسجد ، وكنت أحيانا أشارك في صلاة الجماعة الغامضة بالنسبة لي .» ويضيف فاغنر ان المسلمين لا يمنعون أحدا من الدخول إلى مساجدهم ، إلا أن على الزوار أن يخلعوا احذيتهم حفاظا على طهارة المكان . وفي أيام رمضان تضاء عدة مصابيح بالجامع الكبير . ويصف فاغنر الطريقة التي تتم بها اقامة الصلاة ، ويؤم الناس فيها شيخ الاسلام ، ويعتقد انه منظر جدير بالاعتبار ، فالمسلم الفخور المعتز بنفسه ينحني امام ربه بخشوع العبد المذنب المرتعد . فالمسلمون يصطفون خلف الامام دون أن يقيموا وزنا للأصل والنسب ، فهناك الحضر والأتراك والكراغلة والعرب والقبائل والبسكريين والزنوج ، بحيث يكاد لكل ناحية من الجزائر من يمثلها . فيجلس التركي في ثيابه الفاخرة الى جانب البسكري المتسخ الثياب ، والحضري الشاحب في اغلب الأحيان يبدو بجماله الى جانب الزنجي المشوه ، وكلهم متجهون بمشاعرهم المتعبدة الى ذلك الجوهر الذي انبعث منه الغاز الألوان والأشخاص .

والمسلمون يلفون مسبحة حول ايديهم في اثناء الصلاة ، وقد اخذ عنهم المسيحيون ، كما هو معروف ، استعمال المسبحة . وتصنع المسبحة من ثمار الوقل الخاشع ، وترى بايدي الأئمة والمرابطين وشيوخ البدو . وهناك عدد من أولياء هذه البلاد الجزائرية المشهورين ، ومنهم الأمير عبد القادر ، لا يكادون يتركون السبحة من أيديهم . وعندما ينتهي المسلم من صلاته ، يظل في مكانه لحظة دون حركة ، ويحني رأسه فوق صدره ، ويهز حبات مسبحة مرات أخرى ، ويتمتم بكلمات ، يودع بها المكان الطاهر . وفي فناء المسجد يغسل يديه ورجليه بعناية في عين مرمرية ، تحيط بها أشجار الفواكه ويرتدي نعله من جديد ، ويترك المسجد بنفس الوقار والخشوع . وكل فرد من هذه الطوائف المختلفة يترك نقطة

الاتحاد هذه ، التي أمحى عندها اختلاف الطبقات ، ويعود الى حياته اليومية وأعماله الخاصة ، فيذهب الحضري الى بيته ، حيث تستقبله زوجته مداعبة مبتهجة ، والعربي الى باديته ، والقبائلي الى جباله . وفي طريق عودتهم لا يتورع هؤلاء المصلون الأتقياء عن سلب اخوانهم في الدين أو قتل المسيحي الذي يجدونه وحيدا . (75/1 — 78) .

احتفالات رمضان :

ويحرص المسلمون ، فيما يذكره فاغنر ، على سماع الموسيقى طيلة شهر الصيام ، ويتسلون بمشاهدة الرقصات والعروض المسرحية والهزليات المتنوعة ، التي تذكر باعياد الكرنفال في أوربا ، مما يجعل المرء يتساءل عما اذا لم تكن في اصلها عادة إسلامية انتقلت إلى المسيحيين كما انتقل غيرها من التقاليد . ويتشدد الجزائريون في المحافظة على الصيام ، حسب ما أشار اليه العالم الألماني ، ويستشهد على ذلك بالمثال التالي : «أستخدمت أحد الجزائريين لأستعين به خلال بعض الرحلات التي كنت أقوم بها في داخل البلاد ، فوقعت لنا حادثة مؤلمة ، أضعنا فيها كل ما كان معنا من مؤنة ، فقضينا أربعا وعشرين ساعة في المناطق الشرقية من سهل متيجة بدون طعام ، ووصلنا الى مدينة الجزائر مع الفجر ، فدفعت لمستخدمي البسكري أجرته وأسرعت لتناول فطوري . وبعد حوالي ساعة وجدته جالسا في الميناء فسألته ما اذا كان قد تناول طعامه ، ولكنه أشار برأسه قائلا : «الله أمر بالصوم» ، وقضى يومه كله هكذا حتى المساء ، مع ان الجوع كان قد أنهكه ، وظهرت آثاره في ملامح وجهه النحيفة ، وما كان ليتناول شيئا ولو قدم نظير ذلك ما قدم . وما أن سمع طلقة المدفع حتى أخرج الخبز من قلنسوته وراح يلتهمه بجشع كالمجنون .» (79/1)

وطعام الصائمين في الليل الكسكسي بالزيت ، ويضاف اليه اللحم المقلي والفواكه ، وبعد الطعام ينصرفون الى مشاهدة العروض الهزلية ، التي يشاهدها المرء في اغلب المقاهي العربية . وتشارك فيها شخصيات من العباد والحيوانات ، وتحتوي على اشارات وحركات مثيرة ، ومناظر فاحشة ، وسخرية مقذعة ، الى درجة أنه ليس من اللائق الحديث عنها ووصفها ها هنا . وثمة محل آخر يحظى بعدد كبير

من الزوار في ليالي رمضان ، وهو المسرح الشعبي أو القرقوز ، ويقع في أقذر زاوية بمدينة الجزائر . فهو عبارة عن قبو مظلم ، يحتشد فيه عدد من الأهالي ، ويجلسون فوق الأرض وانظارهم متجهة الى الشاشة ، حيث تظهر الأشكال السوداء الناطقة ، التي تشبه خيال الظل الصيني في أروبا ، على قطعة من الورق مشبعة بالزيت .

ومن بين الشخصيات الناطقة شخصية القرقوز ، ويمتاز بضخامة جسمه ، ومنظره المضحك ، وسخريته المقذعة . وما يحدث في مسرح القرقوز يشبه إلى حد كبير ما يحدث في مسرح العرائس الألماني أو في مسرح جنوب أوروبا فالشخصيات تتصارع وتتضارب من البداية إلى النهاية ، والقرقوز هو البطل وهو بدوي صرف ، يوزع أكثر الضربات ويتلقى مثلها . والحوار بالعربية تارة وبالفرنسية تارة أخرى ، لأن مدير المسرح ترجمان ، ولم يكن يرى مانعا من استعمال بعض التعابير الفرنسية ، واتاحة الفرصة للجنود الفرنسيين للمشاركة في التمثيل . ولا عمل للأشكال التي تمثل هؤلاء الجنود إلا العراك مع القرقوز ، وهذا كله حتى لا يشعر المشاهدون الأوروبيون بالملل . ويحرص مدير المسرح أيضا على أن تتخلل مشاهد العراك والنزال مناظر ساخرة ، إلا أن هذه المناظر تبدو شنيعة وغير طبيعية ، بحيث إن كل إنسان لا ينتمي إلى طبقة الأدنياء ، يغض نظره دون تلك المناظر الفظيعة . والحقيقة أن الحضر لا يجدون مكانا أحسن من هذا ، يتعلم فيه اطفالهم ضروب السفالة وأنواع الآثام . فهل يعجب الانسان بعد هذا أن يرى هذا الشعب غارقا في الفساد والجبن والذلة والعبودية ، ويرى شبابه يمتص أحط أنواع السموم التي تقضي على طاقاته وحريته الفكرية ؟!

والحكومة الفرنسية متساهلة في مثل هذه الفضائح ، فلم تحاول حتى الآن إغلاق تلك الاماكن ، التي تنشر الفساد والانحلال . بالعكس أن أوضاع تلك الأماكن قد تحسنت منذ دخول الفرنسيين ، إذ أنها لم تعد تدفع تلك الضرائب التي كانت تدفعها الى الداي ، ومن هنا فان عددها يزداد بسرعة . وتهتم فرنسا بتزويدها بجيش من الفتيات ، يفوق عددهن عدد المعمرين بثلاثة أضعاف ! (80/1 — 81) .

احتفالات العيد :

وبعد احتفالات رمضان يحتفل المسلمون بالعيد الصغير ، وهو عيد البهجة والمغفرة ، يستسلم فيه المسلم الى مسراته حتى في اوقات النهار ، فيستيقظ الناس في الصباح على أنغام الموسيقى الصاخبة ، التي يعزفها السود ، وهم يرتدون أجمل الثياب ، وبأيديهم الطنابير والصفائح الحديدية ، وموسيقاهم ذات ايقاع همجي ، وتصاحبها حركات الفنانين السود وتمثيلهم الصامت واهتزازات أجسادهم ، بحيث يبدو كل شيء فيهم يتحرك ، الرأس والفم والأذن والعين والقدم والأصابع ، وهذا في الوقت الذي يتهادى فيه الجسم ويؤدي حركاته على حدة . ومظهر هؤلاء الزنوج غريب ، يستعصي على الوصف ، ولا يستطيع الانسان أن ينظر اليهم دون أن يضحك . وتراهم يلتفون بالاجنبي ، طالبين منه ثمنا لهذه التسلية التي قدموها له ، ويضجون بالآتهم حوله ، ويصعرون وجوههم بصورة رهيبة ، فيضطر لشراء نفسه واخراجها من دائرتهم السوداء بعدد من القطع النحاسية . وهذه الموسيقى الزنجية من العادات القديمة المتبعة في الأعياد . وكان هؤلاء انفسهم يوقظون الداي من نومه صبيحة العيد ، ويعزفون موسيقاهم في قصر القصبة مثلما يفعلون ذلك في الأماكن الأخرى ، ويتلقون عليها الهدايا ، ولا يزالون يفعلون هذا اليوم أمام بيوت الأغنياء من الحضر والكراغلة .

ويرتدي الأهالي في أيام العيد الثلاثة أجمل ما لديهم من البسة ، وخاصة الأطفال الذين يرتدون في هذه الأيام الثياب المطرزة بالذهب والفضة ، والسراويل المصنوعة من الصوف أو القطن ، مما يجعل منظرهم في منتهى الروعة . والنساء والفتيات محجبات ، إلا أن عددهن في الشوارع والميادين العامة لا يقل عن عدد الرجال . وهن يكتفين بالنظر والتسلية ، وبينما يعانق الرجال في الشوارع معارفهم ، يرش الأطفال الأوربيين بماء الورد تحية لهم . وفي باب الواد ميدان فسيح ، يقوم فيه تركي عجوز بادارة عجلة كبيرة ، وفوقها عدد من الأطفال يمرحون ويضحكون . أما أبناء الأغنياء فيجلسون في عربات يقودها الزنوج أو البسكريون ، وهؤلاء الأطفال يفضلون الركوب في العربات الفرنسية ، فهي تسلية مجهولة بالنسبة لهم . وبما أن الجزائر لم تعرف الطرق المهدة قبل سنة 1830 ،

فإن اصحاب العربات الفرنسية يكسبون في أيام الأعياد مبالغ كبيرة ، فعرباتهم محملة بالأطفال الصغار على الدوام . وثمن مسافة ثلاثمائة خطوة ، تقطعها العربة بسرعة ، هو سنتيم واحد ، وكانت أصوات الصغار تعلو على اصوات النواقيس .

ومن المؤكد ان التحول السياسي ، الذي يتمثل في الجزائر في سيادة شعب غريب ، لم ينقص من أفراح هذا الشعب ، إلا أن هذه المباهج والأفراح قد فقدت الكثير من صخبها وأصالتها . ولم يكن القناصل وأتباعهم ، ولم يكن يقيم في الجزائر غيرهم ايام حكم الداي ، يجرؤن على ترك بيوتهم خلال شهر رمضان ، مثلما لم يكن يجرؤ على ذلك يهود المدينة . فقد كان الشعب يتطرف في تصرفاته ، وهو يعبر عن مباهجه ، فكان من السهل أن يؤدي كل ذلك الى المعاكسات والاهانات ضد أصحاب المعتقدات الأخرى . وقد اتخذ العيد الآن مظهرا مرحا بصورة مطلقة . فالمسلمون أنفسهم يستسلمون لبهجة العيد دونما حرج ، بحيث ان العيد لا يسبب لأحد رهبة أو خوفا . ولعلهم يشعرون في اعماقهم ، على الرغم مما هم فيه من تزمت ، بالفرق بين الحاضر والماضي فالقسم المثقف على الأقل لا يتمنى أن يحل جلادو الداي ، الذين كان منظرهم يرعب الغنى والطموح على حد سواء ، محل الحراس الفرنسيين ذوي السراويل الحمراء !

كان الآباء الحضريون ينظرون إلى صغارهم المرحين في إبتهاج ، ويمسحون لحيهم في رضا ، ولا يدعون مجالا لكل ما يعكر عليهم سرورهم الأبوي . والنساء الحضريات لا يشاركن في الواقع في مباهج العيد بصورة مباشرة ، ولكنهن يتفرجن على المشاهد البهيجة بحرية ، ووجوههن محجبة ، لا ترى منهن إلا عيونهن السوداء ، التي تلتمع فرحا لدى منظر الأطفال ، وهم يلعبون ويمرحون . وقد منعن في ايام الداي حتى من هذه المسرات البريئة . أما النساء المحجبات ، اللواتي كن يظهرن آنذاك في الشارع ، فكن كلهن من البغايا العموميات (82/1 — 84)

الحفلات العائلية :

ويخلص المؤلف الى الحديث عن الحفلات العائلية ، وهي في نظره من هذا النوع الصاخب ايضا ، وقد أتيح له أن يحضر أعراس الحضر في الجزائر مرتين ،

كما دعي فيما بعد لحضور حفلة عرس تركي في عنابة ، وعرس كرغلي في مستغانم ، ويصف الحفلات بانها كانت كلها متشابهة . فبعد أن يعود الرجال من عند المفتي ، يمضون بمجرد غروب الشمس ، تصاحبهم الموسيقى والفوانيس الكبيرة ، الى منزل العروس ، فتتبعهم هذه في لباس فخم ، ولكنها محجبة كالعادة برداء حريري ابيض ، الى بيت العريس . أما العرائس من الطبقة الراقية فيقطعن المسافة على ظهور البغال فيما يشبه القفص ، يحجبهن عن عيون الرجال .

وعندما تصل الى بيت العريس تقاد الى غرفة مضاءة ، تتناول فيها طعامها مع الحاضرات من النساء ، وترقص وتتسلى ، بينما يجتمع الرجال في البهو ، ويحتفلون ويطعمون في غمرة الأغاني والهتافات .

ويحيط ببيوت المتزوجين الجدد دائما جمع غفير من الناس ، ويدخل الى الفناء عدد منهم زيادة على المدعوين ، يصعب اخراجه ! ولهذا فالفناء مملوء دائما بالناس ، الذين يتربعون فوق الأرض المرمرية ويدخنون ويشربون القهوة ثم تقدم قصعة كبيرة من الطعام ، فيلتف حولها الضيوف كلهم ، ويأكلون بملاعق خشبية . وبعد الطعام تقدم الأكلة الرئيسية ، وتتمثل في الخروف المشوي ، الذي يقطع ويوزع على الحاضرين . ثم تقدم الفواكه المختلفة ، وخاصة البطيخ والتمر والبرتقال ، الذي يوجد في الجزائر طوال السنة تقريبا . وفي النهاية تقدم القهوة ، ويستمر تقديمها حتى الصباح ، وذلك اثناء مشاهدة العروض الفنية . ويأتي أولا الموسيقيون والمغنون ، يقودهم موسيقار الداي ، على الخياري ، في هدوء ووقار ، ويقوم بالدور الأول في الحفلة فيحدث الحاضرين طورا ، ويغني طورا آخر ، ويروي لهم قصص الحب . أما الراقصات فهن من بنات الشارع ، وغالبا ما يرتدين ثيابا فاخرة ، ولهن حظ من الجمال من جهة نظر الأهالي على الأقل . ورقص هؤلاء البغايا رتيب لا جمال فيه أصلا ، فهن يلوحن في الهواء برداء كبير شفاف أو منديل ، ويحركنه حركات متنوعة دون أن يتركن مكانهن ، واجسادهن تهتز بشكل مثير ، فكل شيء فيهن يرتعد ، الرأس والصدر والأيدي والأرجل . والظاهر ان الحضر يجدون لذة كبيرة في مشاهدة هذه الحركات الخليعة . أما بالنسبة للأروبي ، فهي ، على العكس من ذلك ، تضحكه أولا ، ثم تضجره وبالتالي تثير

اهتزازه . فهذه الحركات مكشوفة ، وهي صورة طبق الأصل ، تجسم اللذة دون ان يكون لها شيء من جمال ، ومن غير أن تحتوي على ذلك الدلال ، وتلك الخفة ، وأنواع الفتنة التي يحدثها الرقص الأسباني ، فيشد المشاهد الى جمال الراقصة ، وثيابها الفاخر ، وزينتها الرائعة .

والرقص مهنة رابحة ، فبعد كل رقصة تقترب الراقصة من المشاهد الجالس هناك ، وتحني رأسها فوقه ، واللياقة تحتم عليه ان يلصق بماء الورد أو بلعابه قطعة نقدية فوق وجهها . وحين يمتلىء بالقطع النقدية ، تحرك رأسها فتتساقط في منديلها . وقد اكد لي احد الجزائريين انها تتقاسم ذلك مع صاحب العروس ، وهو ما يشبه ضريبة العرس بالنسبة للمدعوين .

ويتسلى النساء في الطابق الأعلى بالطريقة نفسها ، وكثيرا ما سمع زغرداتهن ، التي تشبه صراخا حادا ، يستمر مدة طويلة ، ويصعب تقليده . وهذه الزغردة نفسها تسمع في الحفلات والمآتم ، في السلم والحرب . ويقول المؤلف انه سمعها حتى في حفلات الختان . وحين وقفت طلائع الجيش الفرنسي سنة 1837 فوق منحدرات المنصورة الصخرية ، رحبت بها نفس الزغردة بمصاحبة صفير الرصاص !

وبالتالي تقاد العروس الى غرفتها ، فتنزع عنها ثياب العرس ، وتقدم لها صديقاتها بعض الارشادات ، تتعلق بسلوكها في وضعها الجديد . ويرافق الأقرباء العريس إلى الباب ، فيعانقوه هناك ، ثم يدخل الغرفة ويرى العروس لأول مرة بدون حجاب . وبعد لحظات تتردد زغردة النساء من جديد في جوقة لا تنتهي . وتعزف الموسيقى في البهو ، وتتصاعد الهتافات في الدار وفي الشارع . وهذا الصراخ الحاد يعلن أن الزواج قد تم كلية (84/1 — 88) .

ويتحدث المؤلف بعد هذا عن الطريقة ، التي تتم بها عقود الزواج ، فيذكر أن الشبان الحضريين يصلون إلى سن البلوغ في الثالثة أو الرابعة عشرة . ويتزوج ابناء الأثرياء عادة في الثامنة عشرة ، ويتزوج غيرهم حين يصبح في امكانهم أن يعيلوا امرأة . فاذا سمع شاب بفتاة جميلة ، ورغب في مصاهرة اهلها ، فانه

يبحث عن خاطبة لها علاقة بأهلها ، تتيح لها الدخول إلى بيتهم ، والعجائز لا تنطبق عليهن القوانين التي تنطبق عادة على الجنسين ، وإذا كن متمسكات بالحجاب واستعماله ، فانهن يفعلن ذلك بحكم العادة فقط ، وسوف لن يعيب عليهن أحد نزع الحجاب . والخاطبات يتمتعن في الجزائر بالحرية التي يتمتع بها الرجال ، فلا أحد يهتم بما يفعلن .

وهكذا يختار الشاب ، الذي يرغب في الزواج سيدة من هؤلاء الخاطبات ويتخذ منها رسولا لحبه ، ويقدم لها هدية متواضعة ، ويعدها بأكثر من ذلك ان هي قدمت له معلومات صادقة عن جمال الفتاة ولطفها . وتقبل الخاطبة بطبيعة الحال ما عرض عليها ، وإذا كان الشاب غنيا وذا سمعة طيبة ، فإنها تسرع في الحال الى والدي الفتاة وتبوح لهما بالسر الذي عهد اليها به ذلك الشاب . فاذا ارتضياه صهرا ، فأنهما يقدمان لها بعض الهدايا لكي تطرى جمال ابنتهما على اية حال ، وتتم خطبة الفتاة الشكلية على يد الخاطبة نفسها فيجتمع الوالدان ويتفقان على الصداق الذي يجب أن يدفعه الشاب للفتاة . فاذا تم ذلك ذهبا الى القاضي ، فيعد هذا عقد الزواج الشكلي ، ويحدد يوم العرس ، ويطلب القاضي ، الذي يستلم بدوره ما يستحقه من مال في سخاء ، الماء المحلي ويشربه مع الوالدين . وعقب ذلك يقرآن معه الفاتحة ، ليتم الزواج على بركة الله . والمعروف أن المسلم له الحق في أربع زوجات ، أما الأخريات فهن اماء ، الا أن الجزائر ليس فيها أحد يملك حريما حقيقيا ، وهناك عدد قليل من الحضر لهم أكثر من زوجة . (88/1 — 89)

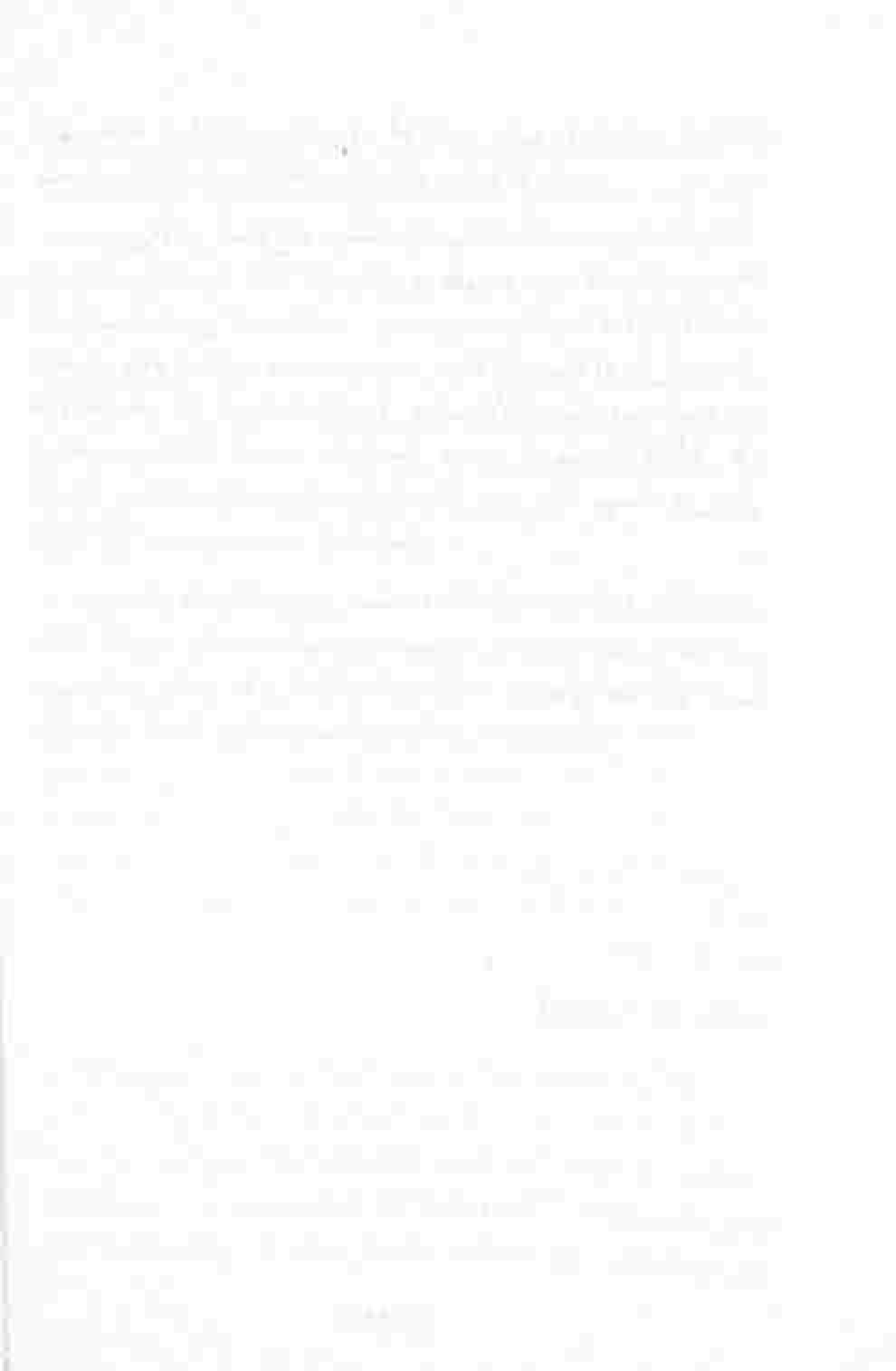
حفلات الختان والولادة :

ويذكر فاغنر أيضا هذا النوع من الحفلات ، فيقول أنه يشبه الحفلات الأخرى تماما ، والوليد الجديد لا يحمل إلى المسجد ، ولا يختن الأطفال إلا في الرابعة ، ويدعي الرجل الذي يقوم بهذه العملية ، البشار ، وما هو برجل دين ، وأقصى ما يتسلمه من الأثرياء هدية لا تزيد عن ثمانية «بوجو» ، أما الفقراء فإنه يختن أولادهم مجانا . ويتم ختان أبناء البادية على يد المرابط ، فالختان بالنسبة لعرب

الريف حفلة دينية اكثر منها دنيوية . أما الحضر فانهم على العكس من ذلك يطعمون ويكررون نفس الحفلات التي تقام بمناسبة الأعراس .

ويروي فاغنر أنه أتيح له صدفة ، وكانت تلك الصدفة غريبة ، أن يحضر في عنابة حفلة نسوية . فقد كان يسكن في مقهى فرنسي ، فاستطاع من غرفته أن يراقب عددا من البيوت المجاورة . وذات يوم جذبته الى النافذة زغردة النساء المتكررة ، وسمع في الوقت نفسه نغمة الطنبور ، مما اثار فضولة ولم يكن ليدع مثل هذه الفرصة ، التي تتيح له التعرف على عادات الأهالي وتقاليدهم ، تضيع منه ولو اقترنت بمغامرة لا تحمد عقباها ، فاجتاز عددا من السطوح الى أن أطل على فناء الدار ، فشاهد أكثر من أربعين امرأة ، كن يرتدين ثيابا نفيسة ، من بينهن فتيات جميلات ، وحضريات رائعات الطلعة .

واستطاع فاغنر أن يرى في هذه الحفلة أشكالا من الزينة ، وألوانا من الجمال البديع ، وذلك دون أن يزعج حضوره فوق السطح النساء ، فقد كن يغنين ويرقصن ويقمن بنفس الحركات المثيرة المتماوجة ، ويصفها أيضا بأنها كانت حركات آلية محفوظة رتيبة ليس لها أدنى حظ من الجمال والامتاع .



الفصل الحادى عشر

انطباعات رحالة الماني في مقاطعة وهران

هذه ترجمة لرحلة موريتس فاغنر التي قام بها في مقاطعة وهران مدينة معسكر ، حين كانت عاصمة الأمير عبد القادر ، ويعود تاريخها الى شهر مارس 1838 . وهذه الرحلة تطلعنا ولا شك على نوع من التفكير كان سائدا في القرن الماضي عند كثير من المستعمرين ، ساسة ومثقفين ، ولعل بقاياه لا تزال تعيش في بعض الأدمغة إلى يومنا هذا . ذلك أن فاغنر يتحدث فيها بمنطق عصره حين يصف من التقى بهم أو رآهم أو سمع بهم بالهمجية لمجرد رفضهم للغريب الدخيل ، ولمجرد أنهم يدافعون عن سيادة وطنهم كما أنه يكشف اسرار عصره عندما يتحدث عن المآمرات التي تحاك وراء الستار وهذا المنطق نفسه هو الذي جعله ، رغم المظهر الذي حرص على اتخاذه ، يقضي رحلته في رعب يبلغ حد السعر والوهم ، وكانت تجربته معه فريدة !.

* * *

كان الرئيس بيليسي ، مدير الشؤون العربية قد زودني عند مغادرتي لمدينة الجزائر برسالتين كتبتا باللغة العربية باسم الوالي المارشال فالي ، وختمتا بخاتمه . كانت إحداهما موجهة إلى الأمير عبد القادر ، والأخرى إلى حاكم معسكر الحاج بخاري [1] ، وكنت قد قدمت إليهما من خلال هذه الوصية ، التي لم تكن تخلو

من الخارج ، على اعتبار أنني طبيب عالم يريد أن يقوم برحلة داخل المقاطعة ليجمع خلالها الأعشاب الطبية ويصنع منها أدوية .

لقد كان أدعاء مهنة الطب أفضل وسيلة للتخفيف من حدة ارتياب الشيوخ العرب والحصول منهم على إذن بالسفر إلى داخل البلاد . إلا أن هذه الوسيلة لم تعد اليوم ـ للأسف ـ ناجعة مفيدة . فقد استغلها عدد كبير من المغامرين والمتطفلين واستهلكوها ، مما زاد في ارتياب العرب . فأصبحوا يرون في كل أروبي جاسوسا فرنسيا ، يرغب في أن يجمع المعلومات عن مناطق البلاد ، التي لا تزال مجهولة عند الفرنسيين ، وأن يرسم الخرائط ، ويضع الخطط ، ويستطلع وسائلهم الدفاعية .

ولذلك أصبحوا يحاولون جهدهم التفنن في تصوير المتاعب والأخطار ، التي تنتظر الرحالين ، الذين يدعون لرحلاتهم أغراض علمية ، ويتحدثون عن الفقر الشديد الذي تعاني منه بلادهم . ويقولون إن الجبال لا تتوفر على الذهب ، وأن الحجارة والنباتات لا تختلف عما يوجد منها في الساحل . لقد كانوا يخشون أن يتم اكتشاف مورد من الموارد النفيسة في داخل البلاد ، مثل جبل غني بالمعادن أو سبخة مالحة أو حمام معدني فيحمل الفرنسيين على الاستيلاء عليه والاستقرار بداخل البلاد . ومن ثم كانوا يرتابون حتى في الطبيب النباتي على براءة ما يقوم به . فقد كانوا يتصورون أن عثوره على أعشاب ثمينة قد يكون سببا في إرسال جيش لحماية جامعي النباتات .

كان مشروع رحلتي يتمثل في أن أتجه أولا من وهران إلى معسكر ، العاصمة الداخلية للمقاطعة الغربية ، التي كانت حتى ذلك الحين مقر الأمير عبد القادر ، تحت حراسة عامل من عمال الأمير ، وكنت أريد أن أقضي بضعة أسابيع عند القنصل الفرنسي ، وأتباحث معه في أفضل الوسائل التي تمكنني من الوصول إلى مناطق الأطلس الداخلية المجهولة . وكان في نيتي أن أتجه بعد ذلك من معسكر إلى تلمسان ومنها إلى الانجاد وإلى القبلة ، التي تعتبر تابعة لبلاد الجريد ، فأمر ببعض الواحات الشمالية إن أمكن ذلك . ثم أعود إلى الجزائر عن طريق تاقدامت ومليانة والمدية .

وكنت على علم بالصعاب التي ستجابهني في رحلتي هذه وكانت تتمثل في ارتياب شيوخ العرب وفي كره سكان داخل البلاد للنصارى وضعف سلطة الأمير في بلاد القبلة . ومع ذلك قررت أن استعمل مختلف الوسائل من أجل كسب مودة عمال الأمير وإضعاف حدة ارتيابهم ، سواء تم ذلك عن طريق الهدايا والوعود أو عن طريق الأعذار المناسبة . وقد بنيت أملي كله على خلق الأمير عبد القادر ، الذي كان أكثر لطافة وأحسن معشرا ، وأكثر بعدا عن الأحكام المسبقة من معظم عماله ورجاله [3] . وكان قبل ذلك بأشهر قد استقبل صديقي بوديشون وبير بروجير ، اللذين كان لهما مشروع مماثل ، استقبالا حسنا ووعدهما بأن يوفر لهما الحماية والحراسة ويزودهما بالوصايا بمجرد أن يتما استعداداتهما للرحلة ويتصلا به في المدية أو معسكر ، فكان تأثرهما باستقبال الأمير لهما بالغا ولو أنهما كان يخشيان ألا يكون أمير العرب الداهية جادا في أقواله وأن يكون لديه ما يتذرع به عندما يأتيان لزيارته وهما على استعداد تام للقيام بالرحلة .

لقد كنت أريد ، بناء على ما سينصحني به القنصل دوماس الذي كان يعرف البلاد وأهلها أحسن مني أن أدعي بأني طبيب نباتي أو عامل منجمي أو تاجر . وكنت على استعداد للقيام بأي دور من هذه الأدوار عندما تتطلب الظروف ذلك . وكان الفريق رابتيل ، القائد العام لمقاطعة وهران ، قد قدم لي لهذا الغرض رسالة موجهة إلى القنصل الفرنسي . أما طبيب القنصلية ، السيد فارني ، فقد حملت إليه رسالة من الدكتور غويون ، طبيب هيأة أركان الجيش ، الذي لم يكن يدخر وسعا في مساعدتي كلما وجد إلى ذلك سبيلا ، وكانت لدى أيضا رسائل إلى الترجمانين بن عمران وعياش ، ومن هنا كنت أرى أن نجاح مشروعي يتوقف على المساعدة اللطيفة التي سوف أتلقاها من موظفي القنصلية الفرنسية .

كانت المواصلات بين وهران ومعسكر قليلة في ذلك الحين ، ورغم أن معاهدة الصلح كان قد مضى عليها عام كامل ، فقد كانت الكراهية التي أشعلتها ويلات حرب قاسية بين العرب والأوروبيين ، رهيبة إلى درجة أنه لم يكن من السهل عليهم أن يقيموا فيما بينهم بسرعة صلات حميمة ، ذلك أن أعمال النهب والقتل

لم تكن قد انتهت رغم معاهدة التافنة [1] ولم يحاول أي من الطرفين إخفاء هذه الكراهية والبغضاء .

فقبل وصولي بأسبوع واحد عثر على جثتي جنديين قتلا في نواحي وهران فأثار ذلك سخط الأروبيين ورعبهم من جديد . وعندما تحدثت أثناء جلسة مع الضباط عن رغبتي في القيام برحلة إلى معسكر سمعت منهم آراء متباينة ، وكان أغلبهم يرون أن مثل هذه الرحلة لا تخلو من خطر حتى في حالة وجود دليل يمكن الاعتماد عليه ، بل إن أحدهم وهو طبيب عسكري ، قد أعرب عن رأيه اذا وهو أنه ما كان ليقوم برحلة من هذا النوع دون أن يترك وصيته . وتحدثت مرة أخرى عن مشروعي مع الجنرال راتيل . ولكن جوابه لم يكن يبعث على الاطمئنان ، فقد ذكر أنه هو نفسه لا يستطيع أبدا أن يأتمن على حياته بمفرده هؤلاء القمح الخونة . ولكنه يعتقد أن اللحظة الراهنة لا تتميز بأخطار خاصة ، واعتذر بعد ذلك بأنه لا يستطيع أن يحكم على الأوضاع حكما سليما ، لأنه لم يعين قائدا عاما لمقاطعة وهران إلا قبل فترة وجيزة ، ولذلك وجهني إلى قائد أركانه العقيد موسيون . والتقيت في مساء اليوم التالي بهذا الضابط المحترم على مائدة الجنرال راتيل ، فطمأنتني المعلومات التي قدمها لي كل الإطمئنان .

كان العقيد موسيون نفسه قد شغل لفترة طويلة منصب القنصل الفرنسي في عاصمة عبد القادر بعد نهاية الرائد مينونفيل الأليمة ، فقد أتيح له أثناء سفره إلى معسكر وخلال إقامته فيها أن يتعرف على الأحداث السياسية في داخل البلاد وأن يستغلها على أحسن وجه ، وزاد حديثه عن الحياة في معسكر وعن التنظيم السياسي والعسكري في الدولة العربية الحديثة ، وعن تقدمات مقر الأمير عبد القادر الجديد ، من رغبتي في القيام بالرحلة فوجدتني في الساعة الخامسة من صبيحة اليوم التالي في فناء مقر الجنرال ، وأنا على أتم الاستعداد للسفر ، وكلي أمل في نجاح رحلتي ، كانت قد وقفت فيه القافلة الصغيرة ، التي كنت سأقوم برحلتي معها . وهي على أهبة السفر ، وهناك تعرفت على مرافقين لطيفين ، كان الفرح والفضول يدفعانهما إلى القيام بهذه النزهة .

كان قنصل فرنسا في معسكر آنئذ هو السيد دوماس . نقيب الكتيبة الثانية بقناصة إفريقيا ، الذي كان يتمتع بسمعة طيبة بصفته ضابطا قديرا مثقفا ودبلوماسيا ماهرا ، ومع أنه كان يحيا مع حاشيته ، المتمثلة في طبيب وترجمانين وبعض الخدم العسكريين ، حياة رزينة متواضعة في مدينة عربية صرفة ، فإن المنتجات القليلة التي كانت تقدمها له البلاد الفقيرة ، لم تكن تكفيه على قناعته ، ولذلك كانت هناك قافلة صغيرة من البغال تزوده كل ثلاثة أو أربعة أسابيع بضروريات المائدة الفرنسية ، وبهذه الطريقة كانت ترسل إليه الخمور والسكر وبقية المنتجات الصناعية الصغيرة ، التي لا يشعر المرأ بمدى ضرورتها إلا حين يعيش في منطقة لم تعرف الصناعة بعد . وكان البغالون من الجنود الفرنسيين التابعين لمصلحة النقل ، ومن هنا كان يهمهم أن يقوموا بهذه الرحلة لأنها تتيح لهم في كل مرة أن يستريحوا بضعة أيام من القنصلية وأن يتمتعوا بمشاهدة مناظر من الحياة الافريقية الصرفة في معسكر ، كما تمكنهم من شراء بعض الأشياء بأسعار رخيصة وفي مقدمتها الدواجن ، يحملون بها ظهور بغالهم الفارغة وينقلونها إلى وهران ليبيعوها ويكسبوا من ورائها مالا وفيرا . وكان يرافق هذه القافلة دائما عربي في خدمة عبد القادر بعينه وكيله أو قنصله في وهران بناء على طلب تقدم به إليه الجنرال ليضعه تحت تصرفه "(*) . لقد قمت برحلتي مع قافلة من هذا النوع وكنت قد استأجرت في وهران حصانا متوسطا بخمسة فرنكات في اليوم الواحد ، وكانت أمتعتي قد حملت فوق ظهور بغال القافلة ، وقد سعدت في رحلتي هذه برفقة كل من النقيب دوماس والسيد فارلي الطبيب العسكري الشاب .

وتحركت قافلتنا يوم 26 مارس 1838 بعد أن صافحنا رانتيل الجسور ومرافقه الضابط سافور لمدة طويلة كما لو أننا كنا نريد القيام برحلة طويلة خطيرة واتجهت نحو الباب الشرقي ، ثم سارت على مهل فوق هضبة وهران التي كانت مخضرة في ذلك الحين وكان دليلنا وهو بدوي أشيب ، قد التف في برنس بني اللون متسخ ، واتخذ تلك الهيأة الخاصة بالعرب وهو يقتعد ظهر بغل ، أشهب ، يبدو عليه التلف مثل راكبه ، ومع ذلك فقد أخجلا في اثناء الرحلة دوابنا المسمنة ومرافقي ، وكانا أكثر سمنة بصحتهما وقدرتهما على التحمل . وبما أننا كنا نود أن

تكسب مودة دليلنا ، وندخل السرور على قلبه ؛ فلولا حمايته لنا لقتلنا في الساعات الأولى ، فقد وجهت حصاني نحوه ، وسرت إلى جانبه وحاولت أن أبدأ حديثا معه ، فألقيت عليه سؤالا من الأسئلة العادية في هذه البلاد .

— واش حالك سيدي ، واش انت ؟

فأجابني بصوت متذمر .

— بخير [5] .

ورد على بقية أسئلتي المتعلقة بالطريق والطقس بنفس اللهجة المتذمرة . لقد كانت ملامحه القاسية تثير في النفس انطباعا رهيبا ، فكنت أمد يدي بحركة لا شعورية تقريبا إلى مسدسي ، كلما نظر إلي من خلف أهدابه الخشنة نظرة تشبه نظرة الضبع . وحين كنت التفت بعد ذلك إلى مرافقي ، كنت أجدهم يسيرون بهدوء إلى جانب البغال المحملة .

لقد مررنا قريبا من المعسكر الفرنسي للخيول الطائرة ، الذي يقام سنويا في المروج الخضر إلى أن تأتي الخيل على نباتات الربيع المقوية ، التي تمدها بالحيوية والنشاط على مدار السنة كلها . وكان الكونت سان فارجو [6] ، رئيس كوكبة الفرسان ، هو الذي يشرف على هذا المعسكر المرتجل . وكان قد دعاني قبل ذلك بأيام إلى زيارته في خيمته والقيام معه بنزهات ، نراقب خلالها الحشرات ، وكان بودي أن أزوره ، ولكن خوفي من أن أخطيء الطريق وألا ألحق برفاقي في الوقت المناسب ، جعلني أتخلى عن هذه الزيارة ، لا سيما وأن رجال قبيلة الغرابة كانوا يتربصون في تلك المنطقة بالأوروبيين المنفردين لنهبهم أو قتلهم بدافع حقدهم الرهيب .

وبعد ثلاث ساعات غادرنا المنطقة الفرنسية التي كان يفصلها عن مملكة السلطان عبد القادر ، في هذه الجهة مستنقع عرضه خمسمائة متر ، ودخلنا سهل تليلات ، وهو عبارة عن حقول واسعة إلى حد ما . ولكنها قليلة الخصوبة تغطيها الأوحال والأدغال الكثيفة ، وهنا بدأ يظهر حقيقة ذلك العدد الكبير من

القواقع ، التي كثيرا ما حدثني عنها بعض من رافقوا حملة معسكر ، إلا أن أنواعها لم تكن كثيرة وكانت القواقع الزعفرانية ، التي تنتهي صدفتها البيضاء بدائرة صفراء تضرب إلى السمرة ، تشكل القسم الأكبر منها ، فكانت تخلع على مختلف الأدغال والأزهار منظرا بهيجا . ومع أني رأيتها فوق كل نبتة ، فالظاهر أنها تفضل الاقامة فوق نباتات الدبق ، التي يكثر وجودها في سهل تليلات . كانت هذه القواقع البيضاء تمتد بمثابة قلادة طولها آلاف الأذرع فوق شبكة عريضة من أوراق الدبق والفلفل الكاذب والنخل الشائك والشحص والخروب . وكثيرا ما كان هذا البساط المتحرك من القواقع يتحول الى زخارف بديعة ، فيتصورها المرء براعم مرة ، وندف ثلج مرة أخرى . وتبدو له في بعض الأحيان بمثابة ثريات ونجوم ترف فوق الأغصان . وكانت تغطي بعض الأشجار العارية بشكل غزير ، بحيث لم يكن هناك منفذ لرؤية قشرتها ، فتبدو وكأنها أشجار صدفية خارجة من الأرض . وكانت هذه القواقع هي التي أنقذت تقريبا الجيش الفرنسي من الموت جوعا [7] ، فقد طبخت في المكان الذي عسكرت فيه جيش المارشال تريزيل اثناء انسحابه من معسكر ، وقد أنهكه التعب وقلة التغذية وقدمت طعاما لجميع أفراده من ضارب الطبل إلى العقيد ، وقد حدثني عن ذلك النقيب ماغيوس قائلا : « لست أدري ماذا كان سيصير إليه أمرنا لو أننا لم نعثر على هذه الرخويات ، التي لم تكن تعرف أبدا أنها ستصبح بالنسبة لنا وجبة شهية . كانت معدتنا في ذلك الحين فارغة كالكرات الهوائية . وكانت أقدامنا المتعبة تأبى حملها» .

وتسكن سهل تليلات قبيلة الغرابة . التي اشتهرت في الحرب مع الفرنسيين بقوتها وميلها إلى النهب والقتال وكانت هي التي هاجمت جيش الجنرال تريزيل المهزوم في المقطع وقضت على مؤخرته وأسرت السيد دى فرانس سنة 1837 وغارت على قبيلة الزمالة المحالفة لفرنسا عندما توجه الجنرال بوجو الى التافنة . وقتلت نساءها وأطفالها واستولت على قطعان ماشيتها . وقبيلة الغرابة في مقاطعة وهران شبيهة بقبيلة حجوط في مقاطعة الجزائر . فكلتاهما تمارس السلب والنهب بطريقة وقحة ، وعلى استعداد دائم للإغارة على المناطق الفرنسية ، والتربص بالمتنزهين والصيادين المفردين ومن ضلوا طريقهم ، والفرار بأسرها وقطعانها إلى

الجبال ، كلما أراد طابور فرنسي رد زيارتها والانتقام منها لما تقوم به من أعمال السلب والنهب . وقد قال الامير عبد القادر ، مرة للقنصل الفرنسي ! «إن افراد قبيلة الغرابة قتلة من الطراز الأول ولكنهم يشكلون أفضل جنودي . » وعدد أفراد قبيلة الغرابة يزيد بكثير عن عدد أفراد قبيلة حجوط . وفي وسعها أن تجند ما يزيد عن ألف فارس . حقا إن قبيلة بني عامر وقبيلة فليتة أكثر عددا ، ولكنهما ليستا محاربتين ولا مرهوبتي الجانب مثل قبيلة الغرابة .

ولا شك أن مرافقي كانت تعتمل في نفوسهم أحاسيس مؤلمة وهم يمرون عبر منطقة هؤلاء الأحلاف ، دون أن يكون لهم حارس آخر غير الدليل الذي كان من طراز أبناء الغرابة في شكله وتفكيره وكرهه للنصارى . فمع أن الوكيل كان قد عينه لحمايتنا فانه لم تكن تبدو عليه أية رغبة في الدفاع عنا ، والمخاطرة بحياته في سبيلنا في حالة وقوع هجوم علينا ، ولم يكن يحمل أي نوع من السلاح . ورغم أنه كان في خدمة الأمير ، فإننا لم نكن نتصور أن مظهره البائس يمكن أن يوحي لمواطنيه بالإحترام . ترى هل سينتقم الأمير عبد القادر لنا لو أنا قتلنا أمام دليلنا ؟ وإذا قال له اتباعه من المسلمين : «أتريد أن تهدر دماء المسلمين الطاهرة انتقاما لدماء النصارى الكلاب» فهل يتجرأ الأمير عبد القادر ، الذي لم يقم حكمه ، خلافا للبايات الأتراك ، على الظلم والارهاب ، وانما أقامه على مكانته كمرابط وعلى الروح الدينية المتعصبة ، التي كانت تسيطر على القبائل الموالية له — هل يتجرأ على معاقبة قبيلته الرهيبة ، وهي أفضل ركائزه في الحرب ، بسبب اغتيال بعض المسيحيين ؟ وحتى إذا كنا لا نخشى عداوة القبيلة كلها ، فمن يضمن لنا أن حياتنا لن تتعرض لخطر رصاصة يطلقها متعصب ما من بين الأوغاد دون أن يخشى اكتشاف أمره ؟ إن من يعرف في الحقيقة مدى ضعف السلطة ، التي يمارسها الخليفة على الشيوخ ، والشيوخ على العامة ، ويعرف مدى قلة الطاعة بين هؤلاء الهمج ، الذين لا يحتملون الخضوع لأي نظام ، ومدى تهاون الرؤساء في المعاقبة على الجنايات ، التي ترتكب ضد الكفار ، من يعرف نظام العرب الفوضوي وطبائعهم التي يصعب التحكم فيها والإطمئنان إليها ، فإنه سيجد ما اعترى قلوبنا فيها من هلع ، فتعالت دقاتها ، أمر

طبيعيا وهذا قبل أن نتعود على قرب الخطر ويعمر نفوسنا نوع من اللامبالاة وإن كانت لا تعني الهدوء والاطمئنان »[1].

لقد كنا في الساعات الأولى ننظر في مرج الأدغال المقفر فلا نرى أثرا لمنزل عربي ، ومع ذلك كثيرا ما كانت أخيلتنا المثارة تظهر لنا شجيرات الفستق المنسقة تنسيقا بديعا بمنظر الخيام المصنوعة من شعر الجمل ، وترينا علم الضريح الأبيض الخافق بمثابة برنس بدوي مختبيء ، وتصور لنا عواء بنات أوى الخافت بمثابة صراخ قبيلة الغرابة في المعركة !

وعندما اكتشفنا بعد ذلك أن حواسنا تخدعنا في كل مرة بدأ الهلع الرهيب يزايلنا شيئا فشيئا ، وواصلنا في النهاية رحلتنا عبر المنطقة المهجورة هانئي البال إلى حد ما .

وكان دليلنا الشيخ كثيرا ما يتأخر عنا ليؤدي صلاته ، وبما أن الظلام كان قد بدأ في الهبوط فقد قررنا أن نراقب حركاته وسكناته . كانت الشمس قد أوشكت على الغروب فنزل الشيخ العربي عن بغله الذي راح ينتظره في صبر ، لأنه كان متعودا على الاستراحة بينما انتحى سيده جانبا ، وانغمر في صلاته بعمق ، وحين انتهى منها كان آخر شعاع من أشعة الشمس قد اختفى ، فارتفع عن الأرض في تثاقل كبير وعندئذ لاحظ أننا كنا خلفه نشاهد صلاته . فنظر إلينا نظرة مسمومة وصاح فينا بلهجة حانقة ليبعدنا عنه : «امشوا ، امشوا»[2] وحين لحق بنا بعد حين كان قد استعاد لطفه ، الأمر الذي أثار دهشتنا فقد سألنا عما إذا كنا نريد قضاء ليلتنا في دوار قريب ، لأننا لن نعثر بعد على قرية عربية أخرى إذا ما نحن واصلنا رحلتنا خلال ساعة من الزمن . ومع أننا كنا نود أن نواصل رحلتنا أثناء جزء من الليل ، فقد سرنا أن نأخذ باقتراح دليلنا ، لأن جيادنا كانت قد تعبت وما كانت تستطيع مواصلة السير دون علف ، ولأننا كنا نحن أيضا نرغب في الجلوس حول نار مسلية تشتعل في خيمة وتناول طاس من الحليب والمبيت في خيام دافئة ، وبعد ذلك أخذ بدوينا يسير جانبا عبر الأدغال ، فلم نلبث أن وجدنا أنفسنا في غابة من الأحراش ، لا أثر فيها لأى طريق واستمر

فترة من الزمن ، كانت الأدغال خلالها تشتد حينا وتخف حينا آخر ، وكانت الجياد تشخر والبغال تصيح ، ولكن الدليل العجوز كان يسير أمامنا دون أن يلتفت إلى الوراء ، وكان يبدو عليه أنه يعرف الطريق معرفة جيدة .

وبعد أن ركبنا حوالي نصف ساعة ، وصلنا إلى ساحة كبيرة مضاءة تغطيها خيام سوداء، وقطعان سارحة ورفض سكان الدوار الأول السماح لنا بالمبيت ، ولم نر غير النساء والأطفال الذين كانوا ينظرون إلينا نظرة حاقدة معادية ويطلبون منا من خلال الشتائم أن نواصل سيرنا ، وحين بلغنا الدوار الثاني راح دليلنا يفاوض الشيخ ، وهو أيضا بدوي عجوز قبيح رث الثياب مثله ، وأخيرا سمح لنا بالنزول ، وأتيح لبغالنا أن ترعى قرب الدوار ، وضربت لنا خيمة لنقضي الليل فيها وهدأت أسارير هؤلاء الهمج الذين استقبلونا أول الأمر بوجوه عابسة لم تنفرج إلا بعد أن تبادلنا معهم بعض الكلمات ، وحصل بيننا نوع من التعارف فجلسوا معنا حول نار كبيرة وسألونا عن الأخبار الجديدة وعما نعرفه بصورة خاصة عن الميلود بن عراش (13) الذي كان في ذلك الحين مبعوث الأمير عبد القادر إلى باريس وكان يحتل لديه مكانة متميزة باعتباره ابنا لمرابط من قبيلة الغرابة ، وانقضى جزء من الليل بين السمر والطرب ، ثم استلقينا بهدوء تحت سقف القصر المصنوع من شعر الجمل ، الذي كان قد أعد لنا ، ونمت بين هؤلاء اللصوص مطمئن البال ، كما لو أني كنت في بيتي ، وبندقيتي ذات الماسورتين بين يدي ، وعندما استيقظنا كانت رؤوسنا لا تزال بين أكتافنا ـــ كان ذلك أكثر مما كنا نتوقع !

ليس للناس في مقاطعة الجزائر أي تصور عن المجمعات الكبيرة للخيام البدوية السوداء ، التي يتخذ حجمها في بعض الأحيان شكل مدينة صغيرة ويسكنها عدد كبير من الأسر ، ويقيم بها عدد وفير من القطعان ، فعدد خيام الدواوير في مقاطعة الجزائر يتراوح بين ثماني وعشر خيام سوداء هوائية مصنوعة من شعر الجمل ، أما في مقاطعة وهران وفي المدن الجنوبية لمقاطعة قسنطينة والتيطري وفي جنوب ولاية تونس ، فإن هذه الدواوير قد تصل على العكس من ذلك إلى خمسمائة خيمة ، تفصل بينها فجوات قد تضيق أو تتسع ، ولكنها تشكل دائرة

وتبرز طبيعة المساكن ، التي يسكنها هؤلاء البدو وتجعلهم يتميزون بمميزات خاصة ، وكان هذا الدوار أكبر دواوير الغرابة ، التي شاهدتها في الجزائر ، وكان يضم ما يناهز مائة أسرة .

وكانت حول مدينة الخيام هذه قطعان كبيرة من مختلف الأنواع من بينها اللون الأسود [11] ، وعدد من التيوس المرحة المتوثبة والأبقار والثيران الصغيرة والهزيلة إلى حد ما ، وكان هناك في النهاية عدد من مردة القطعان ، من الجمال ، التي كانت رؤوسها وأسنمتها الشاحبة ترتفع كقطع الصخر وسط كتلة الماشية المتحركة ، وإلى جانب ثغاء هذه الكتل الحيوانية وخبيرها وصياحها كانت الكلاب البدوية البيضاء الطويلة الشعر ، التي كانت تشبه كلب البلدغ من جهة وبنات أوى من جهة أخرى ، تنبح نباحا متواصلا لشعورها بوجود الغرباء في مضرب الخيام ، والأعراب يفضلون الإقامة في الأماكن المنعزلة البعيدة عن الطرق العامة ، ولذلك لا يعرف مكان إقامتهم أحيانا إلا من خلال دخان نار الطبخ ، ومن المؤكد أنهم كانوا يريدون بذلك أن يتجنبوا صفاقة السخرية الصادرة عن إخوانهم في الدين ، الذين كانوا كثيرا ما يبالغون في استغلال كرم ضيافتهم ، وأن يتعدوا عن أعدائهم حتى يصعب عليهم الاقتراب منهم ، وما كان في إمكان كتيبة فرنسية أن تشق طريقها عبر هذه الأدغال الكثيفة دون أن ينتبه إلى وجودها رجال الغرابة قبل وصولها بفترة طويلة ويعملون على نقل قطعانهم وخيامهم إلى مكان آمن ، لقد كانت قبيلة الغرابة أثناء رحلتنا عبر أراضيها في حرب مع قبيلة بني عامر ، فكانت كل منها تغير على مضارب خيام الأخرى وتستولي على قطعانها وتقتل رجالها ، وكان الأمير عبد القادر في ذلك الحين غائبا في المدية ، وقد حاول خلفاؤه وأعوانه إزالة أسباب النزاع بين القبيلتين ولكنهم لم يجدوا آذانا صاغية .

كانت هناك هضبة عالية تتقدم جبال الأطلس وترى دائما تقريبا على البعد نفسه من البحر ، تفصل سهل تليلات عن سهل سيق أو هبرة ، ويسمى سيرات أيضا ، وهو أكثر جمالا واتساعا ، وكانت غابة مولاى اسماعيل تغطي هذه الهضبة وتحتوي على عدد كبير نسبيا من الأشجار والأدغال الجنوبية الخفيفة وتكثر بها خاصة أشجار المصطكاء ، إلا أن بها أيضا أشجار الزيتون البرى واشجار

الأثل الإفريقي وأشجار الصنوبر والخروب وأشجار البلوط الجنوبية المختلفة ، وفي مقدمتها أشجار الدبق ، ويؤكد العرب أن هذه الغابة هي مقر الأسد المفضل ، وقد نصحنا دليلنا بألا نسافر أبدا عبر هذه الغابة أثناء الليل ، وذكر لنا العربي أن الأسد يكمن على جانب الطريق ، وبدأ في الحين يروي لنا قصصا وحكايات عن الأسد [12] وما كاد ينتهي من ذلك حتى كنا قد تركنا خلفنا غابة مولاي إسماعيل وأسودها .

وامتد أمام أنظارنا سهل سيق الخصيب مرجا أخضر لا يرى له حد ، وشاهدنا فيه عددا كبيرا من الدواوير القريبة من الطريق والقطعان الكثيرة وكذلك عددا من الأضرحة ، ولأضرحة المرابطين في شمال إفريقيا ثلاثة اشكال . فعندما يموت مرابط عادي ، وهناك عدد من أمثاله في كل دوار ، يكتفي العرب بإقامة سور منخفض حول قبره ، ويرفعون في وسطه علما أبيض أو مجرد خرقة من القماش ، وإذا كان المرابط المتوفي وليا كبيرا ، وكان له تأثيره الديني على عدد من القبائل ، فإنهم يقيمون له ضريحا فوق قبره ، ولهذا الأضرحة ، التي يراها المرء في كامل البلاد ، بما في ذلك الأماكن المنعزلة ، قباب فوق سقوفها ، وهي تطل من بين أشجار الصبار أو من فوق جبل ، فترسم بألوانها البيضاء منظرا رائعا ، أما المرابطون المشهورون ، الذين يجلون ويعظمون في طول البلاد وعرضها ، فإن العرب يبنون لهم مساجد تحيط بها أسوار دائرية ، ويقوم على حراستها طالب أو قيم ، ولا تخلوا أبدا من المصلين ، وليس هناك عدد كبير من هؤلاء المرابطين والأوليا الذين يحظون بإجلال كبير ، وقد كان سيد محي الدين ، والد الأمير عبد القادر ، واحدا من هؤلاء الأولياء الكبار القلائل في هذه البلاد .

كانت رحلتنا عبر سهل سيق بطيئة إلى حد ما ، لأن دليلنا العجوز كان ينزل عن ظهر بغله أمام كل ضريح وينحني لأداء صلاته متكورا كالدودة ، وكان يجري في الحدود الجنوبية للسهل نهر سيق في اتجاه الجنوب الشرقي ، وهو واد صغير ، تشبه ضفتاه العاليتان المنحدرتان سورين متواصلي الامتداد ، ولمياه هذا الوادي لون أسود ، ويدعي العرب أن مياهه مسمومة ، وأن الحيوانات تقضي بمجرد أن تشرب منه . ويدعون أيضا أنه ما من فارس يترك حصانه يشرب من

مياهه إلا ويتركه للغربان ويواصل سفره بسرجه وعنانه . وبعد ساعة من مجرى وادي سيق تبدأ السلسلة الأولى من جبال الأطلس ، التي تمتد هنا من الشرق إلى الغرب . وكان علينا أن نصعد ثلاث سلاسل من هذه الجبال قبل أن نصل إلى معسكر ، وتفصلنا عن بعضها بعض وهاد رائعة تغطي مساحتها أزهار كثيرة ، ولكنها غير متنوعة ، وقد أعجبتنا منها السحلبيات بصورة خاصة ، أما أشجار الفستق الأطلسية فنادرا ما وقعت عليها أنظارنا فوق الجبال ، وهي تشبه أشجار المصطكاء تماما ، إلا أن ارتفاعها يبلغ أحيانا ستين قدما ، وقد سبق لي أن شاهدت هذا النوع نفسه في نواحي قسنطينة .

وفي يوم 7 مارس (1838) وصلنا ليلا إلى مدينة معسكر في وقت متأخر إلى حد ما . وكان الترجمان بن عمران قد خرج ليرحب بنا باسم القنصل على مسافة ساعة من المدينة . وأصبح ركوبنا أكثر ارهاقا ، فقد كنا نعلي ظهور الجبال لننحدر بعد حين ، ولم نكن نرى أثرا لبصيص من النور ، ولا سمعنا حركة دائبة ، ولا تناهت إلينا نأمة فرح ، تدل على اقترابنا من المدينة ، فلم نشعر بباب علي ، ضاحية معسكر الكبيرة ، إلا حين أصبحنا نسير في وسطها ، كانت أبواب المدينة مفتوحة ، ولم نر هناك أثرا للحرس ، ولا أتانا دركي يسأل عن جواز سفرنا ، ولا جاءنا جمركي لتفتيش أمتعتنا ، وتوقفنا في زقاق بغيض أمام مقر القنصل ، الذي استقبلنا أمام الاب ، وبعد أن عانق أخاه ، رجانا أن نقاسمه مسكنه البسيط ونشاركه في طعامه الأكثر بساطة .

وعندما سلمت إليه رسالة الجنرال راتبيل ، قال لي ، «كنت ستنزل عندي على الرحب والسعة حتى ولو لم يزودك رئيسي بهذه الوصية ، إني لأشكر كل غريب ، يزورني في وحدتي ويمكنني من جديد من تبادل الأفكار على الطريقة الأوربية ، إنك لن تجد في معسكر مطاعم ولا غرفا مؤثثة للإيجار ، ومن ثم فليس لك على أية حال من خيار آخر غير السكن في منزلي . » وما كدنا نجلس إلى مائدة القنصل قرب المدفأة المريحة ، حتى أرسل إلينا حاكم المدينة الحاج بوخاري خروفا و «كسكسا شرقيا» رائعا مطعما بالزبيب ، فقال القنصل : «إنها المرة الأولى ، التي يولي فيها حاكم المدينة الأوربيين مثل هذا الاهتمام ، فأنتم ترون أنه

يحتفل بوصولكم أكثر مما احتفل بوصولي وبوصول الذين جاؤوا لزيارتي .» وبعد ذلك بلحظات حضر الشاوش أو صاحب المحكمة ، الذي يقوم أثناء النهار بحراسة بناية القنصلية ، وحدثنا عما أشيع بين الناس من أن أحد أبناء سلطان فرنسا قد حل بمعسكر فضحكنا كثيرا لهذا الخبر ، ورحنا نخمن ما زحين من منا نحن المسافرين الثلاثة يتصوره الناس أميرا فرنسيا !

وتقع مدينة معسكر في سفح المنحدر الجنوبي من سلسلة جبال الأطلسي الثالثة شمال سهل اغريس البديع ، وتبعد عن جنوب شرقي مدينة وهران ب 26 مرحلة وعن البحر في خط مستقيم ب 18 مرحلة ، ومع أن مدينة معسكر كانت منذ عصور من أعظم مدن المقاطعة ، فإن ما كتبه شو [1] عنها لا يزيد عن سطرين ، فوصفها بأنها تقع «وسط سهل جميل» ومن هنا يبدو أنه لم يرها ولم يردد إلا ما كان قد سمعه عنها . وبما أن معسكر كانت ، كما كتب هو نفسه ، ترفض وجود حامية تركية بها في ذلك الحين ، فليس من المحتمل أن يكون قد استطاع السفر إليها ، وليس في معسكر أي معلم من معالم الآثار القديمة ، فقد كانت فيكتوريا القديمة ، التي ذكرها بطليموس ، تقع على بعد ساعات في اتجاه الغرب ، وكانت هناك أنقاض منازل قديمة غير ذات أهمية في قرية البرجية التي تقع على بعد ساعة من معسكر ، ولكنني لم أتأملها إلا بشكل عابر أثناء مروري بها ، وكانت معسكر عاصمة البايلك حين كانت وهران بيد الأسبان ، وهي تغطي بضواحيها الخمس المبنية بصورة غير منتظمة مساحة تقدر بمليون ومائة قدم ، وهذه الضواحي مكشوفة . أما المدينة فمحاطة بسور دائري بسيط ، يبلغ علوه عشرين قدما ولكنه رفيع ومتصدع ، يمكنه حقا أن يحمي المدينة من هجمات القبائل العربية ، غير أن المدفعية الأروبية تستطيع أن تهدمه في بضع ساعات . وقد عرف الأمير عبد القادر ذلك عندما ترك عاصمته سنة 1835 تتعرض بكل بساطة للسلب والنهب على أيدى الفرنسيين ، ومعسكر مكان تعس إلى أبعد حد ، حقيقة لقد بني أغلب الدور فيها من الحجارة لا من الطين ، على حد وصف شو لها ، إلا أن هذه الدور صغيرة متواضعة ، وهي مجرد أكواخ حجرية ، وشوارعها ضيقة ، ولكنها مليئة بالحياة والحركة ، وليس لمساجدها أهمية

كبيرة . فلا يرى المرء فيها أثرا لمنارة جميلة عالية خلافا لما هو عليه الأمر في المدن الكبيرة بالبلاد ، ولكن الأضرحة تحتل ، على العكس من ذلك ، وسط المدينة . أما ما تبقى من عظمة الآثار العربية ، فعلى المرء أن يبحث عنه في قصور الأمير عبد القادر والبايات الأتراك التي حطمت ولم يعد يسكنها الآن أحد .

ويعتبر مسكن القنصل دوماس (Daumas) على بساطته البناية الوحيدة التي بقيت سليمة ، وكانت تحتوي على ثلاث غرف مظلمة ، وفناء صغير ومطبخ وشرفة . وقد أرسل عدد من الجنود الفرنسيين الماهرين من وهران ليقيموا في معسكر بضعة أسابيع ويدخلوا عليها الاصلاحات الضرورية ، فاليهم يعود الفضل في وجود المدفأة ، التي يجد فيها سكانها العزاء . ففي المساء تجتمع حولها الأسرة الأروبية المتكونة من الرجال فقط لشرب القهوة وتدخين الغليون ، فيتبادل أفرادها مع القنصل الشهم أحاديث بهيجة ، تنسيه إلى حد ما وحدته وسأمه المترتبين عن إقامته في مدينة غريبة ، فقد تحدثت أنا عن جميع مشاهد حملة قسنطينة (الثانية) ، في حين تحدث القنصل وطبيبه فارمي (Varmier) عن طيبة خاطر عن تجاربهما وخبرتهما وملاحظتهما في السلطنة العربية الجديدة . وفي مسقط رأس الأمير ، الذي صعد فيه نجمه ، ولا يزال إلى اليوم مصدر قوته الكبيرة ، وقد استطاع القنصل الفرنسي ، النقيب دوماس ، أن يستولى على مشاعري بلطفه وطيبته ، إذ انطلق معي على سجيته في حديث ممتع ، رغم أنه كان رآني والتقى بي لأول مرة ، ولم يكن يخفي عني تقريبا أي سر من أسراره ، وكان يتسم بالصدق والأخلاق والألفة ، وإذا كان غيره من الديبلوماسيين يمتازون بالسرعة التامة عند معاشرتهم للأجانب ، فإنه كان على العكس من ذلك يعرف كيف يتلطف مع الآخرين ويحملهم على الكلام ، فيصل عن طريقهم إلى معرفة كل ما يجري في البلاد . ويحدث بالمقابل الشيوخ عن أروبا ، وعن أعاجيب الحضارة ، وعن الأحداث السياسية وعما تورده الصحف من أخبار جديدة . ولكم عجبت لمهارة هذا الضابط في حديثه مع الأهالي ، الذين كانوا يستمعون إلى كل كلمة يقولها بانتباه دون أن يقبلوا هم أنفسهم على الحديث بسهولة ، فمن خلال الأسئلة العابرة كان يستخرج منهم معلومات كثيرة عن أحداث المدينة ، حيث كان

الأمير عبد القادر في ذلك الحين يستعد للقيام بحملة على عين ماضي ، وعن معمل البارود ، الذي أنشيء حديثا في تقدامت ، وعن صناعة المدافع في تلمسان ، وعن قوة القبائل المختلفة وموقفها من الأحداث الجارية وغير ذلك . وكان يعرف كيف يستدرجهم من خلال الأحاديث المختلفة ، فينتزع منهم من وقت لآخر هفوة من هفوات اللسان ، ويتوصل منها بعد ذلك إلى استنتاجات أخرى ، وقلما كان ينتهي حديث من هذا النوع دون أن يحصل أثناءه على خبر له أهمية ولو كانت محدودة ..

وأذكر أنه جاءنا ذات مساء مارق ألماني يدعي بن حميدو ، فأجلسه القنصل قرب المدفأة ، وسقاه بسخاء من الزجاجتين ، اللتين كانتا قد بقيتا مما حملناه معنا ، وكان حميدو هذا إنسانا غريب الأطوار ، فقد رمت به الأقدار بشكل غريب في أماكن عديدة ، ولكنها لم تستطيع القضاء عليه ، على كثرة الأخطار التي تعرض لها في حياته ، وكان اسمه الحقيقي غايستينغر (Geistinger) ؛ وقد ولد في بافاريا القديمة . وكان لا يزال له ، فيما ذكر لي أقارب في مدينة نويبورغ (Neuburg) الواقعة على الدانوب ، وكان جنديا في الفرقة الأجنبية حتى سنة 1833 ، وهي السنة التي وقع فيها أسيرا في أيدي العرب أو فر إليهم بنفسه ، فأسلم ، وتعلم اللغة العربية ، وتعود على أسلوب الأعراب في الحياة ، وطريقتهم في التفكير ، وقاتل بشجاعة إلى جانب سيده الأمير عبد القادر في أغلب المعارك التي خاضها مع الفرنسيين ، وكون له زيادة على ذلك فيلقا نظاميا صغيرا ، وعوده على الحركة ،فأصبح بمثابة كتيبة مدربة من المشاة ، ولكنه سئم في النهاية الحياة الأفريقية الفقيرة ، وهرب ليلتحق بالفرنسيين من جديد ، وأكد للجنرال دى ميشال أنه وقع أسيرا في أيدي العرب حين كان جنديا في الفرقة الأجنبية ، واستطاع الآن أن يفر منهم ، وقد اعتبره دى ميشال فارا من الجندية ، وكان يتمنى له الهلاك ، ولذلك أعاده إلى الأمير عبد القادر ، فأساء العرب معاملته وعذبوه ، ولم ينقذه من الموت سوى عاطفة الشفقة ،التي غمرت قلب سيده عندما أخبره بأنه لم يتخل عن خدمته إلا لأنه لم يستطيع سد حاجته إلى الطعام بين العرب القنوعين ولأن اليأس كاد يهلكه .

وعندما غنم الأمير عبد القادر في معركة المقطع عربة ذخيرة ، كانت رمز انتصاره ، رغب في ارسالها هدية إلى سلطان المغرب ، وبما أنه كان من الصعب إرسال عربة ثقيلة ضخمة العجلات عبر جبال وعرة المسالك ، فقد احتار الأمير في طريقه إيصالها اليه ، واستشار في ذلك المارق الألماني ، فالعرب يتصورون أنه ما من أروبي إلا وهو متمكن من عدة مهن ، بحيث يستطيع صنع المدافع أو بناء السفن كما يستطيع في الوقت نفسه حرث الأرض ، وحين يتظاهر مارق ما بالجهل ، فانهم يعتبرون ذلك منه مجرد تنكر وعناد . وهكذا ادعى حميدو أنه خبير بفن صناعة العربات ، ففك قطع العربة الثقيلة ووضع العجلات وبقية الأجزاء الأخرى فوق ظهور الجمال ، وبدأ رحلته إلى المغرب ، بعد أن زوده الأمير بالمال والتوصيات وقال له «في استطاعتك البقاء هناك إذا أعجبك ذلك ، إما إذا كنت تحبني فلست في حاجة إلى أن آمرك بالعودة» . وبعد رحلة دامت ثلاثين يوما وصل المارق مع مرافقيه إلى مدينة فاس ، وقدم للسلطان عبد الرحمن تلك العربة الغريبة ، وكان ينوي البقاء في المغرب ، ففتح هناك مقهى بالأموال التي وهبها له الأمير عبد القادر ، ولكن أموره لم تسر هناك أيضا كما كان يريد لها أن تسير ، فأعلن إفلاسه وعاد إلى الأمير عبد القادر ، فرحب به وأعاده الى خدمته .

وهذا المارق يشرف حاليا على معمل البارود بتلمسان وكان قد عاد من المدية ، التي كان قد ذهب إليها لمقابلة الأمير واستشارته فيما يجب عليه عمله ، لأنه كان قد اختلف مع البو حميدى ، خليفة الأمير في تلمسان ، حول نوعية الانتاج وطبيعته . فأيده الأمير في رأيه . وكان حميدو قد أصبح افريقيا تماما ، فقد دل على ذلك وجهه المشوه الذي أسمر بفعل الحياة الطويلة الصعبة في أرض المعارك والآلام ، ولم تتح لي لحيته الشعثاء والسنته البدوية أن أعرف فيه مواطنا ألمانيا ، مع أن ملامح وجهه لم تكن متلائمة مع ملامح العرب ، بحيث كان يبدو وكأنه ينتمي إلى قبيلة غريبة بعيدة ، وعند الوداع تحدث معي بالألمانية لفترة طويلة ، وقد ظهر لي أن نغمات اللغة الأم وأحاديثنا عن «المانيا» قد أثارت شرارة الحنين في قلبه القاسي ، الذي بدا لي لأول وهلة أنه لا يعرف مشاعر من هذا النوع ، وعندما خرج في المساء متمايلا ، بفعل المشروب الذي لم يتعود عليه وبفعل ما كان يحس

به من ألم موجع ، صاح بي «وداعا أيها السيد المواطن اني لأعتبرك انسانا سعيدا ، لأنك تستطيع أن ترى وطنك ثانية ،أما أنا فقد حكم علي أن أموت بين هؤلاء القساة .»

وعندما كان القنصل يتحدث مع المارق ، استطاع من خلال الأسئلة الذكية أن يستمد من فلتات لسانه معلومات عن الأوضاع في تلمسان ، وعن فشل صناعة المدافع ، التي أنفق عليها الأمير أموالا كبيرة ، وعن موقف الأنجاد الغاضب ، الذين قرروا التخلي عن مساندة الأمير بمجرد أن تستأنف الحرب ، ولم ينس القنصل في أثناء ذلك أن يسقي المارق من المشروب المغرى الذي يعتبره الألمان أفضل مفتاح لباب الأسرار ، وقد لا حظت عند بداية الحديث مباشرة غياب الدكتور فارمي ، الذي كان دائما يحرص على سماع الأحاديث المهمة ، وحين خرج المارق ، ارتفع ستار حائطي قرب المدفأة التي كنا جالسين اليها وظهر الدكتور بوجهه الملتحي الغريب ، وهو يضحك ضحكة عجيبة ، كان قد اختفى في كوة خفية ، وبيده ورق وقلم ، فقد كان يحجبها ستار سميك ، يمنع من تسرب الضوء اليها ، ولكنه لا يحول دون وصول الصوت اليه ، فكتب حديث البدوي الألماني المختلط بعناية واعترف لنا بأنه قد فعل ذلك في حالات مشابهة ، ولكثرة ما تمرن على ذلك أصبح في إمكانه أن يكتب بسرعة ، واكتسبت أذناه رهافة مدهشة ، وبما أن بعض الحديث عرضة للنسيان دائما ، ولو تم إملاؤه على الترتيب عن طريق شخص قوي الذاكرة ، فقد كانت اختزالاته الأمينة التي كانت تشكل مجلدا كبيرا في أرشيف القنصلية وثائق ذات أهمية كبيرة .

وقد تعود أن يزور القنصل يوميا تقريبا شيوخ العرب ، وحضر المدينة ، وضباط الأمير وجنود جيشه النظامي ، ولم يكونوا يأتون لزيارته لمجرد تعاطي القهوة عنده مجانا فحسب ، بل كانوا يزورونه لأغراض أخرى أيضا ، ولكن القنصل كان يعرف كيف يستغل مثل هذه الزيارات ، بحيث لم يكن ينصرف عنه ضيف من ضيوفه دون أن يستخرج منه خبرا مهما ، وكانت أمتع اللحظات بالنسبة لي أثناء إقامتي في الجزائر هي تلك اللحظات التي كان يتحدث فيها الحاكم الحاج بوحارى ، والخليفة الحاج مصطفى ، والشيخ محمد بوسعيد أو أي شيخ من

شيوخ بني هاشم أو مرابط من مرابطي قبيلة البرجية التعيسة ، وهم جالسون إلى المدفأة عن المعارك الماضية ، ويروون قصصا من حياة الأمير ، الذي كان يتمتع بمكانة كبيرة في نفوس أغلبهم أو يحدثوننا عن الحكايات والخرافات القديمة . وكثيرا ما كانوا يشتبكون معنا أيضا في مناقشات حول الإسلام والمسيحية . وكان النقاش يشتد أحيانا ، إلا أنه لم يتسم أبدا بالحدة والمرارة ، وكان يبدو عليهم أنهم يشعرون بالبهجة كلما دافعنا عن ديننا بحرارة ، ذلك أن لا مبالاة الفرنسيين بالدين تثير استغرابهم وتغيظهم إلى أبعد حد ، وكان حديث شيوخ القبائل ، التي تسكن القبلة والصحراء ، أحب هذه الأحاديث إلى نفسي تقريبا ، فتلك المناطق لا تزال مهجولة عندنا نحن الأوربيين . ولذلك كانت تبدو لي أدنى ملاحظة بمثابة أثر لتذكاري ، فكنت أسارع إلى تسجيل كل ما ذكره الشيوخ عن مدن الواحات وحياة سكان الصحراء ، فأسماء بعض الواحات ، التي تتوسط بحر الرمال ، لم تصل بعد إلى أروبا ، فهناك عالم يقع في الجانب الآخر من جبال الأطلس ، لا يزال غير معروف عندنا . والأجيال تتابع هناك منذ سنين طويلة دون أن يصل خبرها إلى أسماع سكان العالم المتمدن ، الذين يودون أن يعرفوا عنهم الكثير ، فقد وقعت هناك حروب وأسقط ملوك عن عروشهم وأعدموا ، وامحى أثر بعض القبائل ، وظهر رجال أدعوا النبوة وحملوا أتباعهم على ارتكاب المجازر الدموية من أجل وهم من أوهامهم الكبيرة ، ولم تتعد أصداء كل ذلك الهضاب العليا ، التي تفصل شمال البلاد عن الواحات الصحراوية ، أما الأخبار القليلة ، التي حملتها القوافل ورجال التجارة عنها ، فقد أضيفت الى كتاب الخرافات العربية الذي يصعب أن تستخرج منه الوقائع التاريخية الحقيقية وتفرزها عن بقية الأخبار والحكايات الغامضة . فلم يعد اليوم في إمكان المؤرخ الذكي أن يكتب تاريخا متماسكا عن نشأة بعض الحكومات في كل من ميزاب وتوقرت وورقلة وعين ماضي وغيرها من حكومات القبائل الصحراوية .

والواقع أنه من السهل التمكن من السلطة والقوة بين القساة في سجن ، احيطت ناحيته الجنوبية بأسوار حصينة ، فكم يا ترى من طبائع وبطولات كبيرة ، تستحق أن تسجل في التواريخ العظيمة للشعوب ، انتهت هناك دون أن تخلف أثرا

ودون أن يتغنى بها شاعر ، ويحفظها مؤرخ للأجيال القادمة ؟ وإلى أي حد ياترى بلغ حرص سكان تلك المناطق البعيدة على خلود أسمائهم وبطولاتهم بعد المعارك الطاحنة التي كانت تنشب بينهم من وقت لآخر .

لقد كانت رغبتي في معرفة الأوضاع الراهنة لسكان الصحراء والاطلاع على عاداتهم وسماع أخبار مدنهم وواحاتهم وآثارهم ، التي لا يعرف أصلها ، والتي تعود إلى أزمنة غابرة وتقع في أماكن قاحلة ، كانت رغبتي هذه أقوى من رغبتي في سماع أخبار يرددها الأعراب عن ماضي أولئك السكان الصحراويين ، وهي أخبار تستحق أن تسجل ولكنها لا تصلح لكتابة التاريخ ، لأنها تختلط على ألسنتهم بالخرافات والأساطير والأخيلة الواسعة . وقد أبدع شيوخ الصحراء في وصف طريقتهم في صيد النعائم والأسود . ورووا لنا أشياء عجيبة عن طبائع هذه الحيوانات ، وكان من حقنا أن نصدق مثل هذه الروايات ، لأنهم كانوا يتحدثون بصفتهم شهود عيان ، ولأنه كان بإمكاننا أن نقارنها بما رواه الآخرون عن الموضوع نفسه . غير أن حكاياتهم لم تكن تخلو من المبالغة والوقوع في الخطأ والخيال الحي يجنح دائما إلى التهويل والمبالغة . والميل إلى العجائب يدفع كذلك إلى تصور الأشباح والأطياف ، ولذلك لا بد من موهبة خاصة ، وتجربة طويلة ، ومعرفة دقيقة بطبيعة الأعراب ، حتى يستطيع أن يتعرف على ما لمثل هذه الأخبار من جوانب موضوعية . وكيفما كان الأمر ، فإن الأحاديث المسائية في منزل القنصل بمعسكر تعتبر من أجمل ذكريات رحلتي . وكانت الأحاديث التي سمعتها من السيد دوماس والسيد فارمي ، عن حياة الأمير عبد القادر ، وعما يتميز به بوصفه حاكما ، ورجل دين وبطل حرب ، وكذلك عن حياته المنزلية ، كانت هذه الأحاديث ممتعة للغاية . فكثيرا ما كان السيد فارمي يدعى إلى خيمة الأمير في ظروف مؤلمة ، لأن ابن الأمير الوحيد كان قد مرض ، فأرسلت أمه وجدته — كان الأمير في ذلك الحين بتقدامت — في طلب الطبيب الفرنسي . فبذل كل ما في وسعه لإنقاذ حياته ، ولكن الصغير محي الدين مات بين ذراعيه . فاستسلم أهله وأبناء شعبه لقضاء الله وقدره كما تقضي بذلك التعاليم الاسلامية ، دون أن ينالهم غضب على الطبيب المسيحي ودون أن يفقدوا ثقتهم في فنه الطبي !

ونادرا ما حدث أن ارتابوا في مهنته . فقد كان فناء الدار يزدحم عصر كل يوم بعدد كبير من العرب وذلك في المواعيد التي يستقبل فيها الدكتور فارمي ويفحصهم ويوزع عليهم الأدوية مجانا . وكان بعض المرضى يأتون إليه من مناطق أخرى ويقطعون مسافات ، قد تبعد عن معسكر بعشرين ساعة ، وكانوا يعانون من الأمراض المفرقة التي تنتشر في هذه البلاد ، مثل مرض الجذام الرهيب وأمراض الزهرى على اختلاف أنواعها ، ولم يسلم من عدواها حتى الأطفال الصغار ، وأمراض الخزار والجرب والطفح والخراج والأورام الكبيرة ، وخاصة في الأذرع ، وكذلك أمراض العيون العادية ، وكانت هذه الأمراض كلها ذات مظاهر متعددة ، ولقد أقنعني بان الحياة الطبيعية البسيطة المرتبطة بصورة دائمة بنقاوة الهواء وكثرة الحركة لا تشكل مطلقا وسيلة من وسائل الوقاية من الأمراض الإنسانية ، وان الخيمة الجيدة تتوفر على أمراض فظيعة تنتمي إلى عصر أكثر حداثة . ومع ذلك فإن الرحالة ، الذي يعبر أراضي الأعراب فوق ظهر الجمل ولا يتمكن إلا نادرا أو لا يتمكن إطلاقا من الدخول إلى الدوار ولا يرى غير الرجال الأقوياء الذين يترددون على أسواق المدن ، هذا الرحالة يثرثر كراهب ، يتحدث عن نوع من الناس الذين يمتازون بالجمال والسلامة والعافية ، ولم يرثوا شيئا من آثام من سبقهم فاستطاعوا المحافظة على أصالتهم . إن أمثال هذا الرحالة سوف يخجلون من حماستهم ومما سجلوه من انطباعات ، حين يشاهدون في مستوصف من هذا النوع تعاسة هؤلاء الناس الطبيعيين الذي يمجدونهم ، ويضطرون إلى الاعتراف بأنهم يتعرضون رغم الحياة التي يحيونها بالخيام في الهواء الطلق لنفس الأمراض والأوبئة ، التي يتعرض لها أولئك الذين نالوا حظا كبيرا من التمدن والحضارة .

وكان من بين مرضى السيد فارمي أيضا عدد من مرضى الوهم . فقد جاء إلى عيادته مرة أعرابي عملاق وراح يقسم له أن في أحشائه سلحفاة تعضه وتضغط داخله . ولا ينفع في مثل هذه الحالات غير الدجل . بل اعتقد أنه يصلح أيضا أن يستعمل في أغلب حالات المرض الحقيقية . والسيد فارمي يوافقني على ذلك إلى حد ما . ذلك أن الأمراض التي يعاني منها المرضى ، إما أن تكون مزمنة تستعصى على العلاج ، وإما أن تتطلب علاجا طويلا . ولكن

الأعرابي لا يستطيع أن يتخذ قرارا بشأن ذلك ، لأنه قليل الاهتمام بأمره ، ميال إلى التهاون والتراخي ، مؤمن بقضاء الله وقدره لا يعرف شيئا عن طرق العلاج الطبية المعروفة عندنا . فهو يعتقد أنه إذا لم يشف من مرضه بعد ثلاثة أيام من تناوله للشراب أو للأقراص ، فإن ذلك يعني أن الدواء لا فائدة منه . ومع تقديري للدكتور فارمي واعجابي بما يبذله من تضحية وتفان في خدمة مرضاه ، فيذهب من هذا المريض إلى ذاك ، ويسأله بمساعدة الترجمان عن جميع الظواهر المرضية كما يفعل طبيب المستشفى في أروبا ، ويعتني به ويصف له طريقة العلاج ويقدم له ارشاداته ونصائحه ، مع تقديري لكل ذلك فقد كنت على يقين ، مثل الدكتور اللطيف نفسه ، من أن تلك النصائح لن يعمل بها أحد أبدا وأن نصح الأعراب بالعناية بنظافة أهلهم وحمايتهم من الرطوبة وتغذيتهم تغذية كافية يشبه من يخطب في جمع من الصم ، مهما كان المرضى أنفسهم يلحون على مثل هذه الإرشادات . وكان يرضيهم أن يستلموا منه قارورة مختومة ، تحتوي على مزيج ما ، فقد كانوا يتصورون أنه صالح لمعالجة جميع الأمراض وأنه تميمة صلاح الدين . ومن المؤكد أن السيد فارمي كان يعترف مع نفسه بأن مجالات ممارساته الطبية لا تفيد الأهالي فائدة كبيرة . وإنما تفيد القنصل ، وتقدم تبعا لذلك خدمة كبيرة للمسألة الفرنسية وتقوي مركزها . فهؤلاء المرضى يثقون في فننا الطبي أكثر مما نثق فيه نحن أنفسنا . وكان عدد منهم قد اعترفوا بجميل الطبيب الرومي وراحوا يثنون عليه حتى بين القبائل البعيدة ، وهو ما ترك بينهم انطباعا حسنا عن الفرنسي الخير ، فقد كان أولئك الذين شفوا من أمراضهم أو خففت عنهم الآلام بفعل طبيعتهم الجيدة ، ونسبوا بعد ذلك تحسن حالتهم إلى الأدوية التي أعطيت لهم ، يكافئون الدكتور على معالجته إياهم بأخبار متنوعة عن داخل البلاد ، فكان أفضل عيون القنصل من بين مرضى الدكتور فارمي !

وغالبا ما كانت تحضر إلى عيادته النساء الأعرابيات ، ومن بينهن فتيات يافعات ، برفقة ابائهن أو أزواجهن ، ولم يكن يستعملن الحجاب ، شأنهن في ذلك شأن بقية البدويات ولم يمتنعن عن الكشف عن أذرعهن وأرجلهن وصدورهن . ولكن الجميع ، رجالا ونساء ، كانوا يرفضون إظهار الأعضاء

التناسلية المريضة ، رغم إلحاح الطبيب عليهم وتأكيده لهم بأنه لا يستطيع أن يشخص المرض ويقدم لهم العلاج المناسب إلا إذا هم كشفوا عنها . وكان يروق لي أن أتأمل يوميا مجموعة جديدة من هؤلاء الأشخاص التعساء الذين كانوا يجلسون مع أقاربهم فوق الحجارة المرصوفة إلى أن يتم فحصهم من طرف الطبيب ، وقد جرت العادة أن يقف المترجمان بن عمران وعياش وهما شابان محبان للحياة ، عند الباب ، ويتظاهران باللامبالاة ، ولكنهما في الحقيقة كان يلتقطان أحاديث الأعراب ، فعلقت بأذهانهما حكايات وكلمات مسلية ، منها مثلا حديثهم عن الطريقة التي وصل إليهم بها مرض الزهري ، فكانا يرويان ذلك لكل ضيوف القنصل ، وهي حكايات مفرقة ، لا مجال للحديث عنها ها هنا .

وقد غادر الدكتور فارمي معسكر بناء على ما سمعته من الأخبار المتأخرة ، في ربيع سنة 1839 . وسافر إلى فرنسا ليلتحق بمنصبه الجديد في مستشفى عسكري . وقد أسند إليه هذا المنصب الذي يعتبر بالنسبة له الخطوة الأولى في طريق الترقية ، وهي تمثل مكافأة وزارة الدفاع له على الخدمات التي قدمها لبلاده . ولا أعرف شيئا عن الطبيب الذي التحق بالقنصلية خلفا له . إلا أني أعتقد أنه من الصعب العثور على رجل مناسب من بين الأطباء العسكريين يصلح لهذا المنصب ، فقد كانت للسيد فارمي شخصية ، تبدو وكأنها خلقت ليكون لها تأثيرها الكبير على الأعراب . كان قوي الجسم ، عريض الكتفين ذا ملامح ، لم أعرف في حياتي أغرب منها ، ولحية طويلة كثيفة تعتبر زينة ضرورية في هذه البلاد ، وكان القنصل يشبه ملامحه ، وهو مصيب في ذلك فيما يظهر لي ، بملامح قوزاقي ، كان قد رآه في باريس في أيام شبابه . وإني لعلى يقين من أن طبيبا آخر غير ملتح وله ملامح أقل غرابة ، ما كان ليحظى بمثل هذا الإقبال . لقد كان في استطاعة الدكتور فارمي أن يدخل المنطقة كلها في اطمئنان تقريبا ، لأن الناس كانوا يعرفونه وكانوا يحترمون مهنة الطبيب كل الاحترام ، ولكنه لم يكن يجرؤ على الابتعاد عن المدينة بأكثر من ساعة دون أن يرافقه أوروبيون مسلحون أو دليل عربي .

ذلك أن أعراب هذه المنطقة يكافئون على التضحية الخالصة بنكران

الجميل ! فحتى الذين شفوا من أمراضهم كانوا ينظرون إلى السيد فارمي نظرة النبي إلياس إلى الغراب ، الذي قدم له الطعام استجابة لمشيئة الله ، وكان الأعراب الذين يأتون لاستشارة الطبيب في بناية القنصلية ، يأخذون الأدوية منه ، ثم يذهبون دون أن يوجهوا إليه كلمة شكر ، ولكنهم كانوا يبدون أكثر لطفا وتأدبا إلى حد ما ، حين كان الدكتور يذهب إلى زيارتهم في الدواوير نفسها . ومع ذلك فإن اعترافهم بجميله لم يبلغ حدا كبيرا من العمق . كما أن تبجيلهم له لم يتغلب على عواطف الكراهية التي يحملونها للمسيحيين ، فقد كان بين سكان الدواوير ، الذين يزدحمون حوله في مثل هذه الزيارات ، وينظرون إلى طلعته الغريبة بشيء من الرهبة ، من تبدو في عينيه الرغبة في التخلص منه . وإذا كان لم يتعرض له أعرابي ما ، ويطلق عليه النار أثناء عودته مدفوعا بتعصبه وكرهه له ، فإن ذلك لا يعود إلى احترامه لمهنة الطبيب وشعوره بالهيبة حيال شخصيته ، وإنما يعود إلى اعتقاده بأنه قد يكون في حاجة إلى مساعدته في يوم ما "(١٩) .

كان الحاج بخاري ، صديق الأمير عبد القادر منذ أيام شبابه وأخلص أتباعه له ، (٢٠) هو حاكم مدينة معسكر في ذلك الحين وكان يسكن منزلا عاديا ، يقع في شارع جانبي ، ولكنه كان يقضي سحابة يومه في دار القضاء . وكانت قاعة الاستقبال بها أرضية ، تفضي إلى رحبة ، تقام فيها دكاكين البضائع في أيام الأسواق . وكان الحاكم يجلس في غرفة بسيطة ، لا تتسع لعشرين شخصا ، فوق حصيرة من القصب ، وحوله خوجاته أو كتابه . وكان هناك حوالي ستة شواش ، يقفون عادة أمام المدخل أو قربه ، وبأيديهم عصي طويلة ، ينتظرون أوامر سيدهم ، وتتمثل وظيفتهم الرئيسية في الضرب بالفلقة ، وهم يؤدون هذا العمل بسخاء طوعا ، ونادرا ما كان يمر يوم من أيام السوق دون أن توزع فيه خمسمائة ضربة . وعندما يرى المرء هذا الرجل ، الذي يصدر مثل هذه الأوامر ويحضر تنفيذها بنفسه ، يقتنع بأن علم الفراسة لا يقدم لنا أي معيار لمعرفة خلق أفراد هذا الشعب ، فقد كانت ملامح الحاج بوخاري تنم عن الطيبة والورع بصورة لم أر لها مثيلا . كانت ملامحه تشبه تلك الملامح المثالية ، التي اعتاد رسامونا أن يخلعوها على وجه يسوع المسيح . حقيقة لم يكن له وقاره المقدس ، إلا أنه كانت له نظرته

الورعة ، وجماله الوديع ، وتناسق ملامحه وشكل لحيته ، ولم ينقصه غير شعره الطويل . وكان الحاج بخارى يشبه سيده عبد القادر إلى حد كبير ، وهو ما أكده لي جميع من رأوا كلا منهما ، وينحصر ما بينهما من فرق في أن ملامح الأمير كانت أكثر تناسقا وشحوبا وذكاء ،ولكن الحاج بخارى كان يتمتع من جهته بجسم قوى جميل ، وهما زميلان منذ أيام الطفولة . وقد برهن الحاج بوخاري ، أثناء محن كثيرة ، على مدى إخلاصه الصادق للأمير عبد القادر ، فقد وقف إلى جانبه في أشد الأزمات التي تعرض لها .

فعندما جرح الأمير وسقط عن فرسه في المعركة ، التي خاضها ضد مصطفى بن اسماعيل ، أسرع إليه الحاج بخارى ليحميه بجسده ، وأخلص له كذلك في معركته مع موسى الشريف [18] وكان فوق ذلك واحدا من الكبار القلائل ، الذين لم يترددوا في مساندة الأمير بعد احتلال الفرنسيين لمدينة معسكر ، وكان الحاج بخارى لطيفا رفيقا في حديثه مع المسيحيين والعرب على حد سواء ، وإذا كان قد جعل للعصا دورها الفعال في إقامة العدل ، فلا ينبغي لنا أن نبالغ في اتهامه بالشدة والقسوة ، فإن شعبه نفسه لا يعترف بأى عقاب آخر غير عقاب العصا ، والعرب يحبذون إقامته للعدل بهذه الطريقة !

لقد استقبلنا نحن المسافرين الثلاثة استقبالا حسنا كما ينتظر من مثله من حاكم عربي ، وتركناه بعد أن أجرينا معه حديثا مطولا ، سحرنا خلاله بلطفه وحسن معشرة ، إلا أن مارقا هاربا ، كان جالسا في غرفة الحاج بوخارى ، أخبرني حين قدمت الى مستغانم بعد شهر ، أن الحاكم كان ، بعد أن ودعنا بحرارة وانصرفنا عنه ، قد صرخ خلفنا بكراهية شديدة مستعملا كلمة «كلاب» ، ولعله فعل ذلك ليقنع من حوله أن تلطفه مع الكفار لا يتعدى حدود المجاملة !

ولم تكن توجد بمعسكر قبل حملة المارشال كلوزيل غير بناية واحدة جديرة بالمشاهدة ، وهي قصر باى المقاطعة السابق ، وكان الأمير قد سكن هذا القصر بعد طرد الأتراك ، إلا أنه أصبح انقاضا منذ ديسمبر 1835 ، ولم يحرص الأمير على ترميمه بل منع حتى من إزالة الردم عنه ، ولم يعد من حق أحد أن يسكنه ،

وكان من الضروري أن يبقى على حالته هذه لأنه غدا قصرا ملعونا منذ أن دخله الكفار . وكان الأمير نفسه قد أقسم ألا تطأ قدماه أرض المدينة بعد أن دنستها أقدام النصارى . ولم يخل بقسمه ، فكان يسكن خيمته خارج المدينة كلما جاء إلى معسكر .

وكان القصر المذكور ، حسب ما تدل عليه بقاياه وبناء على ما ذكره من شاركوا في حملة كلوزيل ، بناية مهمة إلى حد ما ، إلا أنها لا تستحق أن تقارن لا بأجمل البنايات العربية في مدينة الجزائر ولا بقصر الباي في قسنطينة . هذا القصر رواق صغير ، هو الآن عبارة عن حطام ، وكانت جدرانه مغطاة بالخزف الأزرق ، ولكن الجنود الفرنسيين نزعوه عن أماكنه قبل انسحابهم ، ونشروا قطعة منه فوق الأرض ، وهي لا تزال الى اليوم ، ولا يتسلق المرأ جدرانه ليصل إلى غرفة شاغرة دون أن يعرض حياته للخطر ، فكثيرا ما تهتز أرضيتها تحت الأقدام ، وقد اتخذه الشاهين مسكنا له بعد انسحاب الفرنسيين ، وأصبحت جدرانه الخارجية عروشا وسخة لطيور اللقلق ، التي بنت أعشاشها من القاذورات وأصبحت تلقلق بدهشة كلما صعد إليها الآن زائر نادر ، ويعتبر اللقلق طائرا مقدسا عند العرب ، يسكن بينهم في أمان ، ويبدو أنه يتمتع بحق الضيافة عند جميع الشعوب ، عند الهنود والمسلمين والمسيحيين على حد سواء ، ويعتقد عرب الجزائر أن طيور اللقلق كانت في السابق أولياء ومرابطين مسخهم الله طيورا بسبب الأثم الذي ارتكبوه [47] . فهنالك مجموعة كبيرة منها تسكن كل البنايات القديمة ، وخاصة سقوف المساجد حيث تقف قرب الهلال بمثابة الحراس ، وهذه الطيور من النوع العادي المعروف بالبلارج او اللقلق الأبيض أما اللقالق الكبيرة التي تعيش في أعماق افريقيا فاني لم أر لها اثرا .

ويلي أثار القصر ساحتان وحديقة مسورة ، وكانت الساحة الكبيرة غير مستعملة ، فأخذنا نتسلى فيها بصيد طيور الشاهين التي كانت جالسة فوق جميع الجدران دونما خوف ، أما الساحة الصغيرة فتوجد بها اصطبلات خيول عبد القادر وخليفته في المقاطعة الحاج مصطفى بن التهامي ، ولم أر من خيل الأمير غير ثلاثة جياد عادية جدا من بينها جواد رمادي اللون . كان عبد القادر قد امتطى

ظهره أثناء دخوله إلى معسكر عندما بايعه بنو هاشم وهو يرتدي برنوسا رثا ولا يملك غير نصف بوجو ، وقد كبر هذا الجواد اليوم وضعف وأصبح غير صالح للركوب ، ومع ذلك فإنه لا يزال ينال حصته الوفيرة يوميا كما كان ينالها في السابق . وذلك مكافأة له على خدماته السابقة التي أتاحت له أن يقضي الآن أيامه الأخيرة في هدوء قرب أكياس الشعير والحشائش الجيدة ، أما الخيول الجميلة ، فقد أخذها الأمير معه الى المدية ، ومن جملتها جواده الصحراوي الأسود ، الذي يبلغ علو ونباته ستة أقدام وعرضها عشرة أذرع ، وكان قد أدهش مرافقي الجنرال بوجو بنشاطه وحيوية جماله ويعتبر أروع جواد في البلاد كما يعتبر الأمير أيضا أفضل فارس . وكانت تخطو في الساحة نفسها نعائم اليفة ، كانت تبدو قذرة ، قليلة الريش حزينة »(1) .

وكان القنصل دوماس قد استأجر حديقة القصر ، التي كانت خالية من الأزهار . وتغطيها أعشاب عالية ، وقد استعملت مرعى لخيول القنصلية . وحدثنا البستاني العربي في حسرة قائلا : «كان لحديقة القصر في أيام الباي محمد مظهر آخر ، فقد كانت أحواض الزروع فيها مقسمة بين الأزهار والأشجار والخضر ، وكانت هناك في كل زاوية نافورة ، تسقط مياهها في حوض مرمري أحمر ، كما كان هناك حمام كبير يتوسط الحديقة ، وكانت الغزلان تمرح فوق هذه المروج ، لقد اختل كل شيء منذ أن أبعد الأتراك عن المدينة ، فلم يهتم بها أحد بعد أن دمرها بنو هاشم ، ولم يغرس فيها شيء . لأن البستانيين لم يعودوا يتلقون أجورهم . وما أن جاء الفرنسيون أخيرا وسكنوا القصر حتى يبست الأشجار ، ولم يعد ينمو فيها غير الأعشاب» ، وكان يبدو على البستاني الصدق فيما قاله ، فقد يبست أشجار البرتقال ، ونضبت مياه النافورات . واحتلت سور الحديقة الزواحف والعقارب دون أن يحاول أحد إبادتها .

وكان هناك قصر صيفي للباي السابق ، يقع في الجنوب خارج المدينة ، وكانت حالته تشبه تقريبا حالة قصر الأمير المهدم ، فقد تم نهبه وتخريبه على يد قبيلة بني هاشم ، التي كان محي الدين ، أبو الأمير عبد القادر ، قد جندها لطرد

الأتراك . وكان الطريق المؤدي إليه والبستان ، الذي يحتوي على أشجار النخيل والرمان والخروب ، أجمل منتزه في نواحي معسكر . وفيه يرقد جثمان موريس التعس ، وكانت هناك كومة من الحجارة تحدد مكان قبره ، وموريس هذا معمر من بوفاريك ، كانت قبيلة حجوط قد أسرته سنة 1836 ، وعذبته عذابا أليما ، ثم حملته إلى عبد القادر ، فعومل معاملة حسنة أثناء إقامة الأمير نفسه في معسكر ، وبعد ذلك بدأت حالته تتدهور نتيجة العوز وسوء المعاملة والحنين إلى أهله ، وعندما رآه ضابط البحرية الأسير دى فرانس ، كان هذا الرجل ، الذي كان في السابق يوصف بالجمال والرونق ، قد ذبل ، ومات مخلفا لزميله في الشقاء برنوسا مهترئا ، حماه من قر الليل وربما أنقذ حياته أيضا . وكتيب دى فرانس يحدثنا باسهاب عن المصير الأليم ، الذي انتهت إليه حياة موريس الشقي .

ولا يتجاوز عدد سكان معسكر حاليا سبعة آلاف نسمة ، من بينهم خمسة آلاف حضري ، تحتل تقاليدهم مكانا وسطا بين تقاليد العرب والمغاربة ، فهم يعيشون مثلهم في المحلات التجارية والصناعية ولكنهم أكثر تعاسة وكسلا ، وأقل نظافة وجمالا وبياضا ، وبعضهم يضعون فوق رؤوسهم عمائم رديئة ، ويكتفون أحيانا بخيط من شعر الجمل ، أما أبناء المدينة الأصلاء ، ويمتازون ببياض البشرة ، ونبل الملامح ، ونظافة الثياب ، فلا يصل عددهم إلى ألف نسمة . ويتراوح عدد اليهود بين ثلاثمائة وأربعمائة نسمة ، وهم يرتدون على غرار يهود مدينة الجزائر ألبسة سوداء تشبه الأزياء الشرقية ، غير أنهم أكثر فقرا وتعاسة منهم ، فما من حادثة إلا وتكون سببا في نهب بيوتهم ودكاكينهم ، وقد قتل عدد كبير منهم قبل أن يتخلى جيش الأمير عبد القادر عن معسكر بيوم واحد . وينتمي بقية السكان إلى كل الطوائف الافريقية تقريبا . فهم خليط من القبائل والزنوج والكراغلة ، أما الأتراك فقد اختفوا من مدينة معسكر تماما .

وبعد احتلال معسكر من طرف الفرنسيين — وهم لم يحرقوا المدينة اطلاقا ، على العكس مما جاء في نشرة كنوزيل ، وإنما هدموا قصر الأمير ، أما البيوت الحجرية والطينية ، التي لم تلتهمها ألسنة النيران ، فقد تركوها على حالها تعيسة متداعية — نقص عدد سكان معسكر منذ ديسمبر 1835 بحوالي ألف

نسمة ، إذ انتقل معظمهم إلى تقدامت ، المدينة الجديدة التي أنشأها الأمير عبد القادر في الجنوب الشرقي من معسكر ، ومات بعضهم في الجبال جوعا وتعبا أو انتهت حياتهم على أيدي القبائل ، ومع أن مدينة معسكر تعتبر أهم مركز في المقاطعة ، فقد كانت قبل الحملة الفرنسية قرية فقيرة تعسة ، كانت مدينة بدوية حقيقية ، مدينة متنقلة تستعصي على التدمير ، كالدواوير تماما ففي الامكان نقل الأموال والبضائع إلى الجبال في ساعات محدودة ، وحينئذ لا يبقى للفاتح غير الحجارة ، فإذا هو صب غضبه عليها ونسفها على تعاستها وعدم استحقاقها لذالك ، فلن يخسر سكان المدينة الكثير ، وفي وسعهم أن يقيموا خلال أشهر قليلة معسكر مماثلة ، وتكمن أهمية معسكر في وقوعها في مركز المقاطعة ، فهي تبعد عن الحدود المغربية بنفس المسافة التي تبعد بها عن مقاطعة التيطري ، ومن استطاع أن يواصل احتلاله لها بثلاثة آلاف رجل ، هم على استعداد دائم للزحف ، شريطة أن يكون بينهم أربعمائة أو خمسمائة فارس ، فقد أصبح في وسعه أن يستولي على أجمل سهلين في المقاطعة ، وهما سهل إغريس في الجنوب ، وسهل الشمال الخصب الجميل الذي يتغير اسمه ثلاثة مرات ، فيدعى سيق طورا ويدعى هبرة أو سيرات طورا آخر ، ولو كان المارشال كلوزيل قد احتل سنة 1835 معسكر ، عوض تلمسان ، وأرسل إليها فيلقا قويا ، ليقوم بالإغارة على نواحيها ويتنقل في ربوعها ، فلربما كانت قبيلتا هاشم في سهل إغريس ، وقبيلة فليتة على ضفاف الشلف ، وكذلك قبيلة بني عامر والغرابة ، قد فعلت ما فعلته قبيلة البرجية ، من تخليها عن الأمير عبد القادر ، فهذه القبائل ما كانت ، مهما بلغ أثر خطب الأمير الحماسية في نفوسها ، ومهما بلغ حقدها على الفرنسيين ، لتتخلى في سهولة ويسر عن أماكن إقامتها وتستبدلها بمناطق تقدامت الجرداء . ومن المؤكد أنها كانت ستقاوم بشجاعة بضعة أشهر ، ثم تقتنع في النهاية بعدم جدوى هجماتها على الفرنسيين المتحصنين في معسكر . ولن يبقى لها بعد ذلك إلا أن تحذو حذو الدوائر والزمالة ، فتلجأ إلى مفاوضة المحتلين . ولو تم ذلك لأصبح الأمير اليوم لاجئا وحيدا مثل أحمد باي ، ولكان عليه حينئذ إما أن ينضم إلى الفرنسيين على غرار ما فعله منافسه مصطفى بن اسماعيل وإما أن يهيم على وجهه مع عدد قليل من المغامرين ، وهو في بلاده أشبه برئيس عصابة منه بأمير .

يقام سوق معسكر في ميدان فسيح بضاحيتها المعروفة باسم باب علي خلال ثلاثة أيام في الأسبوع ، يوم الجمعة والسبت والأحد ، وهو أكثر الأسواق التي رأيتها في الجزائر كلها حركة ونشاطا ، وكان عدد البدو المتجمعين به يزيد بعشرة أضعاف على الأقل عن عدد الباعة الذين يترددون يوميا على سوق باب عزون في مدينة الجزائر ، وبثلاثة أضعاف عن عدد رواد أسواق المتيجة المهمة ، وكانت كمية البضائع الواردة من داخل البلاد فيه أوفر من كميات البضائع ، التي رأيتها في الأسواق الأخرى ، فقد اشترينا ريش النعائم وبيضها بأثمان رخيصة ، وكانت التمور فيها صغيرة الحجم ، مشوهة الشكل ، ولم يكن لها مذاق التمور التونسية والمصرية . أما جلود الحيوانات الجميلة مثل الأسود والفهود ، فلم تكن توجد بكثرة ، وكانت غالية الثمن نوعا ما ، ولا تحمل إلى سوق معسكر كذلك تلك الكمية الكبيرة من العسل والشمع التي تحمل إلى أسواق قسنطينة مثلا ، وفي مقابل ذلك يوجد فيها الصمغ بكثرة وتعتبر الصوف وجلود الأنعام أروج البضائع ، في حين أن الحبوب لا تعرض في السوق إلا في موسم الحصاد ، ومع أن الأمير قد منع رعاياه من بيع الجياد للفرنسيين ، فقد عرضت علينا جياد جميلة ، لا يزيد ثمنها عن مائة وخمسين بوجو ، وعدد الجمال في مقاطعة وهران يزيد بكثرة عن عددها في بقية أجزاء المناطق الأخرى .

ومشاهدة سوق معسكر لا تختلف عن مشاهدة سوق بوفاريك وسوق الخميس ، إلا أن وعي رواد سوق معسكر في مجموعهم بأنهم ينعمون بالحرية في بلادهم ، يجعلهم يتصرفون بحرية أكثر ، ويخلع عليهم منظرا شيقا . فقد كانت هذه السوق ، التي تكاد مساحتها تبلغ مساحة نصف مساحة مدينة معسكر ، تعج بشخصيات غريبة ، مسمرة الوجوه ملتحية ، طويلة القامة ، قوية العضلات ، ترتدي في الغالب أردية سوداء فضفاضة ، وتجمع بين المشعوذين والقصاصين والمغنيين ، العميان والراقصين ، والموسيقيين ، والعرافين ، والباعة والشراة ، والكسالي ، وكلهم يؤدون أدوارهم في ملهاة الأسواق العربية العادية ! وهذا ما يحدث بالذات يوميا في أسواق الشرق بالقاهرة ، فقد تحدث عن ذلك الرحالون المحدثون ، ولكنهم أشاروا إلى فارق واحد ، وهو أن الفلاحين المساكين

والمضطهدين يستسلمون هناك بدافع اليأس إلى نوع من المرح مثل العبيد السود في كوبا ، الذين يضربون الطبول في المساء ليرفهوا بها عن أنفسهم بعد اعمالهم اليومية المرهقة !

إن الفلاح المسكين ليشاهد سوط سيده الطاغية التركي في نفس الوقت الذي ينظر فيه إلى ألعاب المشعوذين ، في حين أن أعراب الأمير عبد القادر ، وهم رجال محاربون أباة أقوياء ، يسيرون مرفوعي الرؤوس ، وكأنهم ملوك كلهم ، عبر الزحام ، ويصافحون شيوخهم ومرابطيهم كما يصافحون أندادهم ، وهم مجمعون على أن اللصوص وحدهم يستحقون الضرب بالفلقة ، أما إذا اعتدى قائد أو قاض على الأبرياء وأساء معاملتهم كما يحدث في مصر ، فإنه يجرد من سلطته في الحال ، ومحافظة الأمير نفسه على مكانته مرهونة بتمسكه بأصالته كأمير عربي ، وحرصه على نشر العدل ، وكسبه لمودة عشائره ، إن إطلاق اسم «الامبراطورية العربية» على حكومة محمد علي في مصر ليبدو بمثابة سخرية مريرة ، فالفلاحون يتخبطون هناك في أوحال النيل ، وهم عراة جياع وقطيع من العبيد المعذبين ، في حين أن السادة الأتراك يعيشون عيشة راضية ، وينعمون بما يبذله الفلاحون التعساء من عرق الجبين ، ثم يصفون هذا الوضع بنهضة القومية العربية ، وبناء على هذه الحقيقة فاننا نستطيع أن نطلق على كوبا والمارتينيك وتكساس ، وغيرها اسم الأمبراطورية الزنجية ، ونتحدث بعد ذلك عن عمال السكر الزنوج المنهوكين وعن المجد ، الذي نالوه بانشائهم أغنى المستعمرات فوق الأرض . لقد طردت هذه العلقات العثمانية ، هذه البلاوى المصرية ، التي استطاعت أن تعيش في بذخ بفضل المعارك الحربية ، التي خاضها العرب وعانوا من ويلاتها — طردت الأتراك من شمال افريقيا تماما ، ذلك أن أقدامهم لم تطأ المغرب أبدا ، وقد لزموا الساحل في ليبيا واختلطوا في تونس بالأهالي ، وكاد يمحي اثرهم في ايالة الجزائر وكان الأمير عبد القادر قد إتخذ ضباطه وموظفيه من العرب فقط ، ومن ثم فإني أجدني في النهاية أفضل رؤية هؤلاء العرب الأباة ، الذين يختالون في معسكر وعيونهم تلمع ببريق العزة ، وحب الحرية ، رغم قسوتهم وشدتهم ، على رؤية فلاحي ضفاف النيل الأذلاء ، الذين يلتصقون رعبا بالأراضي الخصبة وسياط العثمانيين تلهب ظهورهم !

لقد أقنعني حديثي الأول مع القنصل دومابي باستحالة قيامي برحلتي إلى القبلة والصحراء دون أن تكون لدي رخصة من الأمير . فقد كان الخليفة الحاج مصطفى والحاكم الحاج بخاري سيئي الظن وكان يخافان استنكار عبد القادر لعمل من هذا النوع . كما كان يبدو عليهما أن موقفهما من الأوروبيين أسوأ بكثير من موقف الأمير ذاته . ورفض كذلك قريبا الأمير ، وهما عمه ، الذي يسكن قيطنة سيدي محي الدين ، وأخوه الذي اتخذ لنفسه صومعة في كاشروه ، استعمال نفوذهما في مساندة طلبي بدعوى أن طبيعتهما الدينية وتعبدهما لا يسمحان لهما بالتدخل في مثل هذه الأمور الإدارية ، وأشار علي بالاتصال بكبار موظفي المقاطعة . وبعد أن بحثت هذا الأمر مع القنصل لفترة طويلة ، وتساءلنا معا عما إذا كان من المناسب أن أقدم إلى حاكم معسكر التوصية التي زودني بها المارشال فالي ، والتي يمكن أن تزيد من سوء ظن الشيخ ، قررت في النهاية أن أعرض عليه هذه التوصية ، لأنها تحدد الهدف من رحلتي بدقة وتتيح لي قدرا من الاحترام والاستقبال الحسن على الأقل .

وقرأ الحاكم التوصية بانتباه ، ثم قدمها لكاتبه الأول ليقرأها بدوره ، وفكر لحظة ، وبعد ذلك سألني عن رغبتي فطلبت منه أن يضع تحت تصرفي حرسا ، يرافقني الى تلمسان ، ولكنه رفض طلبي هذا في أدب ، وأفهمني أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك دون إذن من السلطان . وعندئذ أخبرته أن لدي رسالة أخرى إلى الأمير عبد القادر نفسه ، وإني أرغب في السفر إلى المدينة لأقدمها له ، وأطلب منه أن يرخص لي في السفر إلى داخل البلاد ويضع حرسا تحت تصرفي ، فأجابني الحاج بوخاري بأن السلطان أمرنا ألا نسمح لأي نصراني بالسفر إلى المدينة ، إذا هو لم يكن يحمل رسالة سياسية ورسمية ، يضاف إلى ذلك أن الطريق إليها يمر عبر جبال ، تسكنها قبائل ، لا يستطيع عدد قليل من الحراس حمايتي منها ، ونصحني بالبقاء في معسكر إلى أن يحضر الأمير بنفسه ، وأعلن عن استعداده لوضع حرس تحت تصرفي لزيارة نواحي معسكر كلما رغبت في ذلك وحينئذ لم يبق لي اختيار آخر . لقد كان جواب الخليفة مشابها لجواب الحاكم تقريبا . وليس لحاكم مدينة الجزائر أية فكرة عن مدى صعوبة التغلب على ارتياب

رجال الأمير ، فهم يرون في كل قادم مهندسا فرنسيا متنكرا ، يريد أن يضع رسوما وخرائط عن أجزاء البلاد ، التي لم يرها الفرنسيون بعد ، فما من رحالة أروبي إلا ويحمل معه ، في تصورهم ، خطة سرية خطيرة . فهم لا يستطيعون أن يتصوروا الأسباب ، التي تدفع معظم الرحالين الأروبيين الى القيام برحلات استكشافية لا تخلو من خطر وعناء ، لا يستطيعون أن يعرفوا شيئا عن رغبتهم الشديدة في الوصول إلى بلدان ، لم يتحدث عنها بعد رحالة آخر ، ولا عن ذلك الحنين ، الذي كثيرا ما يثور بشكل غريب في أعماق بعض بسطاء الثقافة ، ويحملهم على إضافة لبنة أخرى إلى صرح المعرفة الانسانية ، ولا عن ذلك الشغف العميق بالسفر الذي يشتد برحالين ، أمثال هورنمان . وبوركهارت ومونغو ، وبارك ، حين يعودون من رحلاتهم الطويلة المؤلمة الى بلدانهم ، فلا يدعهم يتمعون بالراحة والهدوء في عالمهم المتمدن ، وإنما يدفعهم بصورة مستمرة إلى الاقامة بين الطوائف المختلفة والإقدام على مغامرات جديدة ، يلقون في نهايتها حتوفهم ، ان العرب لا يؤمنون بشغف من هذا النوع الغريب ، لأنهم لا يعرفون طبيعته !

لم يتجاوز النقيب دوماس والدكتور فارمي في نزهاتهما أبدا مسافة ساعتين جنوب معسكر . وقد حاول الأخير عبثا الحصول على رخصة من الحاكم ، تمكنه من زيارة حمام بوحنيفية ، الذي اشتهرت مياهه المعدنية بين الأهالي لما لها من فوائد طبية ، ولكن الحاج بخارى كان يجد في كل مرة ما يتذرع به ، فعبر له عن استعداده لاحضار المياه المعدنية إن كان في حاجة إليها لعلاج مرضاه ، وفشل الطبيب أيضا في الحصول على رخصة من الخليفة . وهكذا لم تفد لا الهدايا ولا الحيل ولا غيرها في التغلب على عناد هذين الشيخين ولعل سبب رفضهما لا يعود الى ارتيابهما أو كرههما للمسيحيين بقدر ما يعود إلى خوفهما من أن تسخط عليهما القبائل التي تسكن في داخل البلاد ، وتتهمهما بأنهما أتاحا للفرنسيين أن يتجسسوا على البلاد ويدنسوا أضرحة الأولياء باقترابهم منها . ومن نقاط الضعف في حكم الأمير ، الذي أقيم على المشاعر الدينية القوية ، أن رعاياه يسيئون فهم أية مجاملة للفرنسيين إساءة لا مبرر لها ، وأن صوت مرابط واحد متعصب ، يتهم الأمير بخطأ من هذا النوع ، يمكن أن يصبح خطرا عليه ، ولم يكن لحكام مدينة

الجزائر أي تصور عن هذه العقبات ، التي حالت بيني وبين تنفيذ مشاريعي الجميلة ، فقد كانوا يعتقدون أن في وسعي أن أصل دون عائق إلى تلك البلاد المجهولة ، التي تقع بين منحدرات الأطلس الجنوبية بإيالة الجزائر وبين الصحراء ، بل كانوا فرحين بالنتائج التي سأعود بها من هذه الرحلة الشيقة ، فقد تلقيت في معسكر رسالة من السيد غويون (Guyon) ، الطبيب الأول بهيئة الأركان يهنئني فيها بالرحلة التي شرعت في القيام بها ، ويشجعني على التوغل في الصحراء إلى أبعد حد ممكن ، ولكم اضحكتنا اثناء تناول الطعام على مائدة القنصل ، تصورات كبار موظفي الجزائر عن سهولة التنقل في أقاليم الأمير عبد القادر .

كان قد بقي لي أمل واحد ، وهو أن يصل الأمير نفسه . لقد كان عبد القادر أسمي من رعاياه ، وأسمى كذلك من شيوخه بحيث إنني لم أيأس مطلقا من أمكانية الحصول على رخصة منه وحرس يمكنني من القيام برحلتي ، فقد كنت أعرف أن الأمير كان قد عرض حمايته على السيد بليسي ، الذي أدعى أمامه أنه عالم متخصص في المعادن ، يرغب في القيام برحلة إلى الجبال ، ولكن نشوب الحرب من جديد حال بينه وبين القيام برحلته هذه فاتصل بعد ذلك السيد بربروجير (Berbrugger) بعبد القادر ليسمح له بزيارة آثار القبلة ودراستها ، ثم اتصل به الدكتور بوديشون (Bodichon ليرخص له في جمع النباتات والأعشاب الطبية ، فوعد كلا منهما بتقديم جميع التسهيلات الممكنة . حقا لقد بقي كل ذلك مجرد مواعيد ، وكان هذان السيدان قد ترددا بدورهما في القيام برحلتهما إلى جبال الأطلس في داخل البلاد ، إلا أنه كان من المفروض أن يتم اختبار الأمير من خلال الرحلة ، التي كنت أنا أنوى القيام بها آنئد ، وذلك لمعرفة ما إذا كان في الامكان الإعتماد على وعود عبد القادر ، اذ لم يكن هناك ما يمنعني من القيام بتلك الرحلة في الحين ، فقد كان في وسعي أن أكترى الدواب من معسكر وأبعث في طلب الحاجيات الأخرى من وهران بسرعة . وفكرت طويلا في الطريقة التي أعرض بها على الأمير عبد القادر طلبي ، وفي الكيفية ، التي أكسب بها مودته أو أثير بها فضوله أو طمعه من خلال مشروع ما فيهتم هو بنفسه بهذه الرحلة إلى داخل البلاد . وكنت أتصور أن عبد القادر قد يكون أقدر من رحاله

على الاستهانة بصراخ بعض المتعصبين الغاضبين من سكان الجنوب ، فيضع حرسا تحت تصرفي وهو ما لا يجرؤ عليه مرؤوسوه ، فقد سبق له أن تحدى أكثر من مرة المرابطين المتزمتين والقواد والشيوخ المحاربين ، وتجاهل معارضتهم له عندما وقع معاهدة الصلح مع الفرنسيين . وكون فوق ذلك شرطة قاسية إلى حد ما ، وهدد كل قبيلة بسلب نسائها وقطعانها ، إن هي تعرضت بسوء لأروبي يقوم برحلته تحت حمايته .

كنت أنتظر وصول الأمير عبد القادر الشاب بشوق كبير وكان من المتوقع أن يحل بمعسكر في منتصف شهر أبريل ، ولكن الأمير لم يحضر ، فقد كان في ذلك الحين يستعد للهجوم على عين ماضي ، فكانت طلائعه في تقدمات . أما قواته الرئيسية فكانت متمركزة في المدية . وكان قد انضم إليه عدد كبير من المغامرين الطامعين في الغنائم ، الذين التحقوا بجيشه طوعا من جميع جهات البلاد ، ومن ثم لم يكن في حاجة إلى استدعاء قواتها المتمركزة في القسم الغربي من سلطنته ، وسار بقواته في شهر جوان في اتجاه عين ماضي دون أن يمر بمدينة معسكر ، وهكذا تحطم أملي الوحيد أيضا في القيام بهذه الرحلة في داخل البلاد .

وحاولت في أثناء ذلك أن أنتهز فرصة إقامتي قدر الإمكان لأقوم بنزهات في جميع الأماكن القريبة الجديرة بالمشاهدة ، ولم يكن مرافقوا حملة كلوزيل قد شاهدوا منها شيئا على الاطلاق ، فقد كان الجو في ذلك الحين غائما ، وكانت الأمطار تتساقط فلم يمر الجيش بمعسكر ، وإنما عاد راجعا ، بعد استراحة دامت ثلاثة أيام ، دون أن يدخل سهل اغريس ، الذي كان قريبا منه جدا ، وقد أمتعت بنا جميع النزهات ، التي قمت بها مع القنصل وطبيبه ورفيقي رحلتي الآخرين ، إلى أماكن ، لم يصل اليها بعد رحالة حديث ولا ورد لها ذكر عند كل من شو (Shaw) وبيسونيل (Peyssonel) ، وبريس (Bruce) .

وصعدنا في 31 مارس 1838 شوارب الريح ، وهو جبل يقع شمال شرقي مدينة معسكر ، ويتبع السلسلة الجبلية الثالثة ، وتعتبر قمته أعلى قمة في المنطقة ، وتطل على منظر يكاد يكون مساويا لذلك المنظر الذي يطل عليه جبلا اتنا

(Aetna) وريجي (Rigi) ، وقد اتخذ هذا الجبل اسمه الغريب من شكل قمته التي تشبه الشفاه ، فتقبلها الرياح الشمالية الغربية في شهور الشتاء بحدة ، وبذلك تتعثر الرياح نفسها في صفحة الجبل ، فلا تصل بلواها إلى سهل اغريس ، وكان ذلك اليوم جميلا مشمسا ، ولم يرافقنا دليل في نزهتنا هذه ، ولكننا كنا مسلحين بصورة جيدة . وبعد أن تجاوزنا باب علي ببضع خطوات أخذ يحوم فوق رؤوسنا طائر كاسر ، ويطير ببطء وبشكل مهيب ، فأطلقت عليه النار وأسقطته ، كان صقرا كبيرا ، وقد وضعته في محفظة الصيد ، واقترب مني العرب ، الذين كانوا قريبين منا ، وراحوا يبدون إعجابهم ببندقيتي القصيرة ، التي لم يصدقوا أنها تستطيع أن تصيب الهدف أيضا مثل بنادقهم الطويلة ذات الأقفال الكبيرة ، فقد كان على العموم ما اصطدناه في هذه النزهة من حيوانات وفيرا جدا ، وكانت هناك في سفح جبل شوارب الريح نباتات كثيرة ، بعضها نادر الوجود ، فأخذ منها الدكتور فارمي مجموعة ، ملأ بها علبة كانت معه ، وقد عثرنا هناك على خمسة أنواع من أعشاب السحلب ، كما عثرت أنا في منتصف الطريق الى قمة الجبل على نوع آخر من القواقيع الجميلة التي كانت ملتصقة بالأدغال بشكل غزير ، وكان يبدو أنها لا توجد إلا في الأماكن المرتفعة ، فلم نر لها بد لا أنا ولا الدكتور فارمي ، أثرا في مكان آخر وكانت ثمة جعلان غريبة الشكل تدب في الطريق المغبر وفراشات مزركشة كثيرة تطير حولنا ، فمسكت منها نوعين نادرين والتقيت فوق قمة الجبل بمواطني الشهم مذناب مقون (نوع من الفراش) ، الذي كان يتمايل فوق الأزهار العالية في عزة وبهجة .

وتغطي جبل شوارب الريح حتى قمته تربة خصبة ونباتات متنوعة من أزهار وأعشاب وأشجار صغيرة ، لا يزيد ارتفاعها عن خمسة عشرة قدما وتتخلله فجوات ، لا تبدو فيها الصخور العارية إلا في الأماكن القليلة التي جرفت الأمطار عنها التربة . ويتراوح عمق هذه الفجوات بين ثلاثين وأربعين قدما ، أما صخوره السامقة في بعض الجهات فهي كليسة وصوانية ، وقد عثرت في سفح الجبل على رخويات قليلة متحجرة ومبعثرة هنا وهناك ، ولكنها اختفت في الوسط تقريبا . ولم يكن في وسعنا أن نصل الى القمة راكبين ، ولذلك تركنا جيادنا في مرج بسفح

الجبل تحت حراسة الترجمان ، وبلغنا القمة في حوالي الثانية عشرة والنصف ، ويبلغ ارتفاع قمة جبل شوارب الريح 1460 مترا ، ويبدو من فوقها أوسع منظر في الناحية الشمالية ، فيرى المرء منها أولا مجموعة من الجبال المغطاة بالأشجار وعددا من الصخور البارزة والوهاد العميقة المنحدرة ثم يشاهد وديانا فسيحة مخضرة ، تبدو فيها الدواوير وقطعان الماشية وأضرحة الأولياء . وكان من الصعب في هذا الخليط من الجبال والتلال معرفة السلاسل الجبلية الثلاث ، التي تمتد من الشرق إلى الغرب ، وترتبط فيما بينها بجبال كثيرة منحدرة من الشمال إلى الجنوب ، ولم يكن عرض هذه السلاسل بناء على ما استطعنا أن نقيسه بعيوننا . يزيد عن ست مراحل ، أما طولها فقد قدرناه بحوالي ثلاثين مرحلة ، وكان يبدو أن الجبال المنحدرة في السلسلة الشمالية تتجه نحو البحر . كما هو الأمر بالنسبة للجبال الواقعة قرب مدينة الجزائر ، وتشكل أيضا قوسا كبيرا ، يشغل سهل سيق القسم الأكبر منه واستطعنا أن نشاهد ضمن دائرة من السلاسل الجبلية المساحة الممتدة بين ضفاف الشلف ، وهو أكبر نهر بإيالة الجزائر في الشرق . وبين صخور المرسى الكبير ، وكانت سواحل وهران وأرزيو ومازغران ومستغانم واضحة للعيان ، وتنتهي في الشمال على صفحة البحر الأبيض المتوسط الغائمة المزرقة .

أما المنظر الجنوبي فكان محدودا خاليا من التنوع فقد شاهدنا أولا سهل اغريس الذي تنحدر إليه إلى حد ما سلسلة جبال الأطلسي الثالثة ، وكانت تمتد في أطرافه الشمالية تلال خضراء وتكون وهادا خضراء تعتبر أحسن مراعي المنطقة ، وفي وهدة من هذه الوهاد تقع قيطنة سيدي محي الدين ، مسقط رأس الأمير عبد القادر ، وكانت دائما المقر الرئيسي لأسرة محي الدين ويسكنها الآن عم الأمير ، وهو أخو محي الدين الوحيد ، الذي لا يزال على قيد الحياة ، والقيطنة اسم يطلق على صوامع أولئك المرابطين ، الذين يسهرون على تربية الأطفال الصغار ويعلمونهم القرآن ، ويعدونهم ليصبحوا مرابطين ، إذن فهذه الصوامع عبارة عن مدارس ، لا يؤمها إلا أبناء الأسر الراقية أو أصحاب المواهب المتميزة ، الذين يتخرجون منها أولياء ، ويعودون إلى قبائلهم لينالوا أعظم الاحترام وأكبر التقدير ، وتكون قيطنة سيدي محي الدين ، التي تعتبر منذ فترة طويلة أشهر مدرسة دينية

في مقاطعة وهران ، من أربعة بيوت أرضية بيضاء ، يسكن بيتا منها شيخ القيطنة الحالي ، وفيه مكتبته وغرفة استقبال ، ويقيم في البيت المجاور له نساؤه الثلاث ، ويسكن التلاميذ ، الذين لا يزيد عددهم عن اثنى عشر تلميذا ، بناية مستطيلة ، تحتوي على غرفة واحدة تفصلها الحديقةعن مسكن المرابط ، أما البيت الرابع فهو عبارة عن مصلي أو جامع ، يتجمع فيه التلاميذ أو الضيوف لأداء الصلاة ، ويبدو منظر القيطنة في السهل بديعا ، فالبيوت البيضاء ترتدي معاطف خضراء من أوراق الكرم ، وهناك نخلة تنتصب أمام مدخل الجامع وتغرس في حديقة القيطنة الخضر والبطيخ والأزهار ، ويشارك الولي نفسه في العمل ، فيسقي وينزع الأعشاب الضارة ، ويرعى قطيعة الصغير على حافة جدول قريب ، تنمو فيها الأعشاب الخضراء طوال السنة .

ويتردد الزوار على القيطنة يوميا . إما لأداء الصلاة أو لاستشارة الولي والتزود ببركاته ، ولا يأتون إليه فارغي الأيدي أبدا ، فأحدهم يحمل للولي رأسا من قطيعه ، والآخر يحمل كيسا من الحبوب ، وثالث يقدم له مبلغا من المال ، ويجلس سيدي محي الدين ، بلحيته البيضاء أمام باب بيته ، ويحي زواره بلطف ويتسلم منهم الهدايا ويكرمهم في مقابل ذلك بالطعام (الكسكسي) والمياه العذبة .

ولا يكاد عدد زواره يقل عن عشرة أشخاص في اليوم الواحد . فيجلسون حوله ويتحدثون ساعة من الزمن في هدؤ ولطف ، ولكل منهم مشكلته الخاصة ، فهذا يعيش في نزاع مع جاره ، ويطلب من الولي أن يتدخل لإنهاء النزاع وذلك لم يرزقه الله ولدا ويرجو أن يدعو له الرجل الورع حتى يمن الله عليه بالولد ، وثالث يعاني من مرض حقيقي أو متوهم ، أو يعاني منه أحد أعضاء أسرته أو جواد له عزيز عليه أو يعذبه ضميره ، فيلتجيء إلى المرابط ليقدم له نصيحة ويدعو له ليرفع الله عنه كل ذلك . وكثيرا ما يدور الحديث هناك أيضا حول مسائل سياسية . ويتبادل المجتمعون الأخبار الجديدة ، ويتباحثون في القضايا الدبلوماسية ، فيرحبون بكل من يحمل إليه من وهران خبرا بوصول سفينة تجارية ، وبكل من يحدثهم عما أصابه من ترجمان وضيع وبكل حاج يعود من مكة حاملا أخبار من الشرق عن محمد علي وسلطان المؤمنين ، وكان أصحاب النفوذ في

المنطقة من قواد وشيوخ ومرابطين يترددون على سيدي محي الدين في فترات متقاربة ، وكثيرا ما كانت هذه الصومعة الصغيرة تتحكم في مصير البلاد ، ففيها يقرر الحرب أو السلم عدد من الرجال الملتحين ، الذين يرتدون في الغالب الثياب المهترية ويشربون المياه العادية ، ولكنهم يتمتعون بنفوذ كبير لدى قبائلهم ، التي توجد بينها جميعا صلابة العقيدة ، فهناك اتخذ سنة 1832 قرار بالقضاء على أتراك معسكر ، وهناك كان محي الدين الراحل يدعو الناس الى الجهاد ويحثهم على محاربة الفرنسيين وهناك أيضا ولده عبد القادر ، الذي يعتبر دون شك أجدر أبناء إفريقيا بالاعتبار بعد محمد علي ، ففي هذه الصومعة ، التي يدعو كل ما فيها إلى التأمل والهدوء ، تحول إلى رجل عظيم ، وكان عبد القادر قلما يترك يوما يمر ، كلما جاء الى نواحي معسكر ، دون أن يزور مقر أجداده ويتشاور مع عمه .

وترى من قمة جبل شوارب الريح سلسلة جبلية رابعة جنوب سهل اغريس ، يبدو اتجاهها أوضح بكثير ، ولكنها أقل ارتفاعا من السلسلة الثالثة وكانت ، هناك أخيرا سلسلة جبلية خامسة ، ترى في الأفق الجنوبي ، وتمتد بمثابة جدار طويل لخلوها من القمم العالية ، وقد أكد لنا جميع الأعراب ، الذين تحدثنا معهم في معسكر ، أنها تشكل ما قبل السلسلة الأخيرة في اتجاه الجنوب ، وكانت ترتفع جنوب مدينة معسكر سلسلة جبلية سادسة مغطاة بالثلوج ، وبعد ذلك تنحدر الجبال تدريجيا نحو القبلة ، وتصبح عبارة عن تلال غير متناسقة وتمتد مساحة الأراضي الخصبة ، وتدعى التلال أو الهضاب العليا ، في المقاطعة على مسافة حوالي تسعين ساعة ، وتبدأ بعدها الأراضي الرملية ، التي تتخللها الواحات الخضراء .

ويقع كاشروه ، ضريح أسرة محي الدين ، في سفح السلسلة الجبلية الرابعة بجنوب سهل اغريس ، وموقع القيطنة رائق ، ولكنه عادي المنظر ، وتبدو بيوتها البيضاء فوق المروج الخضراء شبيهة بالبيوت السويسرية أو البيوت اللومباردية ، وقد اختارت أسرة محي الدين لأضرحتها منطقة أجمل بكثير من المنطقة التي اختارتها لسكناها ، بل ربما تعتبر أجمل منطقة في المقاطعة ، ويقع كاشروه في وهدة من وهاد الأطلس ، وعلى جانبيه صخور صوانية عالية إلى حد ما ، ذات أشكال

مدببة ، نبتت فوق بعض أجزائها شجيرات الوقل ، وتزاحمت في أعماقها أشجار متنوعة طويلة الجذوع ، بحيث يستطيع المرء أن يهتز فوق أغصانها دون أن يخشى السقوط سقطة مؤلمة ، فيلاحظ المرء هناك أشجار الخروب التي تمتاز عن غيرها في المنطقة بأسرها بظلالها الوارفة ، وأشجار الرمان والمصطكاء والزيتون البرى والزان . وقد اختلط بعضها ببعض ، وربطت بينها نباتات متسلقة ، فتشبه مرة أمواج البحر ، وتشبه مرة أخرى مظلة العرش ، وتشبه في أحيان أخرى سفنا ذات أشرعة وصوار وبيارق ، وكل ذلك يتشكل من اغصان وأوراق خضراء متنوعة .

وكان هذا الأفق المتشكل من الأوراق الهادئة ، لأن الرياح لا تصل إلى الوهدة المغلقة ، يغطي الأضرحة البيضاء ، فلا ترى إلا من بين فجوات الأغصان المنتشرة هنا وهناك ، وكانت هناك سبعة أضرحة ينتظمها صف واحد ، وتفصل بينها أشجار الصبار ، وكان ضريح محي الدين ، أبي الأمير عبد القادر ، محاطا بسور مضاعف ، كان قد بني قربه مصطفى ولد محي الدين ، أكبر اخوتي عبد القادر ، كوخا من أعواد الشجر ، وعاش فيه إلى جانب تراب أجداده حياة خاملة ، وحيدا ومن غير ولد ، لقد كان هذا الرجل الشاب في يوم ما قائد قبيلة فليتة القوية بالشلف ، وشارك في ثورة ضد أخيه ، ثم تخلى فيما بعد عن أعماله واعتزل عن المجتمع ، واتخذ من كاشروه سكنا له ليقضي بقية أيامه في كآبة كبيرة تحت النجوم وبين خرير الجداول الجبلية ، وزقزقة طيور الغابة . ومن الصعب معرفة ما إذا كان هذا الرجل الشاب قد اختار هذه الحياة الغريبة عن ميل إليها ورغبة فيها أم أنه أراد الوصول إلى هدف آخر غير معروف . فامتهن الدجل ، والتقتيل ليؤثر في مواطنيه ويكسب تأييدهم ، وعلى أية حال فإن أسرة محي الدين هذه تتصف بالورع والتصوف ولم يجتمع التصوف بالدهاء السياسي ، والعقلية الحربية ، وحب الانتصار ، وكثرة الطموح إلا في شخصية الأمير عبد القادر .

وهناك مكان آخر يستحق أن يذكر هنا ، وهو قرية البرجية التي تقع في نواحي معسكر ، فقد كانت البرجية حتى سنة 1835 ، قبيلة عظيمة ، تكاد تكون لها قوة قبيلة الغرابة ، ولكنها كانت ، بعد استيلاء المارشال كلوزيل على معسكر ، أول قبيلة تتخلى عن الأمير عبد القادر وتفاوض الفرنسيين ، وعندما

حظي عبد القادر فيما بعد بمساندة قبائل التافنة وعاد إلى معسكر وهو أكثر قوة ، تفرقت كلمة البرجية ، فقد أراد البعض منها أن يفعلوا ما فعله قبيلة الدوائر وقبيلة الزمالة ، ويتجهوا إلى أسوار وهران ليستقروا هناك ، وأراد البعض الآخر ، وهم الأكثرية ، أن يتفاوضوا مع الأمير حتى لا يفقدوا مراعيهم الجميلة في سهل سيرات ، ولكن عبد القادر حاصرهم بجيشه قبل أن يتوصلوا إلى قرار نهائي ، ففر القائد قدور بن مغرفي إلى مستغانم ، وهو يعيش اليوم في قرية مازغران من راتب أذن له به المرشال كلوزيل ، وعندئذ لم يرد عبد القادر ، بعد أن نجا من قبضته شيخ القبيلة المارقة ، أن يفعل بالبرجية ما فعله بالأتراك ، فلم ترق قطرة دم واحدة على يد ابراهيم شاوش ، لأن الأمير قد كان قرر أن يقضي على مقاومة قبيلة البرجية بشكل نهائي ، فشتتها في البلاد فأرغم بعض الأسر على الأنضمام الى قبيلة هاشم ، وأجبر بعضها الآخر على الالتحاق بقبيلة فليته وأرسل حوالي ربعها إلى تقدامت وتلمسان بحيث لا توجد اليوم قبيلة تدعي البرجية ، فقد تناثر أعضاؤها في كامل المنطقة . ومن يعرف مدى حب العربي لقبيلته التي يعتبرها أسرته الكبيرة ، ومدى حرصه على تقاليدها واعتزازه بقوتها وأعمالها البطولية واستعداده للدفاع عن أمجادها بقوة السلاح ، ومن يعرف أن العربي لا يدفعه إلى التخلي عن قبيلته والاحتماء بقبيلة أخرى إلا اليأس والاحرام ، فسوف يدرك مدى ما يعتمل في نفوس أفراد البرجية من كراهية لعبد القادر رغم محاولتهم إخفاء ذلك عن أفراد القبائل التي يعيشون بينها ، وكانوا أقل تحفظا في الحديث عن الكراهية عندما كانوا يتحدثون مع الفرنسيين ، فكثيرا ما سمع القنصل دوماس أخبارا عن تلك العناصر الخطيرة ، وإن كانت لا تزال ضعيفة مؤقتا ، من أفراد البرجية ، الذين كانوا يستعدون لخيانة الأمير عبد القادر ، والخروج عليه . ولكن البرجيين كقبيلة لم يعودوا يشكلون خطرا بالنسبة لعبد القادر ، فقد كسرت شوكتهم وفل سلاحهم بعد تشتتهم ، ومع ذلك فإنهم ينطوون على غضب واستياء ، وسوف يتسارعون الى مساندة أي شيخ يثور على الأمير في أية جهة من جهات البلاد .

وتبعد قرية البرجية ، عن معسكر بأقل من ساعة ، وهي لا تتكون من بيوت الشعر ، وإنما تتكون من بيوت بعضها من الأعواد ، وبعضها الآخر من

الطين أو الحجارة ، ويسكنها حوالي ثلاثين أسرة ، وقد بدا لي البرجيون أقل قسوة إلى حد ما من بقية قبائل المقاطعة ، وعلى الرغم من أنهم أفقر من الغرابة في الأموال والمواشي ، فإن لديهم الكثير من الممتلكات الصغيرة كما أن حقولهم أفضل من حقول الغرابة ، وتقع هذه القرية في منطقة قبيلة هاشم ، التي تؤيد الأمير بكل ما في وسعها من قوة ، وتحرس البرجيين لارتيابها في أمرهم .

بعد ان انتهينا من مشاهدة جميع الأماكن المهمة في نواحي معسكر ، شعرت برغبة شديدة في القيام بنزهة أبعد في الجبال ، فقد كان هناك على بعد خمس مراحل في الجنوب الغربي حمام سيدي بوحنيفية ، الذي نال في البلاد شهرة كبيرة بفضل مياهه المعدنية ، ولا يعتبر مكانا ملعونا مثل حمام المسخوطين ، وإنما يسعى إلى زيارته سعيا عدد كبير من الرحالين والمرضى والزوار ، للتداوي في حماماته الطبيعية وللتبرك بضريح مرابطه المشهور على حد سواء ، وكان النقيب دوماس والدكتور فارمي قد حاولا أكثر من مرة الحصول على دليل يرافقهما اليه ، ولكنهما لم يوفقا في ذلك ، فأرادا أن يغتنما فرصة وجودي في هذه المرة ويقوم بالمحاولة نفسها ، بالحاج أكثر ، وكانا يريان في بداية الأمر أنه من الأفضل أن أحاول أنا بمفردي الحصول على رخصة من حاكم المدينة ، لأنه سبق له أن رفض طلبهما عدة مرات فإذا لم يتم لي ذلك فإن علينا عندئذ أن نذهب معا في زيارة رسمية .

فذهبت يوم 3 أبريل (1838) بصحبة الترجمان بن عمران إلى الحاج بخاري فوجدته جالسا في غرفة الاستقبال ، وحوله عدد من الخوجات والشواش ، وكان قد انتهى آنئذ من الفصل في إحدى القضايا ، فكان يبدو عليه الانشغال نوعا ما ، ومن ثم لم يتكرم علي حتى بالدعوة إلى الجلوس ، فجلست قبالته بكل بساطة فوق الحصيرة وبدأت معه حديثا ، أود أن أنقله هنا حرفيا ، ليستطيع القارئ أن يكون لنفسه فكرة سوء الظن الذي تمكن في نفوس موظفي عبد القادر ، وعن العراقيل ، التي يضعونها دائما في طريق الأوروبي كلما أراد زيارة المناطق التي لم تطأها بعد أقدام الجيوش الفرنسية .

قلت له :

ـــ كنت قد وعدتني بأن تضع تحت تصرفي حرسا أو دليلا كلما عن لي أن أزور الأماكن البعيدة في هذه المنطقة ، وأنا اطلب منك اليوم أن تفي بوعدك وتقدم لي دليلا يرافقني إلى حمام سيدي بوحنيفية .

فسألني الحاج محارى دون أن ينظر إلي :

ـــ وماذا تريد أن تفعل في حمام سيدى بوحنيفية ؟

ـــ أودّ أن أجلب شيئا من مياهه المعدنية . فقد سمعت أن لها قوة شافية ، وهناك نبيل من أبناء شعبي يعاني من مرض خطير في وهران ويرجو الشفاء منه بفضل هذه المياه المعدنية .

ـــ سوف أوفر عليك تعب الرحلة البعيدة ، فالطريق يمر بالصخور والهوى ، وقد لا تتمكن من العودة اليوم . لذلك سأرسل شاوشا إلى هناك ليجلب لك ما تريده من الماء .

ـــ لن يفيدني ذلك في شيء ، فعلي أن أفحص الماء في المنبع نفسه قبل أن يبرد حتى اختبر قوته الشافية .

ـــ لا يجوز لك أن تقترب من المنبع ، فهناك يثوى مرابط لا يحب النصارى . وإذا أنت اقتربت منه ، فسوف يسلط عليك المرض ويكون الماء سببا في موت مريضك .

ـــ إني لأحترم المرابطين وأقدسهم ، فأنا أعرف أنهم رجال صالحون ، يستحقون حبكم لحكمتهم وشدة ورعهم في إصلاح ذات البين ، فقد أثنى عليهم النصارى ، الذين عادوا من الأسر ، ثناء كبيرا ، لأنهم كانوا دائما يجدون عندهم الحماية من العذاب الذي يسلطه عليهم محاربوكم ، ولذلك لا أعتقد أن مرابطا ، أجل رفاته كل الإجلال ، يمكن أن يلحقني منه سوء .

فكر الحاكم برهة ثم قال :

ـــ قد يعفو المرابط عنك ، ولكن مرافقيك لن ينجوا من ذلك بالتأكيد .

ـــ انهم يريدون أن يفعلوا ذلك رغم الخطر الذي قد يتعرضون له . وإذا مرضوا فليس الذنب ذنبك ولن يلومك أحد على ذلك .

ـــ ان الوكيل (القنصل) صديقي ، ولا أحب أن يلحقه أذى ما دمت أستطيع منع ذلك .

لقد كنت على يقين بأن سوء الظن هو الذي يدفعه إلى انتحال هذه الأعذار ، ولذلك غيرت النغمة وقلت له :

ـــ انت تعلم أني لست فرنسيا ، وإنما أنا ألماني ، ولا تهمني شؤونكم الحكومية إطلاقا ، ولم يحارب شعبي شعبك أبدا ، وسلطان ألمانيا صديق لسلطان المؤمنين في القسطنطينية ، ثم إنه من الأفضل لكم أن تكسبوا صداقة سلطاني ، فهو قوي جدا كما حدثك بذلك الوكيل ، فلديه مدافع كثيرة وخيول لا حصر لها .

وهناك قاطعني الحاج بخارى بحيوية :

ـــ سيان أن تكون ألمانيا أو فرنسيا ، فقد عقدنا الصلح باخلاص وصدق مع الفرنسيين ، ولا يمكن أن نمنع عنهم شيئا سمحنا به لنصراني آخر .

وفي النهاية وافق الحاج بخارى على أن يرسل معنا من يرافقنا إلى نصف الطريق ، ومن هناك يمكنني أن نرسل من أقرب دوار أعرابيا ليملأ لنا جرارنا بماء المنبع .

وقد أثارت هذه الموافقة النصفية فرحة كبيرة في دار القنصلية ، ذلك أننا كنا نأمل أن نرشو ونحن في الطريق ، الدليل فيمكننا من الوصول إلى الحمام نفسه ، وامتطينا ظهور جيادنا بعد تناول الفطور مباشرة ، وكان عددنا ستة : النقيب دوماس وأخوه ، والطبيبان فاريي وفارلي وأنا والترجمان بن عمران ، وكان دليلنا فارسا من فرسان الأمير ، وهو رجل في ريعان الشباب ، قوى العضلات ، يعتبر نموذجا للعربي الأصيل المسمر الوجه ، تنطق ملامحه بالجرأة والحيوية والصراحة ، فالشباب الذي كان يتمتع به ، لم يسمح بعد لذلك التعصب

البغيض الصارم ، تعصب الشيوخ ، بالسيطرة على ملامحه ، فسرعان ما لاحظنا أنه انسان يمكننا أن نعتمد عليه في حالة ما إذا تعرضنا لخطر ما ، ومع ذلك فقد قدم لهذا الفارس الشاب المارد حصان هزيل تعس ، إلى درجة أننا كنا نتوقع انهياره بعد كل خطوة نخطوها إلى الأمام ، ولعل ذلك قد تم عن قصد ليحال بين الدليل وبين الموافقة على الوصول بنا إلى أبعد من المكان الذي حدده له الحاكم . وقد استأنا لذلك ، وحدثنا الأعرابي الشاب عن استيائنا هذا ، فكان رده على ذلك أن وخز حصانه بالمهماز الطويل ، ورمى ببندقيته الرفيعة الشأن في الهواء وكبر كما يفعل في المعركة ، وانطلق فوق السهل كالريح العاصفة ، وتحول حصانه الهزيل فجأة إلى جواد صحراوي أصيل ، وراح يعض على لجامه ويرفع ذيله وعرفه الطويل يهتز في الريح ، بينما كان راكبه ينظر إلينا نظرة الفوز والاحتقار ، لقد كان ذلك منظرا فاخرا فهتف الفارسان الفرنسيان في إعجاب : «ياله من أعرابي أصيل» وعندئذ ، شعرت جيادنا أيضا بالرغبة في السباق ، وبما أن الأرض المنبسطة كانت تسمح بذلك ، فقد تركنا لها العنان ، ودخلنا في سباق بهيج ، وكان كل واحد منا يريد أن يرى الدليل الشاب أن في استطاعته أيضا أن يعدو فوق حصانه بسرعة ، وقطعنا مسافة طويلة دون أن نهتم بالهوام والأعشاب التي كانت تتوسط الطريق .

يبلغ طول سهل اغريس اثنتى عشرة ساعة وعرضه ثلاث ساعات ، ويتخلله وادي الحمام ووادي سوسي ، ولكن الأخير منهما لا يكاد يستحق هذه التسمية ، وتسكن سهل اغريس قبيلة واحدة وهي قبيلة هاشم التي انقسمت قبل حوالي قرن من الزمان إلى قسمين ، هما هاشم الشراقة ، وهاشم الغرابة ، ولكل منهما قائد خاص ، وتستطيع القبيلتان أن تكونا معا جيشا قوامه ثلاثة آلاف فارس وألف راجل ، وقد تكونان أقل عددا من بني عامر ، ولكنها أغنى منها بكثير ، فلهما الخيول والقطعان الكثيرة ، وتفوقانها فوق ذلك في القوة والعزيمة ، إلا أنها من جهة أخرى تفوق الغرابة في وحدة كلمتها ووجودها في موقع مركزي قرب معسكر يجعل منها أقوى وأهم قبيلة في المقاطعة .

وتغطي حقول القمح والشعير نصف سهل اغريس ، وكان النخل البرى يطل من بين السنابل على امتداد البصر . وكانت الأرض أصلح للزراعة منها

للرعي ، لذلك كانت قبيلة هاشم ترسل قطعانها بعد زراعة القمح مباشرة إلى سهل سيق ، فتهدم دواوير كثيرة ويرحل سكانها ولا يعودون إلا في موسم الحصاد ، ولا يحتوي سهل اغريس على المستنقعات ، وذلك ما يجعله مكانا صحيا صالحا للاقامة ، ولكنه أقل خصوبة من سهل سيرات ، ولا سيما فيما يخص الأعشاب الطرية ويعود السبب في ذلك إلى افتقاره إلى الماء الوفير وفي استطاعة المرء أن يجعل من سهل سيرات ، عن طريق شق عدد من القنوات ، حديقة خصبة صالحة لمختلف أنواع الزراعة ، في حين أن سهل اغريس أصلح لزرع الحبوب منه لأي شيء آخر . وعندما رمينا بأنظارنا فوق سهل السنابل الذهبية ، صاح القنصل مازحا : «انظروا ، لكم كان في وسع بوجو أن يفرح ويبتهج هاهنا ، فلو حضر هنا لاستطاع أن يحرق الأخضر واليابس !» ولكننا أدركنا أيضا أنه من المستحيل أن يخضع العرب بمثل هذه الوسائل التي اقترحها بوجو ، ذلك أن الجيش الفرنسي قد يحتاج إلى بضعة أسابيع ليتمكن من تخريب جميع الحقول ، التي تفصل بينها مسافات غير مزروعة .

وكانت هناك سلسلة جبلية تمتد على يمين طريقنا ، في الناحية الجنوبية منها عدة تلال منفصلة عنها ، لاحدها قمة غريبة الشكل ، فقد كانت عبارة عن صخور متراكمة ذات أشكال عجيبة ولكننا لم نتمكن من رؤيتها بوضوح ، فقد كان التل يرتفع فوق السهل بمقدار ثمانمائة قدم على الأقل وقد حدثنا العربي قائلا «هذه كدية المسخوطين ، التل الملعون ، فهناك فوق القمة يجلس نساء محجبات فوق ظهور الجمال وعازفون على الربابة والقصبة ، وقد مسخهم الله حجارة» ، ورجوناه أن يحدثنا أكثر عن تلك الأشباح ولكنه أجابنا خائفا وبصوت خفيض بأنه لا يعرف أكثر مما ذكره لنا ، وبينما نظر مرافقي إلى قمة التل في فضول لاحظت أنا كيف التف العربي الشاب في برنوسه وراح يتمتم بالأدعية في هدوء ، وبعد أن تركنا ذلك التل ورائنا ، بدا عليه وكأنه قد تخلص من فزع مريع ، وعندما جاء إلينا في اليوم التالي ليتناول معنا القهوة ، طلبنا منه أن يحدثنا عن ذلك مرة أخرى ، فامتنع في بداية الأمر ثم روى لنا القصة المتداولة في المنطقة عن هذا الجبل المسحور وأكد لنا أنه سمع أثناء مروره راكباً حصانه نغمات الربابة أو العازفين

الوهميين وزغاريد الزفاف المنطلقة من حناجر راكبات الجمال المتحجرات ، إن آذاننا الكافرة لم تسمع لذلك مثيلا ، وكم أسفنا لأننا لم نستطيع أن نتأمل هذه المعجزة عن قرب ، فقد كان التل بعيدا عن طريقنا ، ولو ذهبنا إليه لكان علينا أن نتنازل عن زيارتنا للمياه المعدنية الساخنة فاليوم الواحد لم يكن كافيا للقيام بذلك .

وحين وصلنا إلى المكان ، الذي حدده الحاكم للدليل ، رفض الدليل مواصلة السير ، وقد كنا ننتظر ذلك منه . ومن ثم وضعت في يد الشاب العربي قرشين اسبانيين ، ووعدته بنفس المبلغ بعد عودتنا من الحمام المعدني . فوزن المال في يده ، وطلب مني أن أكرر له وعدي مرة أخرى ، وأخيرا قال «عشرة بوجوات ، ولا بأس بعد ذلك أن يضربني الحاكم بالفلقة عشرين ضربة .»

وبعد أن سرنا حوالي ساعتين ، تركنا السهل خلفنا ودخلنا المنطقة الجبلية ، فأصبح طريقنا أكثر صعوبة ووعورة ، وهو الطريق العادي الرابط بين معسكر وتلمسان ، إلا أنه ليس من السهل على الجيش أن يمر به ولو كان لا يحمل معه غير المدافع الجبلية والعربات الصغيرة ، ذلك أنه على الراكب نفسه أن يسير ببطء وحذر حتى لا يتعثر في المنحدرات والحجارة الكثيرة ، وأن المرء ليشعر في مثل هذه الأمكنة بمدى فائدة الحصان العربي ، لقد قمت برحلات كثيرة في هذه البلاد ، وكنت أسير في الظلام الحالك ، وفي العواصف والأمطار ، عبر الغابات والمرتفعات المليئة بالأوحال والحجارة ، لكن حصاني لم يتسبب أبدا في سقوطي ، وفي استطاعة الخيالة الفرنسية ، التي لا تركب غير الخيول العربية بعد أن عرفت قيمتها شيئا فشيئا ، أن تمر الآن بهذه الأراضي الجبلية ، في حين أن المدافع وعربات الذخيرة لا يمكن نقلها عبر هذه المنطقة إلا بعد إزالة العديد من الحواجز .

وكان مرافقي العسكريون يرون أنه من المستحيل مرور الجيش من هنا قبل أن يمهد الطريق لذلك ، وقد تذكرت في أثناء ذلك أني سمعت أحاديث مماثلة عن قسنطينة من أفواه بعض الضباط الماهرين ورجال المدفعية ، ومع ذلك فقد حملت هناك مدافع ثقيلة في ساعات معدودة عبر منطقة أصعب وفي جو غير مناسب .

وبعد حوالي ساعتين تفتحت الجبال أمامنا عن وهدة عريضة ، وكان ارتفاع القمم يتراوح بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف قدم ، وكانت الجبال مغطاة بأشجار برية لم أر أجمل منها في أية منطقة من مناطق الأطلس ، وقد خيل إلينا من بعيد أن هناك أعرابا أو قطعان ماشية ينتشرون فوق الوهدة الخضراء ، وعندما اقتربنا من ذلك ، لاحظنا أنها شواهد قبور ، ترتفع عن الأرض ثُلاثً ، وتبدت لنا بعد حين في الناحية الغربية قبة المرابط البيضاء ، التي كانت القبور الأخرى القليلة تحيط بها وكأنها تجمع حول عرش ، ويبدو أن سيد بوحنفية كان وليا من الدرجة الأولى ، فقد أقيم قربه مسجد صغير ، وسكن حوله عدد من «الطلبة» لحراسة الضريح وإيواء الزوار ، ولاشك أننا كنا المسيحيين الأوائل الذين دخلوا هذه الوهدة المنعزلة .

وأخذ « الطالب » النبيل يتحدث مع دليلنا ، الذي كان قد سبقنا إليه ، وقد بدا علينا أنه يعاتبه على مرافقته للكفار إلى هذا المكان المقدس ، ورفض بصورة قطعية السماح لنا بالوصول إلى الحمام وغرف الماء منه . ولم تكن الكلمة الطيبة تفيد مع هذا الانسان المتعصب ، وقد رفض حتى المال الذي عرضناه عليه . فوقفنا أمامه وقد استبد بنا الغضب والحيرة . لقد وصلنا إلى هدفنا ، فكيف نعود دون أن تحقق ما كنا نريده ؟ ورغم أن الرجل ومن معه لم يكونوا مسلحين ولم تكن هناك دواوير بالقرب منهم ، فإن استعمال العنف والتهديد ، لم يكونا مفيدين بالنسبة لنا في هذه الحالة ، وفي نهاية الأمر أخرجت من جيبي عددا من القروش الإسبانية الجديدة . وأريته اياها ، فرفض مرة أخرى ، غير أني لاحظت أنها أثارت صراعا في نفسه ، فقد حاول أن يبعد نظره عن القطع الفضية ، ولكن عينيه ظلتا عالقتين بها ، فالأعرابي يسيطر عليه التعصب الديني والطمع في الحصول على النقود ، ومن المؤكد أن هاتين الصفتين كثيرا ما يحتدم الصراع في نفسه بينهما ، وكان النصر في هذه المرة للصفة الأخيرة ، فما كدت أعيد القروش الصقيلة إلى جيبي ، حتى مد الرجل الولي يده ، وطلبها مني موضحا بأن على أن أمضي بمفردي إلى منبع الماء وأن على مرافقي أن ينتظروا عودتي ، فسرت خلفه في اتجاه المرابط .

كانت المياه تنبع من مغارة صخرة ، تعلو عن الأرض حوالي ثلاثين قدما وتصب في حوض صغير لا يزيد عمقه عن بوصتين ومحيطه عن خمسة أقدام ، ولاشك أن هذا الحوض كان سابقا أكبر حجما وأكثر عمقا ، فقد كانت أرضيته مغطاة بطبقة كلسية صلبة ، نشأت عن ترسبات المنبع ، وغطت الحوض شيئا فشيئا ، ولسوف تسد المنبع . وقد أصبحت هذه الترسبات عبارة عن كلس ممزوج بحامض الفحم ، يتكون منه جانب من الصخرة ، وهو أقل بكثير مما يوجد منه في حمام المسخوطين ، ولا يتوفر حمام سيدي بوحنيفية على واحد في المائة من غزارة المياه الموجودة في مقاطعة قسنطينة ، فمياهه تسيل ضعيفة من ثقوب كثيرة ، وتأخذ طريقها عبر مجرى محفور لتصب في فناء ضريح الولي ، حيث أقيمت عدة أحواض للمستحمين ، ولم يسمح لي بالدخول إلى ضريح الولي نفسه ، وتبلغ درجة حرارة المياه خمسا وستين درجة . وبما أني لم أتمكن من البقاء هناك أكثر من دقائق معدودة ، فإني لم أجد ما يكفي من الوقت لملء الجرار والقرب كلها ، ومن ثم لم أستطيع أن أتأمله كما ينبغي ، كانت الشمس قد اوشكت على المغيب ، وكان «الطالب» يرى أني قد رأيت القدر الذي تسمح لي به القروش الإسبانية .

وكان مرافقي قد تسللوا خلفي بهدوء الواحد بعد الآخر ، فوصل أولا الدكتور الملتحي فارمي ، وتبعه الملازم دوماس ، ثم وصل السيد فالي ، والترجمان عمران ، في حين بقي النقيب دوماس مع الأحصنة إرضاء لفضولنا ، وقد تغير وجه «الطالب» عندما شاهد رفاقي يقتربون من الماء بعد أن كان قد منعهم من ذلك ، ولكنه لزم الصمت ، وكان دليلنا قد دخل قبة المرابط ليؤدى الصلاة ، فسألت «الطالب» في أثناء ذلك عن المنطقة ، فأخبرني بأن هناك خمسة ينابيع أخرى من هذا النوع تنبع في الوهدة ، لكن مياهها أقل غزارة وأقل حرارة أيضا . وذكر كذلك أنه لا توجد آثار رومانية في الأماكن القريبة ، إلا أن هناك على بعد ساعتين مدينة كبيرة في الجنوب ، تحتوي على الكنائس المهدمة والأعمدة ، والحروف التي لا يستطيع قراءتها أحد في المنطقة ، فهل هي ياترى آثار مدينة فكتوريا ، التي يحدد بطليموس موقعها في هذه المنطقة ؟ وحين خرج دليلنا من

قبة المرابط طلب منا أن نرحل بسرعة فتركنا المنطقة الجبلية الجميلة ، التي لم نشاهد منها إلا القليل ، بقلوب كسيرة . ومع أن الظلام كان قد بدأ يمتد فوق جبال الأطلس ، فقد أخذنا نسير ببطء وكنا نلتفت إلى الوراء بصورة مستمرة لننظر إلى وهدة الأضرحة الهادئة حيث تنتصب الشواهد ، الواحد قرب الآخر ، ومكثنا كذلك إلى أن اختفت عن أنظارنا ، ويحمل العرب موتاهم من أماكن بعيدة إلى وهدة سيدي بوحنيفية ، ولعلهم يفعلون ذلك لتقدم لهم الطبيعة البديعة صورة عن الجنة ، التي وصفها لهم القرآن (الكريم) بشكل شاعري .

لقد كان المنظر الطبيعي الهادي بديعا إلى أبعد حد ، ومع ذلك فإنه لم يجلب انتباهي كثيرا ، فقد شعرت بحنين إلى المنظر الخلقي المعتم في الجنوب ، حيث تقع المدينة الأثرية ، التي تحدث عنها «الطالب» وعندما حاولت عبثا أن أنظر من خلال المنظار الكبير ، حسدت ذلك الرحالة السعيد ، الذي سيتاح له في يوم ما التوغل في المناطق المجهولة ، التي لا يزال الجهلاء القساة حتى هذه اللحظة يغلقون أبوابها دون الرحالين في ريبة .

هوامش :

(1) يذكر تشرشل (حياة الأمير عبد القادر) ترجمة الدكتور أبو القاسم سعد الله ، الدار التونسية للنشر ، 1974 ، ص 86 ، أن خليفة الأمير عبد القادر هو مصطفى بن التهامي ، ولكن فاغنر يذكر إسم الحاج عاري ويصفه بأنه صديق الأمير منذ أيام طفولته ، ويذكر ابن التهامي على أنه شخص آخر .

(2) أنظر ما كتبه فاغنر عن الأمير عبد القادر في الفصل التاسع .

(3) أنظر تشرشل ، المرجع السابق ، ص 104 ، وما بعدها .

(4) لم يذكر فاغنر في الجزئين الأخيرين إسم قنصل الأمير عبد القادر في وهران .

(5) وردت هذه العبارة بالعربية مكتوبة بحروف لاتينية .

(6) ذكره فاغنر ، ج 3 ، ص 7 ، من بين جامعي الحشيش .

(7) يؤكد فاغنر في موضع آخر ما قاله هنا . أنظر ج 3 ، ص 466 .

(8) مع هذا الخوف المسعور فإن فاغنر يعترف في مقدمة الجزء الثالث (ص 41-42) أنه عاش فترة من الزمن في حماية الأمير عبد القادر في بعض المناطق التابعة له .

(9) استعمل المؤلف هنا صيغة المفرد (امش - امش) .

(10) أورد فاغنر في الجزء الثالث في كتابه (ص 355) ، ترجمة صغيرة لميلود بن عراش جاء فيها : « يلعب ميلود بن عراش دوراً مهماً في الحرب ، وهو ينتمي إلى قبيلة الغرابة ، ولكنه لا يتمتع ، بسمعة كبيرة عند هؤلاء الأعراب الفارين . فهو فيما يقال أقل شجاعة ، وبالإضافة إلى ذلك فارس رديء ، يخشى متاعب الحرب ، ومع ذلك فهو دون شك رجل لبق وأفضل مفاوض عند الأمير ، وذلك ما جعل الأمير عبد القادر يكلفه بالقيام بمهمة سياسية ، حيث أسند إليه حمل هداياه إلى ملك فرنسا في باريس ، ووضع كل ثقته فيه ، إلا أنه فقد رضاء الأمير عنه منذ ذلك الحين ويحبه مواطنوه خلافاً من علمائهم » .

(11) ذكر فاغنر في الجزء الثالث (ص 68) أن وفرة الصوف السوداء جعلت أغلب رجال الأمير يرتدون البرانس السوداء .

(12) تحدث فاغنر في الجزء الثالث (ص 51) عن أسود غابة مولاي إسماعيل فقال : « ذكر لي سكان معسكر وأعراب قبيلة الغرابة أن غابة مولاي إسماعيل الواقعة بين سهل سيرات وسهل التلالات هي المقام المفضل للأسود ، وقد سافرت عبر هذه الغابة مرة في الليل وأخرى في النهار ولكني لم أر أسداً ولا سمعت زئيره ، وكنت أثناء مروري بها ، تحت الحراسة القوية . »

(13) يقصد المؤلف الرحالة الإنجليزي توماس شو ، الذي زار الجزائر في النصف الأول من القرن الثامن عشر .

(14) لا يختلف رأي المؤلف في سكان المنطقة، وفي سكان البلاد بصورة عامة، عن آراء غيره من الأوروبيين. أنظر مثلا تشرشل ص 125 وما بعدها.

(15) ولا تزال إلى اليوم تحتفظ بهذه المكانة عند الأمير عبد القادر. وتتمتع كذلك بنفس المنزلة عند قبائل بني هاشم الشراقة وبني هاشم الغرابة القوية. (هامش المؤلف).

(16) يتحدث المؤلف في الجزء الثالث من كتابه (ص 214) عن الأحداث والمعارك التي يشير إليها هنا، ويفصل القول في مجيء الشيخ موسى الدرقاوي إلى المدية.

(17) ذكر المؤلف (ج 2، ص 96) عند حديثه عن طيور الخرائر أن الأمير عبد القادر كان قد أرسل أثناء معاهدة التافنة ثماني نعام هدية إلى باريس، ولكنها وصلت إلى هناك في حالة يرثى لها، ذلك أن مسئولي الأمير، الذين حملوا النعام بأمره إلى مدينة الجزائر، كانوا قد نزعوا منها الريش السود وباعوها ليهودي المدينة.

(18) يستعمل المؤلف في الجزء المذكور (ص 99) تعبير «مرابطين مسحوطين» ويذكر أن مما يزيد في إيمانهم بذلك هو أن طيور اللقلق تعتاد أن تبني أعشاشها فوق قبب المساجد قرب الهلال ويبدو لنا حين تميل رؤوسها إلى الخلف وتلقلق في اتجاه السماء فإن ذلك يعني أن «المرابطين المسحوطين» يؤدون صلاتهم.

الفصل الثاني عشر

صور شمسية جزائرية

لا يكاد القارىء يفتح اليوم كتابا قديما ، يتحدث عن الجزائر في عصر من عصورها بلغة أجنبية ، حتى يجد نفسه قد انتقل اليها بالفعل ، يعيش ظروفها التاريخية المختلفة ، وأوضاعها الفكرية المتباينة ، ويستعرض معالم تقاليدها وعاداتها ويشاهد مبانيها ومساجدها وأزقتها ، بل كثيرا ما يخيل اليه أنه يسمع حركة شوارعها ، وأصوات باعتها ، وصياح دلاليها ، وأحاديث مقاهيها وأغاني أطفالها العراة ، ويشعر أنه يحيا في اجوائها الخاصة . ذلك أن المؤلف الغربي ، الذي أتيح له أن يعيش فيها فترة من حياته ، كان حريصا كل الحرص على ذكر جميع التفاصيل والجزئيات التي لا يهتم بها الكثير منا اليوم ، ويرى في الحديث عنها ، في أي مناسبة كانت ، ضربا من اللغو واضاعة الوقت ، مع أنها تفتح أمام الدارس مجالا كبيرا لدراسة نفسية الشعب والتطورات التي تطرأ عليه بين وقت وآخر ، وتساعد على تفسير بعض التصرفات المعينة في ظروف خاصة ، هذا بالاضافة الى أنها تربط حاضرنا بماضينا ، وتكون جزءا من تكويننا الخلقي ، وشخصيتنا القومية .

وهذا المؤلف الغربي ينقل الينا حتى مشاعره نحو الجزائر فنلمح بين سطوره وكلماته ، بين جمله وألفاظه ، الخوف حينا ، والحقد حينا آخر . ومن

شأن هذا الحقد ايضا ... هذا الحقد التاريخي أن يفسر لنا بدوره مسلك بعض الدول والأفراد تجاه الجزائر المعاصرة ، التي بدأت تستعيد مكانتها التاريخية وتستعد للقيام بدورها في بناء حضارة الانسان . فهناك اشياء كثيرة وتصرفات متعددة ليست جديدة ، وانما هي مواقف تاريخية كتب لها البقاء والاستمرار ، سجلها غيرنا ولم نسجلها نحن ... لم يسجلها اجدادنا .

وإذا كان أغلب من تحدث عن الجزائر من المؤلفين والرحالين الغربيين ، وخاصة في الفترة التي أعقبت الاحتلال ، قد اقتصر على معالجة الجوانب المذكورة ، فان المؤلف النمساوي آدولف شترال قد تناول ، بالاضافة إلى ذلك جانبا لم يتعرض إليه ، فيما أعلم ، غيره . فهو يقدم لنا في كتابه «صور شمسية جزائرية» ، الذي نشره في مدينة فيينا سنة 1842 ، قصصا وحكايات عن الجزائر . قدم لنا في جزء منه شخصيات جزائرية وأجنبية ، وحلل عواطف بعضها نحو البعض الآخر ، وقد أخضع أسلوبه فيها لموجة الرومانسية التي كانت قد ظهرت قبل ذلك بسنوات ، كما صور طبيعة بعض المعمرين والجشع الذي حملهم على المجيء الى الجزائر .

وقد قسم المؤلف كتابه الى أربعة اقسام :

1 ــ يحتوي القسم الأول منها على القصص التالية :

أ ــ انتقام الحضري ، وهي قصة ملازم فرنسي ، جاء الى الجزائر في الشهر الثاني بعد الاحتلال ، وقد لعبت برأسه طيوف الف ليلة وليلة ، وخيل اليه أنه يستنشق هواء اجوائها ويرتاد ملاهي الرقص الشرقي ، ويعيش في نعيم ما بعده نعيم . وشاهد ذات يوم احدى نساء احمد بن حمود ، وهو من اثرياء مدينة الجزائر ، فوق سطح المنزل المجاور لنزله ، فهام بها ، واخذت هي تبادله بعض الاشارات ، ولكن سيدها علم بأمرها ، ولزمها متلبسة بجريمتها ، فاستسلمت له استسلام الحمامة لمخالب الصقر الحادة ، فمضى بها الى ضيعته قرب معسكر بير خادم ، وهناك أنتقم منها في فجر أحد الأيام . وعند عودته ناداه أحد الحراس مناداة برناردوا لفرنسيسكو في مسرحية هاملت ، ولكن أحمد بن حمود لم يجب ، فاطلق عليه الحارس النار وارداه قتيلا .

2 ـــ المعمر المخدوع . يتحدث شترال في هذه الحكاية عن معمر قدم الى الجزائر بحثا عن الثروة والهناء ، فمر في طريقه ببناية يسكنها بضعة جنود فرضت عليهم الاقامة الجبرية ، فاقترب منهم واعرب لهم عن رغبته في الحصول على منزل يكون قريبا من الجزائر ... وبعيدا عن النار والبارود ! وإذا بأولئك الجنود يعرضون عليه ، دون اشارة حارسهم ، التنازل له عن تلك البناية مقابل ستين فرنكا ودلو من النبيذ . وعندئذ اجتاحت المعمر موجة من البهجة والسرور ، واهتز لهذه البداية البديعة . وحين طلب منهم ان يقدموا له ضمانا على صحة الصفقة ، أجابه احدهم : «هذا شيء غير معمول به في هذه البلاد . يكفي أن يقول المرء في ذلك : هذا البيت لي ! ونحن شهود .» وهكذا تم الصفقة بكل سهولة ، ولكنه ما كاد يستقر بها حتى جاء بعض الضباط وأخرجوه منها بالقوة .

3 ـــ مغامرة خطيرة . هذه القصة تصف لحظات حرجة مرت بضابط فرنسي ومرافقه الصبايحي ، عندما كانا يقومان بإحدى المهمات على طريق وهران ، حيث خرج اليهما رجال من بني عامر ، واعترضوا طريقهما ، ولكن ظهور دورية فرنسية على حين غرة حفظ عليهما حياتهما وابعد طيف الخوف وبالتالي الموت عنهما ، فاختفى رجال بني عامر كما خرجوا فجأة .

ب ـــ أما القسم الثاني فيتضمن بدوره الحكايات التالية :

1 ـــ الساحر . يعترف المؤلف في مقدمة هذه الحكاية انه قد استمدها من مذكرات رجل عاش في الجزائر مدة تزيد عن ثماني سنوات ، ويروي قصة عراف كرغلي ، حدث جلساءه عن نتائج حملة قسنطينة الثانية قبل القيام بها بمدة قصيرة ، ووصف مراحل معاركها ووقوع قائد الحملة عن ظهر فرسه وإصابته وموته ، وتنبأ كذلك للفتاة نجمة بمستقبلها مع حبيبها الفرنسي !

2 ـــ صيد الضباع في نواحي الجزائر . في هذه القصة يصف المؤلف لحظة يلتقي فيها احد الصيادين بالضبع في منطقة حسين داي ، فيكتشف أن بندقيته فارغة وأن حزامه خال من الذخيرة ! وأجمل ما في هذه الحكاية هو تحليله لمشاعر هذا الصياد ، حين يدرك الخطر المحدق به ، ويشعر بالحيوان يلقيه أرضا ،

فيتصور القمر يدور في حلقته ، والنجوم تتراقص متعانقة في سحر غريب ، وذلك بعد أن أحس بشعر الحيوان يلامس وجهه وينشر فيه البرودة والجمود .

3 ــ حسن واسماعيل . وهي قصة العربي ، اسماعيل ، الذي ضحى بابنه حسن ، لأنه تعدى على حرمته حين قتل ضيفه أحمد حقدا وغيرة . فقد كانت تعيش في خيمته فتاة تدعي عائدة ، يحبها حبه لابنته ، وكانت تبادل أحمد حبا بحب ، إلا أن أحمد اكتشف أن مضيفه ينوي تزويجها من ابنه حسن ، ولذلك قرر أن يتركه ويرحل عنه . فاجتمع قبل رحيله بعائدة وحدثها بما عزم عليه ، فالحت عليه في البقاء ، إلا أن احمد رفض ان يسيء الى مضيفه بأي شكل من الأشكال . ورآه حسن في موقفه ذاك ، فحقد عليه . ولما عزم أحمد على السفر عرض عليه أن يرافقه مسافة من الطريق ، فكان ذلك آخر عهد اسماعيل بضيفه . وما أن عرف نهايته حتى صمم على استرداد كرامته التي دنسها ابنه أمام القبائل الأخرى . وهذه القصة أروع ما في الكتاب على الاطلاق . وسيجد القارىء ترجمتها في نهاية هذا العرض .

4 ــ اليهود في افريقيا . يحتوي هذا العنوان على ثلاث حكايات عن علاقات اليهود ببايات تونس ودايات الجزائر وبايات وهران . وقد ركز المؤلف في حكاياته على معاملات اليهود التجارية التي هي أساس كل علاقاتهم بما في ذلك العاطفية منها .

ج ــ يتضمن القسم الثالث من هذا الكتاب القديم ما يلي :

1 ــ نبذة عن تاريخ الجزائر . ويتحدث المؤلف في هذه الدراسة عن أهمية الجزائر وكبر مساحتها وحدودها ، ثم يعدد أسماء أبطالها والدور الذي لعبوه في تاريخ الجزائر القديم ، ويذكر الدول التي تعاقبت عليها خلال العصور الطويلة ، وينهي هذه النبذة بالحديث عن سنوات الاحتلال الأولى .

2 ــ مملكة النباتات في الجزائر . تحت هذا العنوان يتحدث شترال عن طبيعة بلاد الجزائر ، ويشير في مقدمة دراسته إلى أنه لا تكاد توجد في نواحي الجزائر نبتة واحدة غير صالحة للأكل أو للتجارة أو للاستغلال في المعامل ، وأن

الأرض الجزائرية تتمتع بحيوية فريدة ، تمكنها من احتضان نباتات كل من أوربا وأمريكا دون عناية خاصة ! ثم يذكر الأشجار المختلفة والثمار المتنوعة التي تنشر عطورها وروائحها الزكية في اتجاه اشعة الشمس الرائعة ، ويؤكد ان لكل شهر براعمه وثماره وان نتاج الأرض الخصيبة لا ينقطع أبدا بصورة تامة . إن المؤلف في مقاله هذا يمجد خصوبة الجزائر وما تقدمه لأهلها من خير ونعمة وعطاء .

3 ـــ الجزائر في صورتها الحالية . يحاول شترال في هذا المقال أن يقدم صورة عن الجزائر بعد الاحتلال ، فيتحدث عن بعض الصناعات الوطنية ويصفها بأنها لم تتعدد بعد مرحلة الطفولة ، ثم يشير الى ما طرأ على طبيعة الجزائريين من تحولات بفعل احتكاكهم بالدخيل الأجنبي ، من ذلك أنه لا يوجد من يفوق الجزائري في تعاطيه للنبيذ ، فهو لا ينقطع عن تناول الخمر إلا عندما يفقد الشرارة الأخيرة من عيه ! وبعد هذا يرسم المؤلف صورة للجزائر ببناياتها الجديدة ، وشوارعها الحديثة وطرق مواصلاتها ، وحركتها المعمارية المتزايدة ، التي تجعل الانسان يشعر بأنه يعيش في مدينة أروبية ، ومنجزاتها بعد ثماني سنوات من الاحتلال .

4 ـــ حمام حضري . يتحدث المؤلف هنا عن تجربة دخوله الحمام ، فيصف داخله وجدرانه المغلفة بالمرمر ، وغرفه وزوازه وعملية الاستحمام من أولها إلى آخرها ، ويحلل مشاعره تجاه كل ما شاهده واختبره جسما وعقلا لأول مرة !

5 ـــ حضريات الجزائر . يتناول شترال في هذا المقال بعض مظاهر المرأة الجزائرية ، ويقدم وصفا لحياتها المنزلية ، وخروجها لحضور الحفلات الدينية التي كانت تقام يوم الأربعاء من كل أسبوع ، أو لزيارة قبور الأولياء ، وللثياب التي ترتديها في مثل هذه المناسبات ، ويستعرض حتى الحركات التي تصدر عنها عندما تريد أن تلفت النظر إليها أو تعرف بنفسها أو تظهر رشاقة قوامها بشكل معين .

6 ـــ سهل متيجة . يعود المؤلف لتمجيد الطبيعة الجزائرية ، فيتصور سهل متيجة حزاما فاخرا تحتزم به منطقة الجزائر تارة ، ويتصوره في بعض فصول السنة بساطا أخضر تطرزه الأزهار والورود تارة أخرى ، ويرى في آثار الضياع والقنوات ما

وصل إليه سهل متيجة من ازدهار وعمران خلال العهود الماضية . ويبقى بعد ذلك ما ذكره البعض من أن سهل متيجة كان حتى وقت غير بعيد مرعى لقطعان العرب لا غير . وبالتالي يصف الضجة التي قامت حول متيجة بعد الاحتلال ، وذلك حين اراد كل معمر أن يكون له نصيب في خصبها وتربتها المعطاء !

7 ـ قبر الرومية . يصف شيرال موقع هذا الضريح ثم يروي الأسطورة التالية :

قبل زمن طويل كان يعيش بين أفراد قبيلة حجوط رجل سعيد يدعى يوسف بن القاسم ، وكانت امرأته جميلة خيرة ، وكان أبناؤه في صحة وعافية ، يدينون له بالطاعة . وكان هو نفسه محاربا شجاعا ، ولكنه وقع ، رغم شجاعته أسيرا في أيدي النصارى ، فأخذوه إلى بلادهم وباعوه رقيقا . وكان سيده رفيقا به ، ومع ذلك كان يوسف يشعر بشقاء كبير ، وما أن يتذكر ما فقده حتى تنهمر الدموع من عينيه . وذات مساء اشتد به الحزن بعد أنتهائه من عمله فجلس تحت شجرة وأخذ يناجي نفسه قائلا :

ـ ويلاه ! من سيزرع حقلي في الوقت الذي أزرع فيه أنا هنا حقل غيري ؟ وما هو مصير زوجتي وأطفالي الآن ؟ هل ساحرم من رؤيتهم مرة أخرى ؟ وهل سأنهي حياتي بين الغرباء ؟

وبينما هو في مناجاته هذه رأى ساحرا مقبلا نحوه . ولما اقترب منه قال له :

ـ من أية قبيلة أنت ، أيها العربي ؟

فأجاب يوسف :

ـ أنا حجوطي .

ـ لا بد أنك تعرف ضريح قبر الرومية .

ـ أواه ! إني لأعرفه معرفة جيدة . إن منزلي الذي تركت فيه كل ما هو عزيز علي ، يقع على بعد ساعة من ذلك الضريح .

– أتريد أن تعود الى أهلك ؟

– أهذا سؤال توجهه الي ؟ ولكن لم الحديث عن أمر لن يتم أبدا !

– إن ما سآمرك به ليس أمرا مستحيلا . ففي امكاني أن أفتح لك طريق العودة الى وطنك ، إلا أني أطلب منك في مقابل ذلك عملا ، فهل أنت على استعداد للقيام به ؟

– تكلم وكن على يقين من أنني سأفعل كل شيء من أجل الوصول الى أسرتي . أنا على استعداد للقيام بكل ما يرضي ضميري .

– كن مطمئنا بالنسبة لهذا الأمر . أعرني الآن سمعك ليتضح لك ما أريده منك : سأحررك في هذه الساعة وأهيء لك سبيل الوصول الى الجزائر . ولك بعد عودتك أن تعيش بين أفراد عائلتك ثلاثة أيام كاملة ، على أن تذهب في اليوم الرابع الى ضريح قبر الرومية ، وتشعل نارا صغيرة ، ثم تحرق الورقة التي سأسلمها اليك . ها انتذا ترى أن هذا من السهولة بمكان . أقسم لي إذن بانك ستفعل ما أطلبه منك وسأمنحك حريتك في الحين .

ففعل ابن القاسم ما طلبه منه الساحر ،وأخذ منه ورقة تحتوي على حروف ورسوم لم يتوصل الى فهم دلالتها . واستعاد حريته في اليوم نفسه ، فقاده ولي نعمته إلى مرفا ركب منه الى الجزائر ، فلم يبق بها سوى لحظات من شدة شوقه الى رؤية أهله وسافر في الحال الى منطقة قبيلته . وفي وسع المرء أن يتصور البهجة التي عمت أسرته . وقد تقاطر اليه أصدقاؤه ليشاركوه أيضا فرحته بعودته ، فظل منزله مزدحما بالضيوف لمدة ثلاثة أيام .

وفي اليوم الرابع تذكر العهد الذي قطعه لمحرره ، فتوجه مع الفجر الى ضريح قبر الرومية ، وأشعل النار وأحرق الورقة الغريبة كما أمره الساحر . وما كادت النار تأتي على الورقة ، حتى اعترته دهشة كبيرة ، فقد برزت من شقوق الضريح آلاف القطع الذهبية والفضية ، كأنها أسراب نحل أفزعها حادث فطارت على غير هدى . وبقيت هذه القطع تحوم حول الضريح مدة ، ثم غيرت اتجاهها فجأة

وسارت نحو بلاد النصارى ، وقد اتخذت شكل عمود لا نهاية له ... تماما كما تبدأ الخطاطيف أو طيور الهجرة رحلتها البعيدة .

وكان ابن القاسم ينظر بالم الى كل تلك الثروات التي كانت تطير فوق رأسه ثم راح يقفز محاولا أن يمسك البعض منها . وبعد أن أتعب نفسه دون فائدة خلع برنوسه ورمى به في الجو فاستطاع بهذه الطريقة أن ينزل حوالي مائة قطعة فضية وعشرين قطعة ذهبية . وما كادت هذه القطع تلامس الأرض حتى غلق الكنز ولم تتسرب بعد ذلك أية قطعة خارج الضريح .

ولم يحدث ابن القاسم احدا عن مغامرته هذه باستثناء عدد قليل من أصدقائه ومع ذلك فقد سمع الباشا بهذا وأرسل العمال لهدم الضريح والاستيلاء على محتوى الكنز ، إلا أنه ما كادت تسقط ضربة المطرقة الأولى حتى ظهر شبح امرأة فوق قمة الضريح وأخذ يصيح :

ــ علولة ! علولة ! تعال إلي وساعدني ! أنهم ينهبون كنوزك .

فلبى نداءها سرب من البعوض بحجم الجرذان العادية ، وخرج من البحيرة المجاورة وطارد العمال بلسعاته القوية الحادة . ومنذ ذلك الحين فشلت جميع المحاولات التي استهدفت فتح ضريح قبر الرومية . وقد ذكر الحكماء أنه لن يتمكن غير النصراني من استلام الكنوز التي بقيت داخل الضريح !

د ــ في القسم الرابع والأخير يتحدث المؤلف عن مجموعة من المدن الجزائرية ، فيذكر شيئا من تاريخ قسنطينة بعد الاحتلال ويصف موقعها وجسورها وشوارعها وما فيها من بنايات وقصور وينوه بحيوية تجارها وصناعها ، ثم يتعرض لتاريخها في العصر الروماني والعصور التي تلته بصورة مختصرة . ويذكر مثل هذا أو قريبا منه عن مدينة وهران ، وعنابة وبجاية ، ومعسكر ، وشرشال ، ومستغانم ، والقل ، ومليانة ، وندرومة ، وينهي ذلك بالحديث عن آثار تقدامت ومعامل الأسلحة التي نقلها الأمير عبد القادر اليها .

وصاحب الكتاب يقدم آراءه حول الجزائر بصورة عامة ، إلا أنه لا يخفي

أن يفهم من هذا أن تلك الآراء صائبة دائما ، وإنما هو يخطىء احيانا كما أخطأ غيره قبله أو بعده . ويرجع خطأه إما الى التأثر بالأفكار الخاطئة التي كانت تشيعها الذهنية الاستعمارية في ذلك الحين أو الى سطحية بعض ملاحظاته عن الجزائر ونفسية سكانها . وهذا النوع من الآراء خاضع على أية حال للمناقشة والرفض .

حسن واسماعيل

كانت هناك عدة خيام قد ضربت تحت أشجار الطلح ، التي تفرز أغصانها من حين لآخر قطرات الصمغ ، فتلتمع كالزبرجد في ألق الشمس الغاربة ، وقد جلس أمام تلك الخيام خمسة أشخاص ، هم : الشيخ أسماعيل ، وهو عربي لا يزال ، رغم تقدم السن ، يحتفظ بقوته ونشاطه ، وزوجته ، وأبنه حسن ، وفتاة شابة ، وغريب يرتدي الزي التركي .

كان الشيخ قد حدث الغريب عن كيفية التحاق الفتاة ، وهي يتيمة فقيرة ، باسرته . وبعد أن قبلت عائلدة يد مربيها ، واصل الشيخ حديثه قائلا ، وقد أدار وجهه نحو الغريب :

ــ لقد أتيح لك اكثر من مرة أن تلاحظ ، خلال المدة التي أقمتها عندنا ، مدى حبي لعائلدة ، اليس كذلك ؟ اني اعتبرها ابنتي وأرجو أن ــ

ظن حسن أن كلمات أبيه تعنيه هو لا غيره ، ولذلك القى على عائلدة نظرة متشهية ، فاهتزت الفتاة وارتعدت فرائصها كما لو ان هبه ريح السموم المحرقة قد الهبتها . أما الغريب فاطرق مفكرا . فقد اثارت كلمات الشيخ الواضحة ونظرات حسن في نفسه مشاعر لا توصف . وعندما انتهت الجلسة اقترب من الفتاة وهمس في اذنها كلمة لم يسمعها غيرها ،

ثم ابتعد وعلامات الحزن بادية عليه ، دون ان يهتم بما ارتسم على جبين حسن من مخايل الغضب والعنف .

لم يخطر بباله ، منذ أن سكن منزل هذا العربي ، ان عائدة يمكن أن تكون عروس حسن ، ولهذا اطلق العنان لحبه . وكان هو الوحيد الذي نجا من السموم التي قضت على القافلة ، فوجد عند هؤلاء الناس الطيبين كرما حقيقيا وضيافة اصيلة ، وتعود على الحياة البسيطة الهنيئة الى درجة أنه لم يفكر خلال ذلك في الانفصال عنهم . وكانت عائدة تحبه ، الا أنه عرف ، في الوقت الذي أراد فيه أن يفتح قلبه للشيخ اسماعيل ويطلب منه يد ربيبته أن عائدة مخطوبة لشخص آخر .

وهكذا قرر ، وذلك لكيلا يحول بين الشيخ وبين تنفيذ ما عزم عليه ، أن يضحي بحبه لعائدة من أجل المحافظة على واجبات الكرم والضيافة ، وأن يهجر اسرة مضيفه الى الابد ، ولكنه أخفى ذلك عن الشيخ اسماعيل حتى لا يسيء الى كرمه وحسن ضيافته ، ولم يذكر له الحقيقة كاملة ، وانما حمله على الاعتقاد بانه سيعود اليه بمجرد أن تسمح له اعماله بذلك .

وعندما عاد جميع أفراد الاسرة الى خيامهم ، ترك الغريب خيمته واتجه الى العين القريبة . كان الليل هادئا ، وكانت الحشرات تلتمع بين الاعشاب كنجوم السماء . وفي تلك اللحظة تهادى فوق المروج قد رائع ــ وهاهي العروس تقف أمام أحمد فيقول لها :

ــ اني أحبك ، ويسعدني أن تبادليني هذا الحب ، ولكن بما أن الشيخ اسماعيل قد اختارك لتكوني زوجة لابنه ، فيجب ان تكوني زوجته ، ولا يليق بنا نحن الاثنين أن نقضي على آماله ، فهو ولي نعمتنا .

فأجابت الفتاة ، وهي تحاول ان تجد في نظرات احمد ما يثبت دعواها :

ــ ولكن حسنا لا يحبني .

ــ تقولين إنه لا يحبك ؟ الم تلاحظي نظراته المشتهية عندما اعلن اسماعيل انك خطيبة ابنه ؟

قالت :

ـ انصت ! هناك حركة بين الاغصان .

فاجاب الشاب :

ـ لعله حيوان يصغي الى حديثنا من مربضه .

ثم أضاف :

ـ هذا آخر لقاء لنا .

فتساءلت عائدة :

ـ ماذا تريد أن تفعل ؟

ـ انها مشيئة الله ـ سأسافر .

ـ ما هذا الكلام ، يا أحمد ؟ أتراك نسيت ؟

ـ لم أنس انك جديرة برجل ، هو ابن ولي نعمتنا الذي اقتسم معنا خيمته وخبزه . لم أنس أن ناكر الجميل أسوأ من ذلك الذي لا يقرى ضيوفه ، ومع ذلك فان هذا الأخير بغيض الى الله ، فما بالك بناكر الجميل ! ـ عائدة ، اعتبريني منذ الآن أخالك !

احنت الفتاة المسكينة رأسها ، واعترفت أمام نفسها ، والدموع تنهمر من عينيها ، أن أحمد على صواب . واعتراها الفزع فجأة وقالت ، وهي تشير الى الادغال القريبة منها :

ـ انظر ، يا احمد ! اليست هذه نظرات الفهد النارية ؟

فمسك احمد مقبض خنجره ، واتجه نحو المكان الذي اشارت اليه عائدة . وحين اقترب من الادغال سمع خطوات هارب يبتعد . ولما رجع الى عائدة قال لها :

ـ انها غزالة .

وأضاف بعد لحظة :

ــ سأترككم بعد يومين . واذا قلت لك ، يا عائدة ، اني ساعود بعد فترة قصيرة فلا تصدقيني . سأتركك الى الأبد !

فاعترضت الفتاة قائلة :

ــ ولكن كيف يمكن أن أكون زوجة لحسن ، وأنا أحب غيره ؟ ــ وأنت نفسك ــ

ـأنا ، يا عائدة ؟ اني أحبك حبا صادقا ، أني لا أحب خطيبة حسن ــ فلنقطع هذا الحديث .. عودي الى خيمتك ! لقد استخرت الله ، وهذه ارادته . ــ الا تريدين طاعته ؟

أجابت عائدة :

ــ نعم . لقد قال كلمته على لسانك .

وابتعدت عائدة بعد هذه الكلمات . أما أحمد فقد بقي واقفا في مكانه وكأنه مغروس في الارض ، وعيناه تتبعان عائدة الذاهبة . وعندما أختفت تحت خيمتها خيل اليه أنه رأى شبحا يقترب منها . وبعد يومين ودع الغريب الأسرة وكانت عائدة عاجزة تقريباً عن اخفاء ألمها عندما تحدث أحمد عن رجوعه القريب ، لأنها كانت تعرف معنى ذلك . وفي اللحظة التي كان فيها أحمد يهيء نفسه للسفر ، ظهر حسن ممتطيا صهوة جواده ، واقترب منه وقال :

ــ أسمح لي ، أيها الأخ ، بمرافقتك حتى تلك العين المعروفة .

فقال الشيخ العربي :

ــ احسنت ، يا بني ! رافق ضيفنا .. حفظه الله وأعاده الينا قريبا !

كانت عائدة لا تزال منتصبة كالتمثال في المكان نفسه بعد أن أختفى الراكبين عن نظراتها المتطلعة بمدة طويلة .

قال اسماعيل لزوجته وهو ينظر الى الفتاة مبتسما في اعجاب .

ــ سيجد حسن فيها زوجة رفيقة مطيعة .

ولكن العجوز اطرقت مفكرة ولم تجب . وفي المساء عاد حسن الى البيت . مرت الأيام التالية ثقيلة بطيئة . فقد ترك سفر أحمد فجوة محسوسة بين أفراد الأسرة التي أحبته ، باستثناء حسن الذي أبدى ملاحظة دنيئة ، وهي أنه لا يستطيع أن يفهم كيف اختفت البهجة من وسط الأسرة باختفاء الغريب . غير أن الشيخ قال :

ــ ان يد الله ، التي قادت الغريب الى خيمتنا ، قد ادخلت البهجة الى وسطنا . ذلك أن وصول المسافر انما هو هبة من الله . واني لأرجو ان يعود أحمد قريبا ، فقد اعترف لي أكثر من مرة بأنه يأمل في الحصول على زوجة من بين بنات قبيلتنا .

أجاب حسن ، وهو يلقي نظرة نافذة على عائدة المرتجفة :

ــ إن العين الشريرة تفتننا وتضع الغشاوة فوق أبصارنا وتشل حركتنا كالهوة تحت اقدامنا . ان الكرم أعمى ، والله لم يضع على جبين أي انسان علامة تدل على أنه خير أو شرير . ألا تشبه الحية الوديعة الأفعى السامة ؟

قال اسماعيل بحدة :

ــ أرجو ، يا بني ، ألا تتضمن كلماتك اتهاما للغريب الذي لا يستطيع أن يسمع ولا أن يدافع عن نفسه !

ــ هل يقتضي الكرم أن يصبح الغريب أبنا لمضيفه ويغدو الابن غريبا ؟

ــ هناك ، يابني ، افكار شريرة تطوف برأسك : أنت غيران . فهل سيلقي الغريب ، عند عودته ، فيك عدوا ؟

ــ وكيف يكون الأمر اذن اذا كان الغريب يحب خطيبة ابنك ؟

ــ في هذه الحالة سأترك للفتاة حرية الاختيار بين الاثنين .

ــ اذن ... لا أعاد الله الغريب أبدا !

قال الشيخ العربي ، وهو يترك مكانه :

ــ طهر الله قلبك من الحسد الجاثم فيه !

ثم سار اسماعيل وقد قطب ما بين عينيه ، واثقل صدره الظن والغم . وفي صبيحة اليوم التالي ترك مضرب خيامه ولم يعد ألا بعد يومين . كان وجهه شاحبا ، وحاجباه يتقاربان في أغلب الأحيان وبصورة متشنجة . وعندما اجتمعت الأسرة لتناول الطعام ، قال اسماعيل لابنه الشاب بهدوء :

ــ لماذا لا تحمل خنجرك في حزامك ، ياحسن ؟

فاجاب حسن في ارتباك :

ــ لا أدري ، يا أبي ! يبدو أني نسيت أن أغرزه في حزامي !

ــ امض للبحث عنه ، يا بني ! فأنا أريد أن أقارنه بخنجر آخر عثرت عليه يوم أمس .

قال حسن وهو يحاول أن يتمالك نفسه :

ــ اني ، يا ابي ، أفتقد الخنجر منذ بضعة أيام . وأذكر اني انحنيت مرة لأطيل الركاب ، فاضعت خنجري ولم أعثر عليه .

فارى الشيخ اسماعيل ابنه خنجرا ، أخفى شفرته عنه :

ــ أهو هذا ؟

أجاب حسن في حزم :

ــ نعم . انه هو .

فقال اسماعيل وهو يلصق نظرته النافذة بحسن :

ــ أنظر الى هذه الشفرة !

فتراجع حسن عندما رأى الشفرة الملطخة بالدم والصدا ، ونهض الشيخ وهو يقول :

ــ والآن اتبعني !

وسار الرجلان صامتين جنبا الى جنب ، وعندما اجتازا أشجار الطلح والجميز ، توقف اسماعيل فجأة وقال بصوت جليل رزين :

ــ اين تركت الغريب ، يا حسن ؟

ــ قرب عين الملح .

ــ هل تعرف ما اذا كان قد حل به مكروه ؟

ــ ومن أين لي أن أعرف ما اذا كانت نمر الصحراء فتكت به ؟

فصاح الشيخ بصوت غاضب وقد التمعت عيناه كالبرق :

ــ حسن ! وهل للنمر خناجر ؟ وهل يغتال الشجاع من خلف ؟

ــ عندما يتسلل الثعبان الى الخيمة ، فان الانسان يسحقه بدون رحمة .

ــ حسن ! لقد قتلت ضيف أبيك .

فصاح حسن وقد فقد السيطرة على نفسه :

أجل ! لقد قتلته ! لقد قتلت الشقي الذي خدع مضيفه وكافأ جميله بالخيانة .

ثم حدثه عن اللقاء الأخير الذي تم بين أحمد وعائدة .. مستنتجا كل شيء من حركاتهما وإشاراتهما ، لأنه لم يسمع حديثهما . كان اسماعيل يصغي اليه بانتباه ، وبعد ذلك أخذ بندقيته تحت ذراعه وحك الصوانة بابهامه ، ثم غرز طرف البندقية في الأرض واتكأ عليها وقال :

ــ حسن ! ان الضيافة واجب مقدس ، ومن اغتال ضيفه ، ولو كان مجرما ، حل به عقاب الله . لقد جلبت على العار ! ــ قتلت الرجل الذي كنت تسميه «أخا» بطريقة غادرة دنيئة جبان . واذا كنت متيقنا من ذنبه وعدالة عقابه فلماذا لم تتهمه أمامنا وتهاجمه علنا ؟ لكن دعني أجبك على ذلك ! انك لم تقتله بعيدا عن خيامنا لأنك تخاف ان يدنس دم رجل شرير أرضنا المضياف ، وانما قتلته لأنك كنت تعرف اني اصغي الى صوت العدالة لا الى ما تمليه نزوة عمياء .

لقد تركت بذرة الافكار الشريرة تنمو في وجدانك والتزمت الصمت الغادر . فبينما كنت تقدم يسراك للضيف الواثق بك ، الذي كنت تسميه «أخا» كانت يمناك تتلمس مقبض الخنجر . لقد تسللت كالكلب الخقير لتقبل يد ذلك الذي كنت تريد ان تقتله ، فرافقت الغريب بدعوى أنك تريد أن تدافع عنه وتحميه ، ثم غرزت الخنجر بين كتفيه ، ولعله كان في تلك اللحظة يدعو لخيمتنا المضيافة باليمن والبركة ! فالذنب ذنبك اذن اذا طردتني قبيلتي وأرغمتني على اللجوء الى القبائل المجاورة التي ستحتقرني بحق وتشير الي بالبنان . واني لاسمع الآن الاطفال يسخرون من «اسماعيل المضياف» بينما الشيوخ يوجهون الى السؤال الذي وجه الى اول من اجرم فوق الارض : «ماذا فعلت باخيك و» لا ينبغي ان يحدث هذا ! — أريد أن أسير مرفوع الرأس وأن يكون في وسعي أن أعرض على ابن السبيل خيمتي . فلنحتكم الآن الى الله . وغدا ستحكم بيننا القبيلة في اجتماع افرادها جميعا . اتبعني !

وعندما رجع اسماعيل الى خيمته ، اعترضت طريقه زوجته باكية ملوحة بيديها ، وصاحت بصوت راعش :

— ماذا فعلت ، يا اسماعيل ؟

فأجاب الرجل وهو يضع بندقيته في احدى زوايا الخيمة ، ويخفي رأسه في ثنايا ثيابه :

لقد سلمت المذنب الى قاضيه وأنقذت شرف قبيلتي .

ومنذ ذلك اليوم لم يظهر أثر لحسن قط ، ولعل أباه قد أبعده عنه في سورة غضبه الى الأبد .

الفصل الثالث عشر

كليمانس لامبنغ

كان لامبنغ ضابطا في جيش امارة أولدنبورغ ، ثم سافر الى أسبانيا سنة 1839 ، وبعد ستة اشهر ترك مدريد الى الجزائر حيث التحق بالفرقة الأجنبية ، وغادرها بعد سنتين وعاد الى وطنه المانيا . فوضع كتابا بعنوان «ذكريات من الجزائر» ، نشره عام 1844 بمدينة أولدنبورغ . وهو يصف في هذا الكتاب العمليات الحربية التي شارك فيها وبعض المواطنين الذين كان على اتصال بهم . وقد كتب في مذكراته بتاريخ سبتمبر 1841 ان بيجو خرق ويدمر ، فقد خرجت جيوشه الى سهل الشلف واستولت على قطعان وأضرمت النار في القمح ، فتحول السهل كله الى بحر من نار ! (ص 2)

والمؤلف يولي علاقته بالمواطنين اهتماما اكبر ، فقد كان يقتصر على الجلوس في المقاهي العربية بالقليعة ، ويقول عن سكانها انهم عرب أصلاء ، لم يجد ألطف ولا اكثر انسانية منهم حتى في الجزائر ووهران ، حيث بدأ اختلاط سكانهما بالفرنسيين يقضي على بعض طبائعهم وخصالهم الحميدة . ويذكر ان اللغة الأسبانية قد احتفظت بقوتها وانتشارها الى حد ما . وكان كاتب الحاكم صديقه ، ويدعى ابن يوسف ، وهو رجل مثقف ، فيما يقول المؤلف ، يروي كثيرا من الأشعار الفارسية .. ويتسم سلوكه بتواضع الانسان المفكر لا يني

يتأسف لكونه لا يعرف الا القليل ! والقليعة مدينة مقدسة عند العرب لان بها ضريح عائلة عبد القادر ، والفرنسيون يحترمون هذا الضريح ، ويقال ان الأمير عبد القادر نفسه تعهد بعدم الهجوم على هذه المدينة ونواحيها . (ص 7 — 10)

ويذكر لا مبينغ ان حاكم المدينة من أسرة الامير ، وهو غني جدا ويعد المثل الأعلى للرجل العربي ، لانه مخيف لاعدائه ، كريم جواد مع اصدقائه . وقد رآه شخصيا في رمضان يقوم مع ابنائه الثلاثة الكبار باطعام حوالي عشرين سائلا .
وطبيعة العربي ، في نظر المؤلف ، تجمع بين صفات متناقضة ، ففيها الشدة والحلم ، والقسوة والشهامة ، والجشع والكرم ، فعلى الانسان اذن الا يخضع هذه الطبيعة لمقاييس أروبية خاصة . ويؤكد بعد هذا أنه لم ير عربيا واحدا يحاول التشبث بالحياة أو يبكي خوفا من الموت ! (ص 20 — 35)

ويصف الحياة في الفرقة الاجنبية فيقول : «اننا نعيش في مجتمع الخيرات ، فالجندي والشحاذ شيوعيان بالفطرة ، الا أنه يبدو ان العرب لم تعجبهم هذه الشيوعية ، فقد اختفى عدد كبير من الجنود ، ثم عثر عليهم فيما بعد بالبساتين ولكن بدون رؤوس !» ثم يعود الى الحديث عن العربي من سكان القليعة وعن حبه للشعر والموسيقى ، من ثم لا يخلو مقهى واحد من مغن وقصاص ، وفيها يوجد اكبر مغن وقصاص في شمال افريقيا ، اشتهر بصوته الجميل العذب ، بحيث أنه أطلق عليه اسم حافظ ، الذي تذكر احدى الاساطير عنه أنه تبارى مع العندليب في الغناء ، فلما انتصر حافظ مات العندليب الما وحسرة ! وكان هذا المغني الجزائري ، واسمه الصوفي ، قد فقد رجله وهو في الثالثة عشرة من عمره في معركة مع قبيلة حجوط ، ومنذ ذلك الحين انصرف الى الشعر والغناء وهو يتحدث في شعره عن فتح الاندلس وانتصار عبد الرحمن وعظمة قرطبة . وكانت عيون سامعية تلتمع حين يرفع صوته بالغناء وتضعف أنغام المندولينة وتختفي شيئا فشيئا الى أن ينشد قصة هروب عبد الله آخر ملوك قرطبة — عندئذ تسكن المندولينة وتسقط رؤوس المستمعين فوق صدورهم !

وشارك المؤلف عرب القليعة احساسهم بالالم ، فالتفت الى أبن يوسف الذي كان جالسا الى جانبه ، وأخبره بانه شاهد مواطن امجادهم ورأى قصور

الملوك والحمراء وقرطبة . وما أن سمعوا ذلك حتى طلبوا منه أن يحدثهم عن الأندلس ، ولما الحوا عليه وصف لهم جمال قرطبة وأعمدته الكثيرة ، وحدثهم بأنه رأى دماء أجدادهم هناك .. فلم يستطع الزمن محو آثاره ، وعند هذا الحد احنوا رؤوسهم تحت برانيسهم . فقد عادت بهم أفكارهم الى ذلك المجد الذي بنوه هناك .. ثم فقدوه وأصبحوا لا يرون آثاره إلا من خلال ما يشعرون به من حزن وأسى .. من خلال ذكريات تنتقل من جيل الى آخر . (ص 40 ــ 55)

ويتحدث المؤلف عن المعارك التي دارت في نواحي مدينة جيجل ، فيقول ان القبائل كانت تهاجم معسكرات الجيش الفرنسي باستمرار ويلتحمون معه في معارك طاحنة في ربيعة النهار ، ثم يعودون الى اماكنهم . ولما شعر الجيش الفرنسي بعجزه عن التغلب على رجال القبائل ، والحيلولة دون تكرار تلك الهجمات ، أصدر القائد أوامره للفرقة الأجنبية بالهجوم ليلا على القرى الآمنة التي تسكنها تلك القبائل ، فخرجت للبحث عنها في الجبال ، ولما بزغ الفجر لمح الجنود موقع القرية واقتربوا منها ، فرأوا رجلا عجوزا في طريقه الى الحقل وأمامه ثوران . وعندما بصر بهم ولى هاربا ، ولكن البنادق سددت نحوه وأطاحته أرضا . وكانت الأوامر قد صدرت الى الجنود بقتل جميع الرجال فقتلوهم أمام نسائهم وأطفالهم عن آخرهم ونهبوا القرية كلها ، وأخذوا الأطفال والنساء معهم ، وفروا حين ظهرت قبائل أخرى ، واضطروا الى التخلي عن الماشية التي اصطحبوها معهم . وبعد أيام جاء الرجال وافتدوا النساء والأطفال . (ص 60 ــ 62)

ويقول بعد ذلك : «لقد تعلمنا القسوة من رجال القبائل الذين يدافعون عن وطنهم أكثر مما تعلموا هم منا الانسانية والمدنية ! ومن المؤسف أن الحرب ، وأهم شيء فيها هي السرعة ، كما قال صديقي الجزائري ، تحمل الانسان أحيانا على أن يفقد احساسه بالآخرين .. وينسى أنهم بشر مثله يألمون ويحزنون لما يحل بهم من مصائب . (ص 63) ويروي أنه دخل مع آخرين على شيخ مرابط يتعبد ، فالتفت اليهم وقال : «نو بوينو روميس ــ المسيحيون ليسوا طيبين !» (ص 65) .

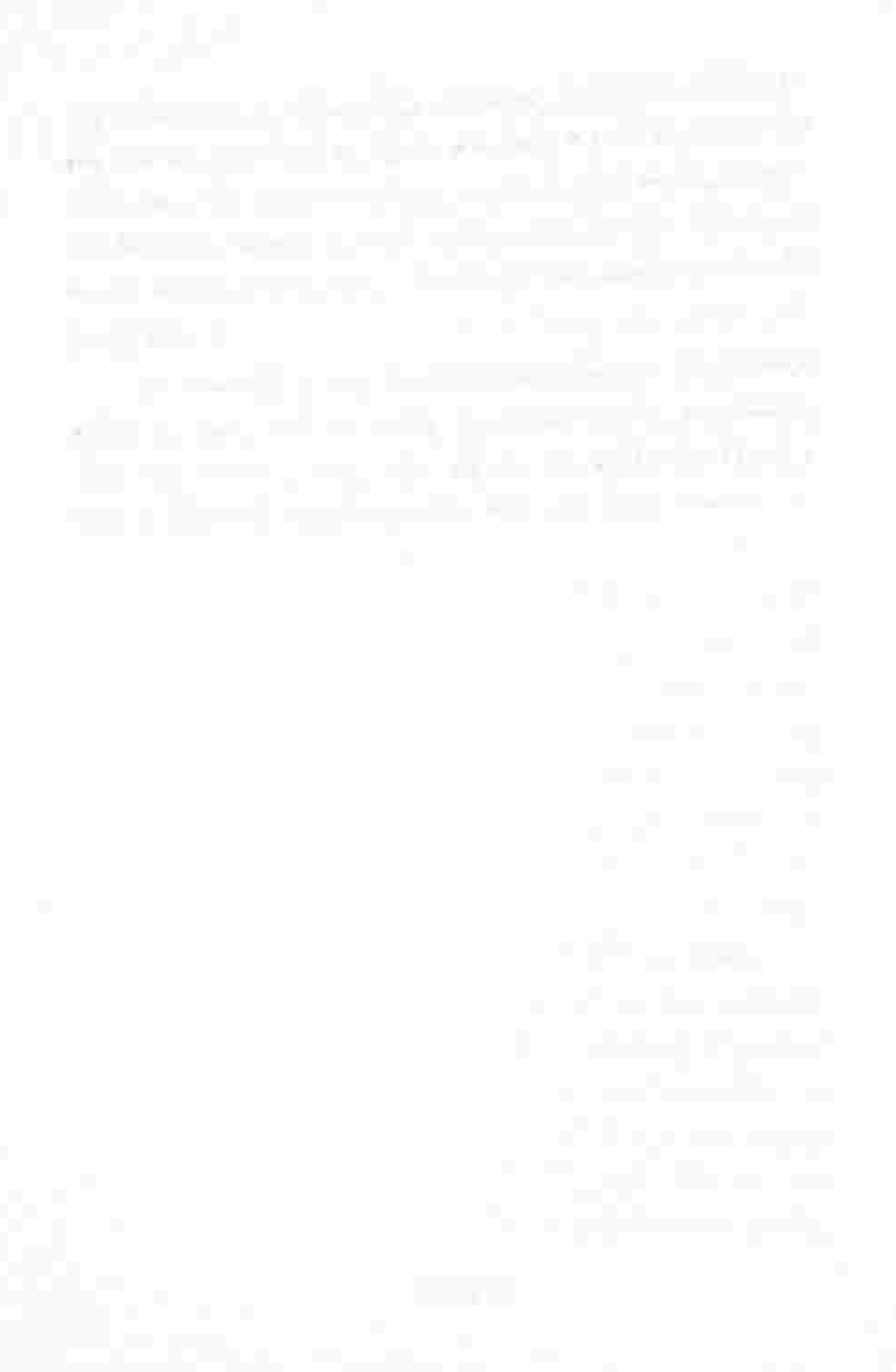
ويذكر لامبينغ أنه شارك في معركة ضد الأمير جرت في سهل الشلف ورآه من بعيد ، ويؤكد أنه لا يستطيع انكار اعجابه بهذا الرجل ، فقد كان وحده روح المعركة ولولاه لما وقفت ثلاث قبائل في وجه الفرنسيين ، ويتمنى للأمير عبد القادر مصيرا آخر ، لأنه اذا لم يسقط في المعركة فان اصدقائه سيخونونه ، كما حدث قديما ليوغرطة ، وهو يشبهه في شجاعته وصموده الى حد كبير ، ولكن الأمير يفوقه في نبله وشهامته ! لقد حرم الأمير على رجاله قتل الأسرى وكان يعامل المرضى معاملة انسانية كبيرة ، ويرجع ذلك ، في نظره ، الى ثقافة الأمير الأروبية التي تلقاها عن والده ، وكان والده قد عاش مدة في ايطاليا واطلع على عادات أهلها وتقاليدهم ، ويضيف أن البدو يجلون الأمير منتهى الاجلال لعدة اعتبارات .. منها انه خليفة عليهم . (ص 68)

وينتقل المؤلف الى وصف شجاعة العربي ويقظته واستعداده الدائم للحرب والنزال ، ويختم كتابه قائلا : «لو استطاع هؤلاء الناس أن يكونوا شعبا واحدا .. ولو أن هذه القبائل المشتتة اجتمعت على كلمة واحدة فوحدت بينها الأخوة الصادقة ، لأصبحت أمة من نوع فريد ! إنها حينئذ لن تتحدى فرنسا وحدها ، وانما ستتحدى العالم كله ، إلا أن بذرة الفساد فيها أن القبيلة تغير على الأخرى ، والطائفة تغالب الطائفة وتحاربها ، وذلك ما جعلها لقمة سائغة بالنسبة للفرنسيين الذين يضحون بكل شيء من أجل تقوية هذه العداوة ، فهي كسب لهم ، وقد نجحوا الآن في أن يجعلوا الجزائريين يتربصون بالجزائريين ويعلنون عليهم الحرب المبيدة ...»

ومعلوم أن الأوضاع كانت غير هذه الأوضاع في السنوات الأولى للاحتلال ، يخبرنا بهذا كارل ديكر في كتاب له عن الجزائر نشره سنة 1844 أيضا ، وذلك في حديث نقله عن ضابط الماني شارك في الحملة الفرنسية ، قال فيه : «لقد فهمنا جيدا تعلق الجزائريين بوطنهم الذي دخلناه نحن كفاتحين .. غرباء عن دينهم غرباء عن تقاليدهم . كان علينا أن نتوقع منهم ان يكونوا لنا اعداء الداء ، خاصة وأن الفرنسي لا يندمج في روح الأهالي ، كما فعل الانجليز في الهند ، وانما يحمل معه فرنسا وباريس اينما اتجه ! ولذلك تعذر على الفرنسيين حتى الآن أن

يستقروا كمستعمرين في مكان به أهاليه . ان الفرنسي أقل جشعا من الانجليزي ، ومع ذلك فقد كان مكروها في كل بلد حط رحاله به وساد فيه نفوذه ، فقد حالت شعوب المانيا وايطاليا واسبانيا ومصر بينهم وبين أن يكون لهم حق المواطنة . ولهذا فقد استولى الفرنسيون على الجزائر ، ولكن سنوات كثيرة بقدر الأيام التي تم لهم فيها الاستيلاء عليها لن تكفي للاحتفاظ بهذا البلد بطريقة اخرى غير قوة السلاح والنار !»

وقد اعتمد ديكر في وضع كتابه هذا ، وعنوانه «الجزائر .. والحرب الجارية هناك» على بيليسي وبوكلر - موسكتو وروزيه وفاغنر ورسائل بعض الضباط الألمان الذين انضموا الى جيش الغزاة . وعلى هذا فهو لم يكد يأتي بأي شيء جديد لم يذكره هؤلاء الغربيون ، ولذلك لم اخصه ايضا بكلمة خاصة .



الفصل الرابع عشر

لودفيغ بوفري

لا نعرف عن بوفري سوى أنه كان عضوا في نادي الهجرة وشؤون المستعمرات بالمانيا ، ولعل هذا وحده يكفي لمعرفة الغرض الذي وضع من أجله كتابا بعنوان «مستقبل الجزائر في ظل السيادة الفرنسية» ونشره سنة 1855 بمدينة برلين . وقد رفعه الى نابوليون الثالث .. اعجابا بالحضارة الجديدة التي دخلت أفريقيا بفضل الفكر الجبار الذي يهب من فرنسا .. وحلت محل الحضارة القديمة .. في زعمه ! ولا يهمنا حديثه عن وسائل الهجرة ولا عمن اغتني من الأوروبيين بعد وصوله الى الجزائر ، وإنما يهمنا حديثه عن الأمير عبد القادر وعن الظروف الاجتماعية والفنية . فهذا الرجل الذي يمجد فرنسا في اهدائه ، يقول هو نفسه عن الأمير «ان أوصاف يوغرطة كما ذكرها لنا سالوست قد تجلت مرة اخرى في شخصية الأمير عبد القادر عندما اقتضت الظروف ظهوره على مسرح الأحداث ، فقد جعلت منه الحوادث التي جرت في بلاده بطلا ، ولولاها لظل مجرد رجل بسيط أو مرابط ذي نفوذ كبير ، وهي أقصى مكانة كان يمكن أن يصل اليها تحت الحكم التركي . إن الاحداث قد جعلت منه رجل التاريخ .» واذا أخذنا الامدادات التي كانت تتوارد على الجيش الفرنسي ، وشجاعة جنود فرنسا وتفوق جنرالاتها في التنظيم الحربي ، بعين الاعتبار ، فلا يسعنا الا أن نقول ان

الأمير عبد القادر قد انهزم في هذه المعركة غير المتكافئة ، ولكن هزيمته كانت مشرفة ، ولذلك كان جديرا بأن يعترف له ببطولته الى أبعد حد ، وذلك ما فعله اخيرا نابوليون الثالث ! (ص 115 — 122)

ويضيف المؤلف ان ذكرى الامير عبد القادر ، الذي تلقى وحده الفاتحين بصدره ، بينما كان غيره ينظر الى المستقبل في يأس ، ستخلد ما بقيت اللغة العربية حية خالدة وما بقي العرب يحتلون مكانهم بين أمم الكرة الارضية فالعقل الشرقي ، الذي يمتاز بخياله وشاعريته ، يحمل الشرقيين ، وخصوصا العرب ، على تخليد أعمال ابطالهم وانتزاعها من الماضي . فلم يكن من المتوقع الا يجد رجل كعبد القادر ، تصدى بمفرده للدفاع عن دينه وحرية أمته ورأى كل عربي تضحيته في سبيل قضية مقدسة ، شاعرا من بين أفراد شعب شاعر بالفطرة — يخلد مآثره . وقد وجد هذا الشاعر بالفعل ، ونظم فيه شعرا ذاع بين الناس ، واذا كان هذا الشعر لا يبلغ طول الملاحم المعروفة فإنه يكفي لتخليد ذكراه بين العرب الى الابد . (ص 122 — 124)

يقول هذا الشاعر :

الهنا .. يا علي يا وحيد ،
ما أعظمك ، يا غافر الذنوب لمن تاب
ورجع ! ما اسعد من تحفظه وترعاه !
فهل لي أن أكون جاره في يوم الدين ؟
حين يراه العدو ينسحق كالقصب العفن ،
ومن لم يره هابه .
جواده .. يعرفه الموشى يبعث الروعة في النفوس ،
ودرعه المذهب يخض القلوب خضا .. فتنطوي
رعبا . وجياد فرسانه تشبه الغزالة في سرعتها ،
وقوائه النظامية سلسلة تلال مضفوفة ..
حين تنطلق يسبقها البرق المريع ،

تندفع كموج البحار في المدى البعيد
وتكتسح العدو كالسيل الجارف .. ترى
من يتلقى سيل الجبل بصدره ؟!
الدنيا كلها تود أن تخدم سيدنا ناصر الدين ،
لقد تسمى باسم أبيه .
أقرت له بالطاعة القبائل والأجواد ،
وخضعت العرب لإرادته .
إنه نور الله الذي يشع بين عباده ،
فشرفوه وامدحوه وأكرموه !
بسرعة البرق استولى على البلاد ،
وأصبحت له طنابيره وأعلامه ومدافعه ــ
وكان حليما . وجه رسائله الى جميع القبائل ،
فسارع الشرق كله الى طاعته . والتحق به
سكان القرى والمدن والأرياف .. جموعا غفيرة ،
فتركوا ظهور جيادهم والتفوا حوله . كانت لهم
جياد جميلة وأسلحة موشاة . قدموا له هداياهم
قائلين : لك ، ياركن الأركان ، أرضنا وسلاحنا
لاشيء يمكن أن يقارن بمجد ذلك
الذي رفع السلاح لنصرة دين رسولنا .
سيدنا الأمير أوفر الناس مجدا ،
ألم يملأ نفوس الظالمين رعبا ؟
انه سلطاننا .. الشريف الذي أنحدر
أبوه من صلب أحفاد هاشم . سوف
ستجدونه في يوم المعركة يجندل
كل من يتحداه ويقاومه علانية .
لقد قطع دابر الأشرار ، لذلك فهو .

بمديحنا جدير .. وعندنا أثير .
كان يزورنا بقواته المنتظمة ..
وكانت القبائل قاطبة تسير في اثره ،
فدخل مدننا القديمة الشهيرة .. فسعدت
برؤيته تلمسان ومعسكر ..
اسألوا عنه جبال الونشريس المشطورة ،
حيث ارتفعت أعلامه فوق القمم المائلة ،
واسألوا بعد جبال الغرب !
فرنسا نفسها .. بلد الملوك اعترفت به ،
فخضع له سكان التل والصحراء ، وانضوت
تحت لوائه الجموع الغفيرة من عرب وقبائل .
سلطاننا يتقدمه المجد والحلم ، فاحبه
كل الذين رأوه .
رجل عالم .. جميل الوجه فارس مغوار ،
يثبت في سرجه أمام عدوه . لك كل ماتملك ،
لك كل خيراتنا . فمر بما تشاء ، ياسيدنا ،
فلك منا الطاعة .. كل الطاعة ! فاجاب :
اسمعوا أيها الأجواد .. وأنتم أيها العرب
ويا جموع القبائل ! أنا الحاج عبد القادر
بن محي الدين . فمن المهم أن يعرفوا اسمي !
ليست السيادة .. ولا العرش مطمحي ،
وليس البريق الخادع صبوتي ، وذلك ما
تصبون اليه أنتم ،
كل رغبتي أن تنضووا اخوة تحت أمري ،
وتتخلوا عن العداوة والفوضى .
فانظروا إلى بلادنا ! هاهي قد وقعت تحت

نير الكافر ، فأصبح يعيش في أرض الجهاد
والبطولة ! أليس هذا عارا علينا ؟
الشعوب والملوك تشهد بذلك ، فاذا تعاضدنا
فالله ناصرنا لا محالة .
بالجهاد سنثأر لأنفسنا ولبلادنا ، وسوف
ندخل أرض الجزائر .. لنخرج الكافر منها ،
نطرده ونعيد لدِيننا مقامه ونقيم
أسسه من جديد . فقد وعدنا الله بالنصر ،
نحن العرب .. أبناء الرمل ، وسيكتب لأسمائنا
المجد والخلود ! فلا بد من الايمان أولا وقبل
أي شيء آخر . ومن عصى أمري فسوف يكون
القبر مأواه ! فالكفار بين ظهرانينا ، ومن ذاك
الذي يحتمل العيش بجانب العدو ؟!
قال الرجال : لسنا ، ياسيد الأسياد ، نفكر في غير
ما تفكر فيه ، سنفديك بالمقل ،
فاقض على جذور الشر .. ونحن معك !
لسوف نجاهد في سبيل الله وتكون
نصرة الدين الحنيف لنا . اذن
فنحن ، كما ترى ، رهن أقل أشارة منك .
ليس لنا سواك .. وأنت سيدنا . فتول
قيادتنا وسرينا الى المعركة . تحت امرتك
سوف نقضي على الكافر .. وتغدو مملكته
لنا . لن نرضى ان يظل صليبه مرفوعا
فوق أرضنا .
أنت سلطاننا .. فهيا بنا الى الجهاد ..
وسنعيد لكلمة الله عزتها وقداستها .

فقرأ معهم الفاتحة وأمرهم بالمعروف

ثم .. ساروا ..

(ص 124 — 127)

ويؤكد المؤلف بعد هذا ان الشعر في الواقع ليس غريبا عن المواطنين ولعله يعني الشعر الشعبي !، ويدعي أن كل انسان منهم شاعر بالفطرة ، وأشعارهم على الأغلب مرتجلة ، إلا أن لهم أغاني أيضا يحفظها الابن عن الأب دون أن يلحق كلماتها أي تغيير . وكثيرا ما يسمع المسافر غناء النساء وهن يقمن بطحن الكمية اللازمة من القمح قبل كل وجبة ، ويعتقد أن مقاطع هذا النوع من الغناء الذي لا نهاية له ، تلقي بعض الضوء على خلق المرأة العربية ، ويرى أن القطعة التالية اكثر دلالة على ذلك . وهي :

اراني اطحن .. اطحن والرحى تدندن ،
أغني واخاطب أختي ..
ابقى في الخارج ، ففي «الكربي» الغبار ،
سأخرج إليك بعد قليل لأحدثك !
بابا عبد الله ، أراك ذاهبا الى السوق ،
فخذ زوجي معك ، فهو لم يذهب اليه منذ
مدة . ليست به حاجة إلى أن يرى
ويسمع كل شيء !

وتستمر في طحنها وتغني على هذا النمط ، فيأتي دور الأم ثم الجارة ، ولكنها في المقطع الثالث لا ترسل زوجها إلى الحقل ، وإنما ترسله إلى الغابة ليحتطب لها ، فهي تعرف اين تجده ! (ص 154 — 155) ويقول ان بعض أغانيهم ذات نغمة هجائية ، تكشف عن عيوب أرفع الناس قدرا لديهم وذلك بطريقة هزيلة . والأغنية التالية تنشد في الدوائر الخاصة :

السيد القائد رجل مهيب ،

يرتدي قفطانا موشى بالذهب .
فوقه برنوسان من الحرير الخالص .
له شاشية من تونس وعمامة من استامبول !
وشاوشه يحمل عصا كبيرة ،
والسيد القائد يأخذ دورو والبايلك ،
يأخذ ثوراننا .. ويأكل قمحنا
ويقضي الليل عند حريمنا ..
ليتني كنت قائدا !
سيدي الشيخ رجل كبير ، كان أبوه
في وقت ما خماسا فقيرا ، وكان هو نفسه
يرعى الماشية مقابل أربعة دوبرو
في العام كله . لم يكن له سوى قميص
قصير وزوج من الأحذية وبرنوس مهلهل ،
لكنه الآن يزرع عشرين جيدة من الأرض
بثيراننا ومحراثنا وبزرعنا .. بعد أن
سرق ذلك من الحكر !
ليتني كنت شيخا !
الدراويش والماربطون أناس أتقياء جدا ،
حول رقابهم سبحات كبيرة ،
وفوق ظهورهم أكياس ضخمة ،
يصلون كثيرا ويأكلون أكثر .. مفضلين
القمح على الشعير .
فلماذا الغلة قليلة في المخزن ؟
ولم الزبدة قليلة في القربة ؟
الولي لا يرفض أي شيء !
ليتني كنت درويشا !

(ص 156 ــ 157)

ويذكر بوفرى أن العربي ، في رأيه ، يزيد في عدد نسائه بقدر ما يزيد في قطيعه ، وهو يفضل عادة هذه أو تلك ، وغالبا الولود التي تثير غيرة الأخريات ، فتتغنى الواحدة منهن بمشاعرها في أناشيد مرتجلة ، تتسم بالرتابة والحزن وتنطلق في إيقاع خاص ويعتقد أن هذه الأناشيد تلقي بدورها بعض الضوء على حياة العرب العائلية ، ومن ثم يرى أنه من الصائب ان يورد إحداها في كتابه ، وتقول هذه الأغنية :

اني امرأة هدها العجز والشقاء ،
لا أب لي ولا أم حنوناً !
زوجي ينفر مني ، لأني عاقر ،
يلف ظفيرتي حول قبضة يده ،
ويوقعني أرضا .. يدوسني بقدميه ،
فترتوي الأرض من دمائي .
يخص بالحب توارة ، ويهدي لها
المحارم الحريرية ، بينما يتركني أنا ..
أنا المسكينة عارية .
هل الذنب ذنبي
ان جعل رحمي عاقرا ؟
ويلي - يا ويلي يا ويلي !
كم مرة .. يا بابا عبد الله ،
كان محياى أبيض محمرا
كشمس الصباح فوق جبل أبلوغ .
وكانت يداى ناعمتين
لم تعودا على العمل الشاق ،
فقد كانت أمي تقول لي ،
استريحي ، يا طفلتي الحبيبة !
فلن تبقى معي أبدا .

ويلي .. يا ويلي يا ويلي !
لقد ذهب اللذان أحباني ،
وأحببتهما أنا من كل قلبي ،
لِيناما فوق تل الزيتون ،
لو أني نمت بجنبهما .. تغطيني ،
تستر جسدي أغصان النعنع الأخضر ،
ومن فوقها الأرض الباردة ..
لكنت سعيدة .. سعيدة إلى الأبد ..
ويلي .. يا ويلي .. يا ويلي !

وهذه المختارات التي قدمها المؤلف تُعبر عن نفسها بنفسها ، ويعلق على هذه الأمثلة القليلة بقوله : إن الإنسان حين ينظر إلى الأوضاع ، التي تعيش فيها الجزائر والظروف التي تمر بها ، يظن أن سكانها أبعد الناس عن الشعر ، ولكن الواقع خلاف ذلك ، ويشير في نهاية كتابه إلى أن جمع هذا النتاج الشعري ونشره بين الناس سيكون عملاً له أهميته وخطورته ! وهذه الأمنية التي عبر عنها الرحالة الألماني لا تزال في محلها إلى يومنا هذا . وقراءة ما نظمه الشاعر الشعبي عن الأمير ، والتفكير في الأحداث التاريخية التي أشار إليها ، يبين مدى ما يمكن استخراجه من مثل هذه الأشعار على الصعيدين التاريخي والاجتماعي . وإني لآمل بدوري أن يتاح لي في المستقبل تقديم نصوص أخرى تزيد هذه الفترة وضوحاً وجلاء .

محتويات الكتاب

الصفحة

سحب الطباعة الشعبية للجيش

عندما نذكر الجزائر، ويروق لنا أن نتحدث
عنها لمناسبة ما، تتبادر إلى أذهاننا لأول وهلة
كلمات مختلفة، كاد تتوهجها أن تكون مترادفات لها..
فهي تعني الثورة والتضحية، الجهاد
والنضال، التسامح والأخوة، الحرية
والكرامة، وبالتالي الفكر والإشعاع.
ولا اقتصر مدلول بعض هذه الألفاظ
على عصرنا الحالي، فإن لبعضها الآخر جذورا
تاريخية ضاربة امتدت عبر عصور متتالية
وخصها التاريخ بصفحات رائعة، لا تزال الأسف
الشديد تمثل حلقات مفقودة
في تاريخ الجزائر وثورتها الحديثة.

9789947240583